منصف المرزوقي

الطبيب والموت

فهرس

الجزء الأول : الهواجس
الفصل الأول : الرباعية واللوحة
الفصل الثاني : المعجزة والإخفاق
الفصل الثالث : يوم الموعد
الفصل الرابع: شطحات خيال أمام أسئلة بلا رد
الفصل الخامس: الشر وخسوف الآلهة

الجزء الثاني : الآراء والخواطر

الفصل السادس : تحت عدسة المجهر
الفصل السابع : في زنزانة الأبدية
الفصل الثامن : المنهجية
الفصل التاسع : أسطورة من الأساطير

الاهــداء

إلى أمّي التّي وهبتني حياتها بدون منّ .
إلى ايليا أبي الذي وهبني شعره بدون مقابل إلى كلّ الأموات - الأحياء الذين وهبوني بكلّ سخاء عصارة فكرهم وحياتهم فكانت حياتي وكان فكري .
إليكم جميعا أهدي هذه التأملات, مع المحبّة والعرفان .

ما للقبور كأنما لا ساكن فيها وقد حوت العصور الماضية
طوت الملايين الكثيرة قبلنا ولسوف تطوينا وتبقى خالية
أين المها وعيونها وفنونها أين الجبابر والملوك العاتية
زالوا عن الدنيا كأنهم لم يولدوا سحقتهم كفّ الفضاء القاسية
أن الحياة قصيدة أعمارنا أبياتها , والموت فيها القافية
منع لحاظك في النجوم وحسنها فلسوف تمضي والكواكب باقية
إيليا أبو ما ضي

تقديم
الدكتور المتشائل
محمد بن صالح

قيل عن الفرق بين المتفائل والمتشائم الأول عرف أنّ الدنيا تساوي طز وإنّ الثاني لم يدرك ذلك بعد .
لكن الأول أبله , لأن تجاوز المأساة بالقهقهة بكاء السخيف من العبيد. والثاني تعيس لأن البكاء ماء وملح .
ولذلك كان المتشائل ... والتسمية لأميل حبيبي .
والمتشائل رجل يأمل وييأس ويبكي ويضحك ويصلّي ويفكر بالصلاة ويستغفر الله قبل أن ينزع عن قارورة'' المرناق'' غطاءها , يسهر ليلة رأس السنة في ''الميريديان'' ويحضر ذبح الخروف صباح عيد الاضحى .
إنه الإنسان المتمرد .
يقول ''ألبير كامو '': **إذا كانت هناك قضية فلسفية واحدة فهي قضية الانتحار .**
والانتحار تقرير , أي تجاوز للموت بالموت .
كلّما جاء منصف المرزوقي إلى ذهني تذكرت شهريار كما صوره توفيق الحكيم .
ولست صديقا لتوفيق الحكيم لأنه وصل إلى درجة مصادقة الصهاينة لذلك لن أهتم بكتبه , ولو جاء بالمعجزة .
وأنا صديق المنصف , ولكنها صداقة جاءت بها الكلمة , ولذلك لن أكون موضوعيا في التنكيل به :
1) لأنه لم يكنف بالتطبيب داخل عيادة أنيقة كالتي يمتلكها أغلب زملائه .
2) ولأنه لم يعمل على أن يصبح نائبا بالبرلمان ليبدأ الحلم بالوزارة .
3) ولأنه يظلّ يحشر أنفه في كل المشكلات دون استئذان حتى أنه صار يتحدث عن الموت .
في فلم '' طيف الحرية '' للمخرج السريالي الإسباني'' لويس بونويل'' مشهد مروع :
يأتي مريض إلى صديقه الطبيب المختص ويكتشف الطبيب باعتماد الصورة أن صديقه مصاب بالسرطان ويعلمه بذلك, فيأخذ المريض في الضحك ثم يصفع الطبيب ... ثم يتفق الاثنان على العشاء معا .
الضحك والصفعة ! ذلك هو التشاؤل .
وصديقي متشائل , وربما أنا أيضا , وربما أيضا كل صعاليك المعرفة .
وليس للطبّ أو للعلم ما يقوله عن الموت , بل ربما كان العلم كاذبا حين عرّف الموت بالانتهاء , ولذلك ظلت الأسطورة جميلة .
ولذلك لا يزال هيغل صاحب أشهر مغازة لبيع التعازي .
- في أسطورة النفس يحكي أفلاطون عن خوفه من الموت بشجاعة المصاب بالسرطان , زعموا أن النفس كانت تسكن عند الله (مثال المثل) ولسبب لا يعلمه فيدغانشتاين تسقط النفس من هناك على الأرض وبسبب قوة الهبوط تنسى كلّ شئ عنها , ولذلك تبدأ في البحث عن ذاكرتنا , ثم تدرك ان عليها أن نشقى لكي نعود إلى الله فإلى الخلود .
يا أيّتها النفس المطمئنة عودي إلى ربّك ... .
- يقول جورج فيلهالم فريدريش هيغل المولود سنة 1770 والمتوفى سنة 1831 وزميل الفيلسوف شيلينغ : إن الحالة – أية حلة – تتطور فتنجب نقيضها الذي يعمل على حذفها تدريجيا , ولكنه في محاولته هذه يلتحم بها ويجتمع معها في وحدة تنتج عنها حالة جديدة هي تركيب من الحالة ونقيضها , وهلم تطورا وحذقا وتركيبا .
وهذا يعنى أن الموت حياة وأن الأيام صراع بين الحياة يترصد بها موت , وموت تتحداه حياة .
وأيّة حياة حين يكون الموت بديهة لا تقدر سفسطة هيغل عليها بشيء يذكر ؟
- ألم يقل أحدهم : بعدي أنا الطوفان !
- ألم يقل جان بول سارتر : جهنم للآخرين !
- ألم يقل الأمير ابن عم الأمير : إذا مت ضمانا فلا نزل القطر !
- ألم تغن حليمة : نخاف نموت ويعزوك في .

نعم ! يمكن للمنصف المرزوقي أن يختفي وراء مقولة فلسفية ويهرب من فكرة الموت .
ولكن خطاب الفيلسوف لا يجد مصداقيته الا خارج أذهان الفلاسفة .
حين سئل جان بول سارتر " الملحد " هل يعتقد أنه سيموت ملحدا أجاب :
- أوف ! على كلّ أتمنى ذلك .
سيحدثكم منصف المرزوقي عن الموت بداية من موت حقيقي ما كان له أن يأتي في الثالثة صباحا . وسيكون في حديثه ساخرا من الطبّ , ومن تعازي الفلاسفة , ومن أسطورة الخليّة الأولى , ومن حساب البلهاء (أوّل سمكة ظهرت منذ 450 مليون سنة) .
- يا للرداءة ! منذ مائة ألف سنة , والسيد الإنسان " يناضل " في سبيل تجاوز الموت , وأقصى نجاح حققه يتمثل في إضافة عشرة أيام , في تعطيل وصول الموت لعشرة أيام لا غير .
- يا للشاعرية الفجة ! منذ مائة سنة والسيد الإنسان يكذب على نفسه , كما يفعل الطبيب أمام المحكوم عليه بانتصار السرطان , أو كما يفعل الخوري أمام الخارج إلى ساحة المقصلة . لأن الموت بديهية مرة فالإنسان يشربه كما يفعل للدواء الحنظل , يشربه وهو يتخيّل السكر . لأن الموت بديهية مرة :
- حنط فرعون جسمه وقال : يا موت طز
- اختار حجارة صلبة ونحتها ثم ثبتها وسط الطريق (أو في مؤخرته) وقال : أنا أعظم من الموت .
- صنع مركبة وسافر إلى القمر وأخذ لنفسه صورة وعاد إلى الأرض .
- أمر حبيبته أن تبني له أجمل مقبرة مكتوب عليها : زروني كل سنة مرة .
- وهب حاله إلى الأطباء يتلهون به , يحذقون منه القلب ويضعون عرضه علبي بلاستيك .
- يؤلف كتابا عن الموت ومنهم منصف المرزوقي .
- ولكن ! !
****
إذا كان الموت بديهية , فلماذا لم نقبل به , لماذا نهرب إلى البطولات كي يبقي منا بعض الشي ؟ ولماذا نتوسل إلى العلم كي يضيف إلى أعمارنا ساعات ؟ ولماذا نسارع إلى قبول أكاذيب الأطبّاء ؟ ولماذا نعمل على أن يكون لكتبنا ايداعها القانوني في البلد الذي نغضب من قوانينه ؟ ولماذا نشتري تسجيلات عبد الباسط عبد الصمد ؟
ثم , ثم , ثم , ثم , ثم , ... من أين جاءنا التوق إلى البقاء أكثر , ... إلى ما يسمى الخلود ؟
- نقول الانتروبولوجيا : إن الإنسان كائن متدين في كل تاريخه .
- يقول فيورباخ أن الاغتراب كان منذ أن صنع الإنسان الهه واخذ يصلي له .
- يقول آخر : الإلحاد ردة فعل انفعالية تجاه الدين .
- هات لي حقيقة واحدة .
- خذ ألفا وتسعمائة وثلاثا وثمانين كذبة .
*****
ثلاث نقاط يركض وسطها صاحب الكتاب : العلم و الدين و الموسيقى أو العكس .
الموسيقى تعني أن الصراخ صوت الإنسان دون سائر البهائم .
الدين توسّل .
و العلم محاولة الذي ركب رأسه نهائيا .
أما الفلسفة فموزعة بين النقاط الثلاث هذه .
نجد الفلسفة حتى داخل القصيدة , و الكتاب ملئ بايليا أبي ماضي , و إيليا أبو ماضي أجمل مسافة بين بيروت و مونتريال.
كلمة لابدّ منها : لم يذكر الوطن مرة واحدة في كامل الكتاب , و كل الكتاب يحكي عن الموت , و لموت لا يكون خارج الوطن .
حين يكون الوطن في أوج الاحتضار , يظهر كتاب عن الموت .
- هل كان التنكيل بالمنصف المرزوقي موضوعيا ؟ .
- لا أعلم , ولكنى كنت عازما على أن أتعسف كثيرا .
****

الجـــزء الأول
الهواجـــس

الفصل الأول
الرّباعيّة واللّوحة

قسم جراحة الأعصاب
الخامسة صباحا
رنّ جرس الهاتف تلك الليلة للمرة العاشرة ... كانت ثالث ليلة في ظرف أسبوع .
- دكتور ... فتاة تطلبك .
رميت السماعة بعنف ونهضت متثاقلا , أصب أبشع النعوت على رأس هذه الزائرة الثقيلة ... أتراها تريد منوما كالتي سبقتها ؟
ونظرت إلى برقة وكأنها تعتذر عن الإزعاج .
لم تكن جميلة بالمعنى المتعارف ... لكن شيئا ما في ابتسامتها حببها إلى نفسي : طويلة القامة , لوزية العينين خجولة إلى درجة مضحكة , بهرتني جدائل الشعر الكستنائي التي تغطي كتفيها .
قالت : أنا طالبة في السنة الأولى طب ... أشتكي من صداع داهمني منذ بضعة أشهر ولم أنتبه إليه . فأنا , (وضحكت) لا أحب عيادة الأطباء ... لم أعره أهمية ... قلت هذه وهم .. وجع رأس بسيط أو عرض نفساني ... لكن , (وترددت) ازدادت الحالة تعكرا بمرور الأيام . وأصبحت أعاني نوبات من القيء .
أعتقد أن حدة بصري قلت ... هذه الليلة لم تنفع كل المسكنات . ونصحني طبيب العيادات الخارجية الذي ذهبت إليه في الأول أن أتقدّم إلى هذا القسم .
تبخر غضبي وأنا أسمع كلماتها , وأحسست بالخجل وانتابني في قرارة نفسي شعور غريب , كان مزيجا من الألم والثورة والحنان والخوف : ترى ماذا فهم الطبيب الذي استشارته والذي أحالها على ؟ وأخذت أفحصها وأنا أبتهل أن يكون ظننا خطأ . لكن الفحص السريري لم يترك محالا للشك : ورم في المخ ... وذهلت بعد ساعة وأنا أنظر إلى الصورة الراديوغرافية :
أنغم موسيقي إلهية تتصاعد من المسجلة وأنا أكتب هذه الأسطر ... فتذكرني بها . أنّها أنغام الرباعية الخالدة لفرانز شوبرت (الصبية والموت) .
الموسيقى لا تؤكل ولا تشرب , لكنها لحياة الكثير من أمثالي ضرورية ضرورة الخبز والماء . لماذا نحب الفن بصفة عامة والموسيقى على وجه الخصوص ؟ أيّ سر يكمن في هذا الولع الغريب ؟ الحق أنني لم أجد جوابا مقنعا عن هذا السؤال البديهي . يسمع الإنسان هذه الأصوات المستخرجة من أجهزة تفتقت عنها مخيلته , فيسكر وينتشي , لكنه لا يعرف لماذا خلق النّاي وشدوه . قال ايليا (1) في وصف حالتي وحالته والموسيقى تتصاعد من أوتار القيثارة :
كم هزّني الشدو الرخيم فساقطت * نفسي هموما أوشكت تبليها
فاذا أنا مثل البنفسجة التي * ذبلت فباكرها الندى يحييها
ولكم سمعت خفق أجنحة المنى * وحفيفها في نغمة توحيها
فسكرت حتى ما أعي سكر امرئ * بالخمر أترع كأسه ساقيها
كل النظريات النفسانية والفلسفية التي قرأتها لا تفسر شيئا مهما حاولت , فالقول بأن الإنسان يخلق الموسيقى . لان ذلك يسبب له لذة لا يفسر لنا لماذا يلتذ الإنسان بسماع هذه الأصوات . والقول بأن الموسيقى هي نوع من اللعب لا يفسر لنا لماذا اختار الإنسان هذه اللعبة بالذات , والقول بأنها سعي نحو الكمال لا يفسر لنا نهائية الكمال الذي تحققه الموسيقى , ولا السبب الخفي الذي يدفع الإنسان إلى البحث عنه بهذه الكيفية .
هل يستطيع القول – دون تجاوز مفاهيمها – أن الموسيقى لغة ؟
والسؤال الإضافي الذي يتبادر إلى الذهن – عندما نقول عنها أنها لغة – هو : لماذا يشعر الإنسان بحاجة ماسة للتعبير عن أفراحه وأتراحه بقرع الطبل أو بتأليف سمفونية القدر . هنا نصل بسرعة إلى حدود معرفتها , لأننا لن نفعل أكثر من تصفيف الفرضيات إن ابتغينا التفسير .
ترى هل أدرك الإنسان بصفة لا شعورية عجز لغة التخاطب عن التعبير عن أعمق ما فيه ؟ هل تذكره الموسيقى بلغة اندثرت جل آثارها من ذاكرته ؟ هل تكلم الموسيقى يوما ؟ هل يعلم في قرارة نفسه أنها لغة الآلهة وهل كانت كتابة الموسيقى بالنسبة إليه محاولة للدخول معها في حوار ؟

كان المرض سنة 1926 ينخر أحشاء شوبرت وهو يعلم أنه على موعد قريب مع النهاية , لذلك كان لا ينفك عن التأليف . إنها السنة التي سيكمل فيها سلسلة من الرباعيات من سلم Re Mineur المطبوعة بطابع الحزن المتسلسل إلى قلب الفنان وهذا أمر الجديد , فشوبرت إنسان مرح طالما تصاعدت ضحكاته سنين طويلة وهو يشرب البيرة في حانات فيينا مع أصدقائه .
وأحاول تصوره وهو يكتب في غرفته الحقيرة . ترى أكان يعاني من البرد وهو يترنم بالرباعية الخالدة التي ستضيء ساعات من حياتي ؟ يقال إنّ ليالي فيينا في الشتاء كانت تتعمد البرد , وأن الثلج كان يغطي شوارعها تآمرا عليه .
وأحاول تصوره وهو يغالب آلامه ليصبّ عصارة روحه على الصفحات البيضاء . فقر مدقع ... مرض قاتل ... شباب ضائع , ذلك هو الجو الخانق الذي عاش فيه شوبرت تلك السنة وهو يكتب بمنتهى السرعة , وكأنه يريد أن لا تضيع منه رسالة تلك الأصقاع اللامتناهية البعد لتلك العوالم المجهولة التي كان فكره همزة الوصل بينها وبين عالمنا المنكوب .
لا غرابة أن تبدأ الرباعية بحركة صاخبة كأنها قبضة تضرب على الطاولة ... لكن الصرخة لا تنطلق من حنجرة الكمنجات إلا لتصمت , فالثورة أمام القدر لا تجدي , لذلك يستعيد " شوبرت " هدوءه , وينطلق نغم هادئ حزين لا يدوم , إذ يبدأ حوار درامي بين تضرع الكمنجات وصوت الفيولونسال . وتتطور الموسيقى كصراع بين هذين الخصمين , وكأن الفتاة تريد أن تخلّص شعرها من القبضة المميتة ... وتتتابع الحركات القصيرة العنيفة في جو خانق مشحون ..
ويرتفع صراخ الكمنجات وكأنها تحكي يأسها وهي تبكي وتتخبط وتتوسل .
تشنجات الموسيقى في الحركة الأولى هي تشنجات الحي وهو في قبضة الشبح الأسود . وينفجر ألم مجنون من الكمنجات يزداد حدة كلما انتهرها الصوت الأجش للفيولو نسال , وتحسب أنها ستفلت من قبضته وأنها ستعود إلى دنيا الأحياء لتعرف لذة الحب وأمل الحمل وألم الولادة ... لكن هيهات فهو قد أحكم قبضته حول جدائل الشعر الكستنائي .
قلت ذلك اليوم بكثير من الرهبة : الظاهر أنك مصابة بمرض بسيط ناتج عن ضغط الجمجمة على عرق من عروق المخ . رأيي أن تسارع إلى القيام بعملية تافهة لرفع هذا الضغط حتى تسترجعي صحتك في أقرب الأوقات .
لم تكن الفتاة لحسن الحظ إلا في السنة الأولى ... هم لا يعلمونهم في هذه السن إلا تركيب الذرة , وقوانين المثلثات , وكيمياء النفط , وأشياء أخرى كثيرة لا تصلح إلا لاجتياز الامتحانات .
لم تفهم , باطمئنان : متى ؟ قلت بتردد : الآن وفهمت ...

فتجهمت وتلفتت مرتاعة كالطير أيقن أنه مأسور
وتحيرت في مقليتها دمعة خرساء لا تهمي وليس تغور
وجمت فأمسى كل شيء واجما النور والأطلال والديجور
الكون أجمع ذاهل لذهولها وكأن الأرض ليس تدور
سكت الغدير كأنما التحف الثرى وسها النسيم وكأنه مذعور
وكأنما الفلك المنور بلقع والأنجم الزهراء فيه قبور

ضربات الفيولونسال تزداد حجة عنفا . بدأت تطغى على عزف الكمنجات كأنها تريد أن تنهي هذا الصراع غير المتكافئ , ومع ذلك فالكمنجات تواصل نغمها العذب الوديع . هي الآن نائمة على طاولة العمليات ... جدائل شعرها الكستنائي الطويل على الأرض يدوسها الممرض الذي حلق رأسها بلا مبالاة وهو يتابع حديثه مع ممرضة التبنيج : لا أجد دفعا لهذا الشعور الغريب الذي تمكن مني وأنا ارتدي القفاز المعقم والممرضة تحكم القناع على وجهي : شعور بفظاعة الحياة وعبثها ,فظاعة الموت وعبثه .
أخر جني صوت الجرّاح الأول من ذهولي : سنفزع بسرعة فالعمل بغير حاجة إلى التطويل ... سنفتح الجمجمة لنترك مكانا للمخ وسنأخذ بعض الورم للفحص المخبري , على كلّ المعركة خاسرة مسبقا . وصرخ في وجهي ضاحكا : مالك هكذا عابس أتراك مرهقا ؟ ألم أوصيك بعدم الإفراط مع الممرضات ليالي الحراسة ؟ تلك اللحظة لم أكن هاوي مزح فقلت بحدة : لنبدأ, وبدأنا ...
لحن الحركة الثانية للرباعية هو أجمل وأصفى وأروع وأبهى لحن تفتقت عنه عبقرية موسيقار ... هو مزيج من حنان دافئ ... فيه براءة روح شوبرت ... فيه حزنه الساكن وهو يكتب

بتلك السرعة التي جعلت منه أحد أكابر الموسيقى قبل أن يخطفه الموت وهو في عمر الزهور فيه هدوء وسكينة ... نسمع فتنتشي وتتسلل إليك الدعة والاطمئنان . عزف الكمنجات هذه المرة هادئ مسالم وديع ... تتخلله بعض ضربات عنيفة للفيولونسال , لكن الكمنجات لا تهتم , تتابع عناءها الشجي . ولّى الرعب وولّى الخوف ... ولت الثورة ... هذه لحظات الأمل بعد اليأس , والاستسلام بعد الثورة .

يختلط صوت حفر الجمجمة في أذني بصوت الفيولونسال وهو يتصاعد من جديد بقوة , فالحركة الثالثة هي أقسى الحركات في كل المقطوعة ... موسيقاها جافة خشنة ... لا يكاد يبرز من خلالها عزف الكمنجات إلا بجهد بالغ ويجهض بمنتهى الغلظة ... أنها لحظة تمرد الحيوان على السكين .

الواقع أن صورة الموت في الفن موضوع لا ينضب ... الأساليب ... الغايات الأفكار ... المشاعر ... الطرق ... كل هذه الأوجه المختلفة لتعامل الفن مع الموت , هي معالم وحدود مساحة مجهولة في المعرفة .

تمثال أبو سمبل ... وجه من هذه الأوجه المتباعدة في الزمان والمكان ... وهو رمز أو مقطع من خطاب : (أنا فرعون كل شيء يتحرك إلا أنا ساكن , كل شيء يتأثر إلا أنا أتأثر كل شيء خائف وجلان إلا أنا ابتسم بصمت . من يعرف السر ؟ سيغمى على الشمس قبل أن تتشقق أقدامي ويسقط رأسي من علو شاهق ... نعم أنا هنا لا تحدى الزمن ... سأبقى شامخا أواجه القمر والريح ونجوم السماء إلى أن يبلغها الإرهاق . الزمن يحصد الأرواح ويطوي سجل الحضارات ... وسأبلى أنا وهو في نفس الوقت , وسندخل العدم سويا ...

ذلك هو طموح كلّ ذلك التماثيل التي تملأ أرجاء العالم منذ قديم الزمان , وهو أمل سخيف, لأن صمت الزمن أعمق من صمتها وصبره أعمق من صبرها , وصلفه أبقى من صلفها .

في لوحة (الصبية والموت) للرّسام (بالدوين قرين) مثلما هو في رباعية شوبرت يترك الفن لغة التحدّي الطفولي ليعبر عن حقيقة المشاعر التي يثيرها في نفسه شبح العدم : الخوف ... الرعب ... التمرد ... اليأس .

إنّ تحليل العمل الفني بلغة التخاطب هو دائما مجازفة , لكنني سأجازف , فالمهمّ ليس معرفة ما أراد الفنان التعبير عنه بل معرفة تأثيره على المشاهد , وأنا واحد من هؤلاء . فروعة هذه اللوحة التي تمثل الموت ممسكا بشعر فتاة تتوسل تكمن في براعة " قرين " , في قدرته على رسم ملامح الموت رغم تخيله الساذج للشكل . فعزرائيل يشبه جثة يغطي الجلد فيها بعض العظام , لكن عبقريته تظهر في دقة رسم العينين الغائرتين . تنظر إليها فلا تدري أي إحساس يضمره الموت وهو ممسك بشعر الصبية ... أفيهما حزن دفين ... عميق وكأنه قدر مسلط أم هل تدل نظرته على شيء آخر ؟

أقول لنفسي : تتوهمين , لماذا تريدين من عزرائيل أن يكون حزينا وهو يختطف روحها ؟ لكني لا أستطيع أن أغالب هذا الشعور وأنا أنظر إلى وجهه . حقا إن نظرته باردة لا تدل على شيء ... لكنني أفضل رؤية الحزن فيهما حتى لا أرى فظاعة اللامبالاة ... فعزرائيل وهو يمسك بالشعر الكستنائي يطل بوجهه إلى الفتاة وكأنه يغالب خوفه من النظر إليها ... وهي ؟ هي الحياة .

لم تتجاوز الثامنة عشرة من عمرها . عذراء . تفاصيل الجسم منها توحي لك بأنه الينبوع الذي سينفجر منه سيل الحياة العاتي , النهدان الممتلئان , جدائل الشعر الكستنائي , واكتناز جسمها الذي يزيد في الإغراء . فهو جسم الحياة ... فيه أماني اللذة ساعة الحب , وآمال الحمل ... وآلام الوضع ساعة تنطلق صرخة الحي الجديد ... يصفعك الفرق الهائل بين الكائنين من أول نظرة ... اللون . هي بيضاء ممتلئة وهو نحيف ... داكن . جسدها أملس تودّ أن تضع يدك على اللوحة لتلمسه , لكني لا أضن أنّك تتجاسر على لمس قطع اللحم العالقة بعظمه .

والشعر أيضا فارق هام : أنه شبه أصلع ... بعض الشعيرات البيضاء هنا وهناك . أما جدائل شعرها فتنحدر بوقاحة الجمال البريء الذي لا يعرف حدّا لسلطانه ... من الممكن أنها حاولت عندما لاح لها بوجهه البشع أن تختفي فيه . أتراها ظنت بسذاجة طفولتها المنتهية أنه لن يبصرها ولن يعرف مخبأها ؟ فعزرائيل يجذب الشعر إلى الوراء وكأنه اكتشف الخدعة ... وملامحها ؟ ووجهها مستدير وكأنه البدر ليلة اكتمال ... لكنه بدر يعرف أنه لن يضئ ظلمات الليل بعد الآن . ومع ذلك فهناك بريق من أمل يشع من عينيها السوداوين , فهي لا تنظر إلى

الهاوية المفتوحة تحت أقدامها بل تنظر إلى فوق وكأنها تعتقد أن الدمعتين الرقيقتين المنحدرتين على الخدين واليدين المضمومتين في آخر صلاة إلى جواب كافية لتغير أوامر السيد عزرائيل ... الظاهر أنها لا تفهم مثل ما لم تفهم يوم صرخت أولى مرة ويوم انتصبت تمشي لا تفهم لماذا تقطف روحها مثل ما تقطف الزهرة وهي لم تعطر بأريجها العالم أو مثلما تنطفئ نجمة , قبل أن يهتدي بنورها بحار أو يحلم على ضوئها شاعر محب .
الفكرة التي تستنتجها وأنت تنظر إلى اللوحة هي أن الموت بشاعة لأنه ظلم فيتمرد عقلك ... وتسري في جسدك قشعريرة ... لكنك سريعا ما تشعر بأن خوفها ... تمردها .. توسلها , لن يغير شيئا , فالطريق مسدودة أو أن معالمه قد ضاعت, أروع ما في اللوحة : الظلام الدامس المحيط بالفتاة وعزرائيل ممسك بها وكأنه يراقصها الرقصة الأخيرة .
تعود بالذاكرة إليها وهي تراقص ذلك اليوم عزرائيل . ها قد انتهاء حفر الجمجمة ... وأمسك بالخيط الفولاذي من جهة في حين يمسك الجراح الأول بطرفه الآخر , ونبدأ في نشر العظم وكأننا نجاران ننشر الخشب
عويل الكمنجات يطغى وكأنه يجاهد ليمحوا من ذاكرتي بشاعة تلك أحاديث التافهة المتبادلة وهي على الطاولة الحديدية الباردة . ترى أين كانت في تلك اللحظات وأنا أمسك بالمصاص الآلي يلتهم بشراهة دمها المتفجر تحت مبضع الجراح الأول ... أكانت تحلم ؟ .. وبماذا ؟ أكان حلمها كابوسا ؟ أكانت روحها المسجونة في الظلام الدامس تشعر بالرهبة ؟ أكانت تدري في قرارة نفسها وهي في عالم الغيبوبة أن لها موعدا قريبا مع عالم . هو سواد مطلق ... هاوية بلا حدّ ... أتفتح روحها وكنّا نخالها لا تع على عالم غامض مبهم , عالم لاشيء الذي قال عنه لا وتسو " منه تفجرت كل الأشكال ؟ "
أحاول أن أسرع عن نفسي ... لو خطر على بال الأطباء بكاء كل الموتى والتألم لكل الفظائع التي يعايشونها طيلة اليوم, لما اتسعت كل المصحات العقلية في العالم لإيوائهم ... لكني هذه المرة لا أريد أن أسمع صوت العقل . تمرد مجنون في داخلي ... لكنه تمرد عقيم ... ككل تمرد على الموت . إنه تمرد لا يعرف كيف ينفس عن غيظه . ابتسمت بمرارة وأنا أتصور نفسي أنحني لأبحث عن سلاحا , ثم استقيم وأرفع ذراعي وأرمي الحجرة لكل ما أوتيت من قوة في اتجاه السماء ... لو كنت على الأقل واثقا من أنها ستسقط أحد الملائكة لا جّربت دون تردد ... لكني كنت أعلم أنني لن أنجح إلا في شجّ رأسي عابر سبيل بريء براءة هاته الفتاة النائمة المقبلة على نوم أبدي
الموت فظاعة في الكبر لأنه يحسد إنسانا عبّأ ما عبّأ من التجارب ... في إفريقيا يسمون الشيوخ المكتبات الشفوية ويقولون : احترقت مكتبة عندما يموت من بينهم شيخ .هو لا يحصّل على ذلك العلم إلا بعد جهد جهيد ومشقة طويلة . تصوّره يناجي نفسه : " البحر الآن هادئ الصفحة ... تعلمت السباحة ... طفوت ... كدت أغرق المرار العديدة ... لكني نجوت وسأستعمل الآن كنز المعرفة... كنز التجربة " ... لكن الحاصد الأكبر له بالمرصاد ولقصر الرمل الذي قضّى عمره في تشييده .. ضربة قدم ويتهاوى كل الصرح وكأنه لم يكن . الموت فظاعة عند الطفولة لأن الطفل لا يفهم ... يموت وهو لا يدري أنه عاش ولماذا ؟
والموت فظاعة في الشباب . لأن الشباب أمل وطموح وتوثب إلى تحقيق الأماني التي وضعتها فيه الحياة . ينطلق الشاب على دربه يركض كعداء اغريقي وهو يظن أنه على موعد قريب مع إكليل الغار ... وفجأة تخسف به الأرض الصلبة وتبتلعه هاوية الظلام وهو على وشك تخطي عقبة المائة متر .
ها قد انفصل العظم أخيرا وتم شق السحايا , وها هو الورم .. يا الهى إنه يحتل أكثر من نصف الفص ... هو أكبر مما ظننت على الصور . ضاع آخر بصيص من الأمل ... ستكون عملية اقتلاع الورم مجزرة ... كان هدفها واضحا منذ بداية تمديد العمر بضعة أسابيع لا أكثر , فلماذا التحرج ؟ كنت أتساءل والمبضع يستأصل النسيج الآثم بسخاء : هنا داخل هذه الملايين من الخلايا التي نقطعها تكمن تجارتها , ذكرياتها , طفولتها ... أفي هذا الجزء بالضبط العالق بالمقص ... أول مباراة مع أبيها في الشطرنج ... وهنا أول قبلة ... أول ميعاد .. وهنا اسم دميتها ... وهنا كل ما حفظته عن تركيب الذرات وقوانين المثلثات والمربعات وكيمياء النفط وهنا مشاريعها التي لن تتحقق يوما .

كل أحلامها في هاته الأشلاء الدموية التي تسمحها الممرضة عن المبضع , وهي تتابع حديثها السمج مع المبنج .
وتنتهي الرباعية بمقطع راقص ... تسمع الأنغام الأولى فيخيل لك أنها تعبر عن حبور . ففيها مسحة من المرح والبهجة. أتراها أفلتت من قبضته ؟ .. لكنك تفهم بسرعة أن الحركة الراقصة .. هي رقصتها الأخيرة مع الموت ... تتسارع النغمات وتختفي منها تلك النكهة التي تخيلتها سعادة ... ويتصاعد عويل الكمنجات .. وستتتابع بسرعة فائقة ضربات الفيولونسال , بذكرك هذا المقطع بمطاردة القط للفأر . الجو خانق .. درامي .. صعب تخطيه . لو كان للموسيقى شعور لقلت أنها تتعذب . لو كان للموسيقى لون لقلت ألا يروعكم سواد هذا النغم ؟ ويخفت عويل الكمنجات شيئا فشيئا ويرتفع الصوت الجش المهيب للفيولونسال ... وتفهم أن مآقي عينيها قد جفت وأن تشنجات جسمها قد سكنت وأن الرأس قد سقط على العنق . أنّ جدائل شعرها الكستنائي وهي في قبضته لن يكون لها مخبأ بعد الآن , أن النهدين لن ينتفخا يوما , وأن الحلمتين لن تعرفا فم الرضيع الجائع وأن بضاضة الجسد لن تكون جنة أحد .
لما وضعت آخر غرزة في الفروة , قال الجراح الأول ضاحكا وهو يخلع قفازه "لم تحدثني عن تفاصيل ليلتك الحمراء"
قلت : حسب رأيك كم ستعيش ؟
قال ماطا شفتيه : شهرين على أكثر تقدير .
وقلت لها وكنت افتعل المرح لما استيقظت : لا تصدقي ما يقولونه عن مهارة الجراح الأول فأنا الذي أنقذتك , أنا مساعد بالطبع لكن الفضل في نجاح العملية عائد إلي وحدي . كنت حقا رائعا هذا اليوم وهذا بكل تواضع ... تعاملت مع مخك وكأنني ميكانيكي يصلح جهاز تلفزة عبث به أطفال أشقياء , لكن حذار أن تزعجيني مرة ثانية وفي الخامسة صباحا فمزاجي عادة رهيب في مثل هذه الساعة :
فتبسمت وبدا الرضا في وجهها * إذ راقها التمثيل والتصوير
عالجتها بالوهم وهي قريرة * ولكم أفاد الموجع التخدير
ماتت بعد أسبوع ولم أكن بحاجة إلى مخيلة خارقة لسماع عويل النائحات :
يبكين في جنح الظلام صبية * إن البكاء على الشباب مرير
ها قد سكنت آخر تشنجات الكمنجات , وغمر الصمت الغرفة صمت كثيف ثقيل على النفس , يزيده حزنا صفير الريح, وارتطام قطرات المطر على النافذة . وأحكم حولي البرنس وكأن برد الموت وليس برد الغرفة ليلة شتاء هو الذي يسري في عظامي . وتتسارع ذكريات كل الفظائع التي عايشتها إلى سطح الذاكرة وكأنها أمواج متلاطمة ترتمي على صخور الشاطئ الحجري لتنفس عن غضبها المكتوم ...
وأغالب نفسي حتى لا تستسلم للكآبة . لكن شعورا بعبث الحياة وفظاعة الموت يتسلل إلى أعماق نفسي فيلفها برداء بارد يحجب عنها النور والدفء ... وتصطك أسناني وأشعر بالرجفة تنتابني وكأنني مقرور ولا أدري دفعا لحزن هائل يطغى على جوارحي وأنا أفكر في أولئك الذين عبروا إلى العالم الآخر وفي قلوبهم رعب لا يوصف
لا شيء قادر بأن يسري عني هذه الليلة لا ضحك أطفالي , ولا أصوات الحياة الفياضة التي يحملها إلى الريح ... فأنا الليلة أحمل حدادها وحداد كل الموتى .
يا ليل أين النور ؟ إني تائه * هل ينبثق , آم ليس عندك نور
أكذا نموت وتنقضي أحلامنا * في لحظة والى التراب نصير ؟
***

الفصـل الثانـي
المعجـــــــــزة

كنت طيلة دراستي الجامعية في كلية الطب شغوفا إلى أقصى حدّ بدروس البيولوجيا بينما كان حماسي لحفظ أمراض هذا الجهاز أو ذاك فاترا إلى أبعد حدود الفتور .
وكنت أقف مشدوها أمام إعجاز الخلية , أمام ذكائها (نعم ذكائها) , أمام روعة ودقة القوانين التي تسيّر تعاملها مع بقية الخلايا , وكنت لا أتمالك من إبداء نفس الدهشة أمام مراحل تطور الجنين , والإعجاب بالوسائل الهائلة التعقيد والذكاء الذي يعتمده الجسم للدفاع عن وجوده , وقد استمعت طويلا بدراسة شتى مظاهر الحياة في عالم الطبيعة , وهالني ولا يزال تعقيد المخ .
أدرس وأبحث وأقرأ فأشعر بنوع من اليأس . لن أصل إلى فهم ولو جزء ضئيل من هذا الموضوع اللامتناهي .
ومعجزة الحياة ليست وقفا على الإنسان, خلاياي وخلاياك تعمل وفق نفس القوانين التي تسير عمل كل الكائنات الحيّة, الفرق في الأشكال فقط . كلنا ذوو لهجات مختلفة أما اللغة الآم فواحدة ... معنى هذا أنك لست قريب أو ابن عم القرد فحسب بل قريب وابن عم كل الكائنات ... تختلف درجة القرابة بالطبع لكنهم كلهم أقرباؤك , أولئك الذين تسميهم بلا مبالاة أو باحتقار الحيوانات . أسألك بالمناسبة هل جربت مرة قراءة بعض الأبحاث في حياة هاته الكائنات ؟ (1) ستصاب بدهشة : إنها عامرة بما نعرفه : الحب , العادات الاجتماعية , النظام , الثورات على النظام , الأرق , الحرب , العبودية , مقدرة فائقة الذكاء ... نعم الذكاء قال ايليا أبو ماضي .

لقد رأيت النمل يسعى مثلما أسعى لرزقي
وله في العيش أوطار وحق مثل حقي
قد تساوي صمته في نظر الدهر ونطقي
فكلانا سائر يوما إلى ما لست أدري

حار العقل في وصف وتصنيف مظاهر الحياة في أعماق البحر , في الأحراش , في الغابات , أو في ذلك العالم الذي لا نراه إلا بالمهجر : عالم الجراثيم , والحشرات , والحميات والبحث في هذا الميدان كجولة في أغرب حديقة وأجملها , تضيع في زحمة الروائع ويمل النظر ويستقبل العقل , وتظهر فجاجة وفقر أقوى المخيلات .
تلك الحياة هي التي تشكل نحن البشر غصبا من شجرتها الوارفة الأغصان .
والإعجاز ليس في عبقرية الحياة فحسب بل في جرأتها الخارقة وهي تتشبث بحبة رمل في الكون القاحلة. (2) مئات الملايين من النجوم تملأ الفضاء اللامتناهي . والنجم الذي نسميه الشمس ليس إلا أحد هذه النجوم المبعثرة بسخاء جبار لا يحتل مكانة بارزة ولا يلعب دورا هاما ولا يتميز بشيء عن بقية الأجرام الأخرى , بل يمكن اعتباره نجما ثانويا لا من ناحية الحجم ولا من ناحية الطاقة التي يبددها حوله . والأرض ؟ ظن الإنسان أنها مركز الثقل في العالم, ثم اكتشف الفكر بأنها حبة رمل ,ودفع بعض الشهداء حياتهم ثمنا لهذا الاكتشاف لكننا نعرف اليوم الحقيقة المخيفة... لماذا تطورت الحياة على هذا الكوكب التافه؟ لنفس الأسباب التي ربما تتطور من أجلها في العديد من الكواكب الأخرى في الكون.
ففي كل مكان منه قدر للمادة الخلاقة أن تدخل في تركيبات متزايدة التعقيد , هذا هو تصور اعلم الحديث وهذه هي دعائم الأسطورة الحديثة.
والقدر لا يتنافى مع المعجزة لأن كل شيء في الكائن الحي يحمل بصمات قوة جبارة حكيمة تبحث عن البقاء , والفكر البشري الذي يقيس طول وعرض ووزن الكون هو قبس ن هذه القوة الجباة ... أعماله الرائعة في ميدان الفن تملأ الدنيا وتغطي شروره وآثامه كما تغطي صادرات الدولة وارداتها. أتوقف مرات لأسرح بخيالي , لأتذكر ملحمة الخلية الأولى وصبرها الطويل وهي تجاهد للبقاء ... مغامرتها الهائلة وهي تطوق مطبات خمسة ملايين سنة ... كفاح أجدادنا وهم يجاهدون للنجاة من أنياب السباع المفترسة ... سلسلة الصدف الهائلة التي كنت إحدى نتائجها.

وتبهرني روعة الحياة وغرابتها , وأحدق في العالم وكأنني أراه لأول مرة , وأتمتع بمعجزة الرؤية . أحرك مفاصلي فأجدها تتحرك بلا ألم , وأتمتع بمعجزة الحركة , أمشي جذلان وأتمتع بمعجزة المشي .
هل الموت تتويج هذه المعجزة....السكينة المطلقة , اللاحركة، اللا مبالاة المطلقة .....الكمال أخيرا .لقد فرضت علي أيضا طبيعة عملي حسا مرهقا بهشاشة الحياة وبضعفها فأنا أعايش طيلة يومي وطيلة أيام السنة أشكال إفلاسها ونوعية المطبات التي هي لها بالمرصاد . هذه أم تنتحب في مكتبي وأنا لا أعرف كيف أخفف عنها.
- ولدي يا دكتور لا يمشي لا يتكلم, ليس كالآخرين ..." وحيدي فلذة كبدي طفت به كل المستشفيات وأنت أملي الأخير"
من أول نظرة أعلم أنه وقع في المطب . متى ؟ لحظة خروجه من الرحم .
- كيف وقعت الولادة يا سيدتي؟
- كانت ولادة صعبة جدا , ولم يخرج إلا بمشقة , واضطر الأطباء لإسعافه.
ذلك هو السبب. المخ لا يتحمل دقائق طويلة بلا أكسجين وتلك الدقائق الحرجة دمرت من المخ ما دمرت . وقع في المطب لحظة دخوله الدنيا.
علي أن أتسلح بشجاعتي , بلا مبالاتي , لكي أفهم هذه المرأة أن مخ ولدها ضاع وأنه لن يتحرك لن يتكلم , بأن سيصاب بنوبات صرع , بأن أي نطاسي في العالم لن ينقذه . ستبكي وستصرخ , ستهرع إلى مكتب المدير تطلب أن تستشير طبيبا أقدر مني هنا أو في الخارج لن يغير ألمها شيئا . ابنها وقع في المطب لحظة خروجه من الرحم , لحظة دخوله إلى الدنيا قد نستطيع اعتماد سياسة وقائية للتقليل من عدد هذه الحوادث المؤلمة , لكن هذا الطفل بالذات ضاع ولا أمل له ... اصطادته الشبكة لم يتعلم السباحة بعد, ولم يعرف قواعد اللعبة ...
هذا طفل آخر .
- دكتور إنه لا يتكلم ... لا يرى... لا يسمع .... متى وقع في المطب؟
وتتغير القصة والمأساة واحدة . تقرر المصير إبان تكوينه . " كانت لي جارة مصابة بمرض جلدي وحذرني الطبيب ولم أبه لتحذيره " التشخيص بسيط : أصابة حمى مرض الوردية الوافدة الحبلة وتسللت إلى الجنين فعاثت في مخه وقلبه وعينيه وأذنيه فسادا . أأصارحها ؟ يا إله لماذا لم تهبني قساوة الحجر ؟ لماذا أقسو على واحدة وأكذب على أخرى ؟ لا أترى . أقول لها : أعطيه هذه الفيتامينات وتسلحي بالصبر ولا أقول لها : أحسن حل هو أن يموت بسرعة , لا تقلقي سيموت في الأشهر القريبة .
هذا طفل ثالث .
- كان يلعب ويمرح يا دكتور , وكان قرة عيني ومفغرتي , وأصيب يوما بالحمى , وهاهو الآن : نصفه الأيسر مشلول, أأقول لها؟ - مات نصف مخه – إبنك سيبقى مشلول أعرج وسيسخر منه الصبية بتلك القساوة البريئة التي لا يجيدها إلا الأطفال, وسيعود إليك باكيا ولن تستطيعي مواساته وسيغمى عليه يوما أو سيصاب بحالة تصيبك بالتقزز والرعب نسميها الصرع, وسيضطر إلى تعاطي دواء القاردينال سنين طويلة . هو الآخر وقع في المطب ثلاث أو أربع سنين عددا هائلا من المخاطر . وآخرون و آخرون من كل الأعمار.
- دكتور رأسي يؤلمني منذ بضعة أشهر أفحصه وأسجل له تخطيطا للمخ , وبعض الصور الراديوغرافية . هو أو هي في ريعان الشباب . لكنه لن يذهب بعيدا , هذا الورم في المخ من النوع الخبيث , مسألة شهور أو سنة على الأقل وبعدها ستبتلعه الأرض . وقع في المطب ثلاثين سنة بعد ولادته...وهذا الآخر انفجر شريان دماغه , وقع في المطب خمسون سنة بعد تجاوزه أول امتحان ... وأنا؟ ماذا سينتظرني ... متى ستنفتح الأرض تحت رجلي ؟ غدا أم بعد أربعين سنة ؟ الجسم آلة بالغة التعقيد وبالغة الحساسية أيضا, ذرة رمل حقيرة ويتعطل المحرك.
فهرس الطب هو قائمة طويلة للمطبات التي نتجاوزها ونحن لا نشعر لكن المرض ليس وحده الممثل الرئيسي في هذه التراجيدية.
تمشي في الشارع وأنت تخطط لذلك الغد الأفضل المؤمل . فجأة وبدون سابق إنذارتسود الشمس ,ويباغت الظلام نور النهار وتخسف بك الأرض : حادث مرور بسيط . غدا ستكتب عنك الجريدة سطرين :" دهمت سيارة يقودها فلان المواطن الناشط فلان بن فلان في باب سعدون ,

ونقل الجريح إلى المستشفى حيث قضي نحبه بعد دقائق من وصوله وحكم على السائق بشهر سجنا مع إيقاف التنفيذ وسحب رخصة القيادة لمدة عام . ونلفت من جديد نظر البلدية إلى خطورة هذا إمكان لاكتظاضه وسوء تنظيمه ".

من يستطيع الجزم بأنه سيبقى حيا بعد أسبوع أو حتى بعد ساعة في أي لحظة يمكن أن تبتلعك الهاوية , الحرب , الزلزال , حادث طريق , رصاصة طائشة , سكين مجنون , نار تشب في النزل الذي تعودت عليه , سقوط طائرة ... قائمة المطبات الكبرى طويلة إما المطبات الصغرى فهي : خيبة أمل , فشل هذا المشروع أو ذاك , عبث الصدف بالمصير عبث الريح بأوراق الخريف وأمور تعرفها بما فيه الكفاية.

نشرت مرة جريدة نسيت اسمها كاريكاتورا أضحكني طويلا : فارس يمتطى حصانا حاول اجتياز ممر جبلي خطير: الهاوية على اليسار والهاوية على اليمين, الطريق ضيق يمنع من النكوص على الأعقاب . لا حل سوى المضي إلى الأمام . لكن إلى أين ؟ الطريق ملتو وخطير . بعد مشقة يصل الفارس إلى آخر الطريق حيث يقرأ لافتة " كتب عليها سيقع تتبع كل من لم تتهشم ضلوعه. قال لي أحد المرضى : حلمت ليلة نوم مضطرب بأنني تحولت إلى سمكة صغيرة تتخبط في قاع المحيط . تيار شديد يدفعني بقوة من الخلف وشيء ما يجذبني بقوة إلى الأمام . حاولت النكوص على الأعقاب لكن التيار كان أقوى مني فدفعني بعنف نحو شباك رهيبة تسد كل الطريق . كل أنواع السمك تتخبط فوقي وتحتي, الصغيرة والكبيرة, الأكلة والمأكولة كل سمكة تحاول العبور واكتشاف منفذ عبر فجوات الشباك . خفت أمام هذا الكابوس خوفا لم أعرفه في حياتي . عبرت الفجوة الأولى لكن شباك أخرى كانت لي بالمرصاد لا أعبر واحدة إلا وأواجه بأخرى, وكانت الفجوات تضيق , وصعوبة تجاوزها تزداد شيئا فشيئا. كان بكاء وصراخ السمك العالق في الفجوات يصم الآذان ... أسماك كبيرة جدا تتخبط فوق , وأسماك صغيرة تتخبط تحت ... وأفقت مذعورا والعرق يتصبب من جسدي عندما أطبقت علي كماشة الشبكة .

والحياة ليست هشة وضعيفة فحسب, ولكنها تبدأ في بعض الحالات تافهة مبتذلة, تمشي في الشارع ها هي الحياة أمامك وحواليك . لكنك لا تعيرها اهتماما كبيرا . شيء تافه عادي تنظر إلى الآلاف من المارة , لكنك لا تشعر تجاههم بأدنى حب يضيقون عليك ويضايقونك , وكلهم يتشابهون . ربما تتذكر ما يقولونه في الجرائد عن الانفجار السكني فتشعر بقلق غامض يسري في ألياف مخك . يا إلهي هل سيأتي يوم لا أجد فيه فوق سطح الأرض كله ربع متر مربع من الفضاء المخصص لي وحدي أنه لكابوس مخيف , سيقتل بعضنا البعض قبل ذلك بكثير . عندما تقترب المساحة الخاصة من كم ؟ متر مربع؟ يا له من توالد مهول . وتنظر باحتقار إلى كل هذه الكتل المتراصة من اللحم . يسعون إلى أهداف يظنونها هامة يتعلقون بها ويتشبثون وهم على موعد مع العدم .

تفتح التلفزيون أو تقرأ جريدتك فتغلقها بقرف, لا شيء سوى النصيب العادي من القتل وتصريحات السفاحين . هذه المجاعات الرهيبة والأعاصير المهولة والحروب المدمرة تتكرر في رتابة الأغنية العربية , أصبحت بمرور الزمن لا تثير في نفسك ظل شعور أو إحساس .

لك الحق في إضرابك الطويل عن قراءة الجرائد , فأنا شخصيا عندما أضع أنفي في جريدة يخيل إلى أنني أضعه في سلة نقابات . وأنا مثل كل الناس لا أحب الروائح الكريهة , وفظاعة الحياة لا تفرق بين غني وفقير . من دخل يوما مأوى العجز في بلدان ذلك الغرب الغني المتعجرف . أنه لشيء رهيب مخيف كابوس في عز النهار وملايين العجز هناك ينتظرون الموت وسط جو معقم . الخدمات المادية من أعلى طراز , والغرف نظيفة جميلة, والممرضون والممرضات ملائكة رحمة . لكن عجائز المغرب لا يحركون ساكنا , يكتفون بالجلوس وهم في حالة ذهول تام . ذهب كل شيء مع الريح . الأبناء والبنات وكذلك الأحلام . أدوا واجبهم في تصعيد الإنتاج لكن قوانين مجتمع الاستهلاك سحقتهم .

خلقوا لهم محتشدات في انتظار الموت ... يخفونهم عن الأنظار إن مجتمع الاستهلاك , يحب الجمال والفاعلية ولا يحب العجائز والمجانين, ولكل صنف مستودع , شكرا يا رب لأنني لن أشيخ في الغرب .

قرأت مؤخرا لصحفي أنهم في مدن القصدير في ''كلكوتا'' يتنابون للنوم : ثلاث ساعات للأب وثلاث ساعات للأم وثلاث ساعات للبن وهكذا ...

فالأسرة قليلة بالقياس إلى الطامحين في سرير . تسأل لماذا لا يستقلون على الأرض , فالأرض متوافرة حتى في مدن قصدير البنغال ؟ لأنها مغطاة بماء الأعاصير أشهرا عديدة في السنة , أي أنهم ينتظرون دورهم فهم ينتظرونه وقوفا في الماء .
والكائنات الحية الأخرى التي نسميها بلا مبالاة أو باحتقار غبي الحيوانات ؟ نلصق بها ظلما وبذلك العنصرية الفجة التي نمارسها بيننا – شتى أنواع العنصرية , ونطبق ضدها قانون القوة الحديدي الذي نطبقه على أنفسنا ... حياتنا ليست أحسن من حياتنا . الإنسان يحيا حياة الكلاب والكلاب تحيا حياة الإنسان ؟ والفرق ليس هاما لدرجة التي نتصورها .
تعب كلها الحياة – ألم كلها الحياة ... عذاب كلها الحياة ... وتسألني لماذا كل هذا التشاؤم ؟ أهو وجع الإنسان أم فراغ الجيب أم إرهاق الجري وراء الغد الأفضل , أم طغيان الشعور بتفاهة كل هذا ؟ هل هو التعامل مع الناس ؟ هذا تثيرك حقارته وذلك تكره فيه غباءه , همجيته الكامنة في أعماق نفسه التي هي همجيتك الكامنة في أعماق نفسك ويأتي يوم وينفصم ظهر البعير بفضل تلك القشة الشهيرة .
لا تتحمل أكثر : الظلم , والحرب , والألم , والتعذيب , والجوع , والمرض والقائمة الطويلة التي لا يحدّها صراخ طفل أو حشرجة محتضر. وكل هؤلاء البلهاء الذين يمشون في الطريق مرفوعي الرؤوس واثقي الخطى ... وربطة العنق محكمة حول العنق , يدورون في حلقة مفرغة في انتظار التلغراف , وقع اليوم حكم الإعدام الصادر يوم ولادتك الرجاء أن تتفضل وتدفع الباب وأن تكف عن التشبث بالحلقة .
أن قدرة الفكر على حماية أضعاف أحلامنا بالجهل والتجاهل والتعامي لا تعرف لحسن الحظ حدا . كل ذكائنا مجند لمحاولة نسيان حرج وضعيتنا وهشاشة الحياة وضعفها .
نحن مرتبطون بحياة الطبيعة نفسها , تقلب طقس مفاجئ وتختفي أنواع وأجناس وفصائل . زلزال واحد ويموت الملايين من البشر والكائنات الحية الأخرى . مجاعة أو حرب وتنقرض حضارة بأسرها . عالمنا المعاصر مهدد بالانفجار بين لحظة وأخرى . تقوا الإحصائيات الجادة أن في ترسانات الشعوب ما يكفي لتدمير الأرض أربعين مرة , ويقول قانون من قوانين التاريخ أن الإنسانية لم تكتشف سلاحا سواء أكان النيل المسموم أو القنبلة الذرية إلا واستعملته يوما ما . هل سيقف التاريخ خاشعا وجلا أمام القنبلة الهيدروجينية أو قنابل النترون أو القنابل الفضائية ؟ شخصيا لا أظن, كلنا جالسون على فوهة بركان . لكن لنترك مصير الحضارات والشعوب وتعال نتحدث ببساطة عن حياتي وحياتك . لأننا نعرف بالتجربة ضعفها وهشاشتها .
قال همنجواي مرة : إنه كان يمشي في الأرض ويتساءل : متى ستنفتح اليابسة تحت رجليه لتبتلعه , تجربة الحياة بالنسبة إليه سفرة في بلد المطبات . يمشي الإنسان مترددا أو واثق الخطوة , وفجأة , وبدون سابق إنذار تبتلعه حفرة اسمها : الحادث , المرض, الموت , الهاوية على اليمين والهاوية على اليسار والطريق ضيق ملآن بالمطبات ولا يمكن النكوص على الأعقاب ويعبر" ريمون رويال" عن هذه الحقيقة المخيفة التي نشعر بها كلنا قائلا : بأن الحياة في تعاملها الدائم مع عالم الطبيعة كمقامر رابح لكنه دائما على قاب قوسين أو أدنى من الإفلاس .
وأنا كما قلت في حياتي العملية أعايش شتى أنواع وأشكال ومراحل هذا الإفلاس طيلة سنوات دراستي كنت في كلية الطب أقضي أيامي في حفظ مئات الأمراض التي تتسبب فيها الحمى والجراثيم والحشرات وانسداد الشرايين .. وحوادث الطرقات ووو .. وكنت أتعجب : كل هذه الأخطار تهدد حياة الإنسان وأنا لا أزال حيا وكل هؤلاء الذين معي أحياء يرزقون ؟ وكأن كل مرض أحفظه بمثابة فجوة من فجوات تلك الشباك الرهيبة المنصوبة في وجه صغار الأسماك وكبارها, إلى حدّ الآن لم تصطدني الشبكة لكنني أعلم بالتجربة أن الصحة كما قال أحد " الظرفاء " حالة مؤقتة لا تبشر بخير وأحمد الله سيد الكون . لا عجب أن يكون الخوف أعمق وأقوى المشاعر الإنسانية وأكثرها انتشارا: والخوف أقدم شعور كلنا لا نزال بصفة أو بأخرى ذلك الرجل الأول القابع في الكهف مرتعد الفرائص في البرد والظلمة شاهرا سلاحه لمحاربة الليث المكشر المتسلل إليه عبر تعاريج المغارة وحوا جز الدفاع البدائية. أول شعور بجري الطفل هو الخوف . الخوف من الظلمة , من ذهاب أمه بلا رجعة , من صولة أبيه, من فقدان حنان الوالدين عند ولادة الأخ الخصم, من التقريع, من عدم تحقيق الصورة المثالية التي يريدونها له, من

معلمه, من زملائه الأقوياء, من الحب, من المسؤولية من الرؤساء من المرؤوسين , من الحكومة, من الفقر , من الحاجة, من العجز من المرض, من اللسان, من عدم الوصول, من النهاية الحتمية .
كلنا نعاني من الخوف على شتى المستويات, بشتى الأنواع في ظروف متباعدة ولكننا خائفون , قرأت يوما مذكرات زعيم عربي يعترف أنه لا ينام إلا وبجانبه مسدس وحمدت الله على أنني لا أعرف هذا النوع من الخوف وعلى أن الحياة تنسينا الخوف , وأننا عرفنا كيف تروضه بذكائنا وقدرة النسيان كل الكائنات تعرف الخوف, في المساء, وفي قاع البحر .
- دكتور أحشائي ... ظهري ... عيني . رأسي قلبي ... مفاصلي كنت أنجح إلى حد ما في معالجة الرأس والقلب والمفاصل لأواجه دائما وأبدا استحالة علاج مرضهم يتخلص في طمأنتهم من الخوف . ذلك هو مرضهم الحقيقي, كلهم بدون استثناء ... بمرور السنين يصبح الخوف الهاجس الأوحد والمرض الحقيقي ... تتثاقل خطاهم والزمن يدفعهم باتجاه الجدار الأملس الشاهق, يتشبثون بكل ما تمسك أيديهم المتشنجة , نحن الأطباء لا نعرف دواء ناجعا لذلك الخوف من الجدار الأملس ومن بابه الذي ينفتح للابتلاع وكأنه فك تمساح من الظلام , من المجهول الذي يؤدي إليه . حقا نحن نعتمد على بعض العقاقير تسكن فيهم الخوف وتخدّر العقل والحواس , لكنها وسائل تافهة , فنحن بهذا كمن يحاول إطفاء حريق بملاعق القهوة , لذلك ترانا نحيلهم عندما تقترب النهاية على أخصائيين في الروحانيات يعطونهم ويصبرونهم وهم يفتعلون الأنصاب إليهم ويحوقلون ويبسملون, يشجع بعضهم البعض الآخر, يتظاهرون بالحكمة لكن جلدهم مفتعل وصبرهم مصطنع .
يتسارعون إلينا حالما تظهر أول بادرة مقلقة. ولكم جنينا الثروات من محاولة ترويض خوفهم , مستشفياتنا مثل مستودعات السيارات المعطوبة, نصلح خطأ كهربائيا نكبس زرّا وننفخ هواء جديدا في العجلات المطاطية , ثم نطلقهم من جديد إلى عالم الحركة الهوجاء, لكنهم دائما معنا على وعد . واكتسبنا سلطة رهيبة بفضل تغلغل الخوف فيهم . يتوالدون تحت مراقبتنا الدائمة, يتزاوجون بإذننا , ويعهدون إلينا بفلذات أكبادهم التي تمشي على الأرض , ويتزاحمون على أبوابنا لنعينهم على تحمل الأشغال الشاقة المؤبدة التي حكمت عليهم بها الحياة وأغلب وقتنا مخصص لطمأنتهم .
- " كل شيء على ما يرام . ترجم : لن تموت هذه المرة ... مجرد وعكة بسيطة .. كان الموت يدغدغك .. يمزح معك ... ما أقل دمه هذا الموت ... لكنه لا يريدك . اسمك على القائمة طبعا لكنه لم يناد عليك إلى حد الآن .
- هل معنى هذا يا دكتور أنني في مأمن ؟
- طبعا. أنت في مأمن و لا أضيف بقى شهرا.. شهران... عام، أربعون عاما لكن سينادي عليك يوما للوقوف أمام الباب.
- نكذب عليهم بصفاقة، بدون عبقرية. لم يجهل واحد منا القدرة على تطمينهم. ألسنا حملة العلم؟ ليس لهم الخيار: تصديقنا حتى بإنكار الواقع البديهي، أو الغرق في بحر الخوف و نحن الوحيدين في السوق، نمارس نوعا من المونوبول لا يجرؤ أحد على منافستنا . لماذا لم يثوروا على صلفنا إلى حدّ الآن؟ الخوف دائما.. هل الموت شيء رهيب إلي هذه الدرجة؟ .. يتركون الحياة ساخطين غاضبين ناقمين. القليل منهم من يخرج مرفوع الرأس و كأنه شبع من الوليمة التي وفرتها له الحياة. البعض منهم لا يتحمل الخوف، فيختصر الطريق و ينسحب رافضا قواعد اللعبة قبل انتهاء مباراته مع الحياة. الضحك أنهم يعبرون الباب و هم يأملون في متابعة السيناريو في عالم آخر مثل هذا العالم، و كأن رداءة سيناريو الحياة و فظاعتها لم تكفهم. صحيح أنهم يتخيلونها أحسن بكثير من هذا العالم المنكوب، لكنني واثق بأنهم على أتم الاستعداد لقبول أي شيء يشبه الحياة مهما كان الثمن . أعطهم الحياة و خذ منهم ما تريد . لولا خوف الموت لما قبلوا لحظة كل الأهوال التي يمرون بها.
و الخوف قدر كل حيّ.
لقطة خاطفة:
في مكان ما من إفريقيا، ترعة بها ماء... و من الماء خلق كل شيء حي و في الماء وضعت كل أسباب الموت. هاهي، الشمس تنسحب. الظلام ينسج خيوطه حول الأشباح، الخائفة. في

هذه اللحظة بالذات تخرج الكائنات من الأدغال . القرد يقترب من الماء بحذر.... ينظر حواليه ثم يشير داعيا الأنثى و صغيرها ، كل الحركات تنم عن خوف عميق ... أجسامهم في حالة تأهب للفرار... كائنات أخرى تشرب بصمت و المرور بالترعة إجباري للحياة، لكنها مقبرة الضعفاء وراء الأعشاب تنتظر السباع... منذ القديم والسباع تعلم أن لها موعدا مع اللحن قرب الترعة : مملكة الخوف , خوف الطريدة من الوقوع في الفخ القاتل , وخوف الصياد من إفلات الفريسة . كل حي خائف . الخوف أنه الشعور الأكثر عمقا في الكون

وأقض مضجعي أكثر من مرة السؤال التالي : أترى الموت تتويج الإخفاق ... إخفاق المعجزة ... معجزة الحياة , أيكون الخوف أولى بوادر الشعور بعبث الجهد , وفشل الحيّ .

ولكي أنسي ... تعوّدت أن أغني لنفسي أروض خوفها من الحياة وخوفها من الموت بأبيات ايليا :

كم تشتكي وتقول أنك معدم ... والأرض ملكك والسما والأنجم
ولك الحقول وزهرها وأريجها ... ونسيمها والبلبل المترنم
والماء حولك فضة رقراقة ... والشمس فوقك عسجد متضرم
والنور بيني في السفوح وفي الذرى ... دورا مزخرفة وحينا يهدر
فكأنه الفنان يعرض عابثا ... آياته قدام من يتعلم
فكأنه لصفائه وسنائه ... بحر تعوم به الطيور الحوم
هشة لك الدنيا فما لك واجم ... وتبسمت فعلام لا تتبسم
إن كنت خسران لعز قد مضى ... هيهات يرجعه إليك تندم
أو منت تشفق من حلول مصيبة ... هيهات ينفع أن يحل تجهم
أو كنت جاوزت الشباب فلا تقل ... شاخ الزمان فإنه لايهرم
أنظر فما زالت تطل من الثرى ... صور تكاد من حسنها تتكلم
ما بين أشجار كأن غصونها ... أيد تصفق تارة وتسلم
وعيون ماء دافقات في الثرى ... تشفي السقيم كأنما هي زمزم
ومسارح فتن الوسيم بحسنها ... فسرى يدندن تارة ويهمهم
فكأنه صب بباب حبيبه ... متوسل مستعطف مسترحم
والجدول الجذلان يضحك لاهيا ... والنرجس الولهان مغف يحلم
وعلى الصعيد ملاءة من سندس ... وعلى الهضاب لكل حسن مبسم
فهنا مكان بالأريج معطر ... وهناك طود بالشعاع معمم
صور وآيات تفيض بشاشات ... حتى كأن الله فيها يبسم
يا من يحن إلى غد في يومه ... قد بعت ما تدري بما لا تعلم

***

الفصـل الثالـث
يـوم المـوعـد

من سجل الذكريات :
راهب شاب يدخل المستشفى وهو واثق أنه لن يبقى فيه إلا بضعة أيام .
في القسم شخص المرض بسرعة فإذا هو سرطان المعي الغليظة في آخر المرحلة من تطوره . رأيت الرجل هادئا متوازن الشخصية على شفتيه ابتسامة وديعة طول الوقت .
قررت إعلامه بالحقيقة لكي يتأهب ويستعد ويموت بطلا وإنسانا, أخبرته بعد كثيرا من التمهيد , ولم أحاول الكذب عليه أو خداعه : يا للكارثة يا لفداحة الغلطة .
تغير الرجل حالما واجهته الحقيقة المرة . انقلب من شخص هادئ مشرق وديع إلى رجل قلق مقلق ساخط ناقم غاضب ثائر متمرد في حالة تشنج دائم .
" هل التشخيص صحيح مائة في المائة يا دكتور ؟ هل أنت واثق أتم الثقة من ماهية المرض ؟ هل أجريت كل الفحوص والاختبارات ؟ أما من أمل ؟ لقد قرأت مقالا عن علاج السرطان في أمريكا ماذا لو ذهبت إلى هناك ؟ ألا تعتقد أنهم سيجدون حلا ؟ لا اصدق أنك عاجز . أليس الطب على كل شيء قدير . أنت لا تهتم بحالتي بما فيه الكفاية .
لماذا لم يأت الأستاذ مساء البارحة ؟ ما رأى الأستاذ ؟ من يتفق معك في التشخيص ؟ ماهي درجة الحرارة اليوم ؟ هل هناك تحسن في التحاليل المخبرية ؟ ما رأيك لو حججت إلى لورد أو روما ؟ لابد أن أذهب إلى ضريح القديس فلان والقديسة فلانة . حالتي في تدهور مستمر . لماذا لم تهتم بي ؟ أنت جاهل غبي . سأذهب إلى الأخصائيين الحقيقيين الذين سيعرفون علاجي . بقي الرجل هكذا طيلة شهرين يتخبط , يتضرع , يصرخ , يبكي , يحتج , يطالب , إناء الليل وأطراف النهار , فبرمت منه ومللته , ومللت سرطانه . مات وهو يئن متشنج القسمات ساخطا ناقما غاضبا متوعدا خائفا مرتعد الفرائص . مات لاعنا الحياة والآخرة , خرج مكن دار الحياة أو بالأحرى أخرج منها مكرها مطرودا . مات متشبث بالباب , بستائر النافذة , ممسك عمود السرير بأسنانه .
علمتني هذه التجربة أن النظريات الفلسفية حول أهمية مواجهة واقع الموت بصرامة وبطولة ليست إلا مجرد سفسطة . الإنسان يخشى الموت ولا يقبله مهما تكون المبررات والأسباب .
لم أكرر التجربة لكنني أجبرت في بعض الحالات على مصرحة الأهل :
- استعدوا فأبوكم مشرف على الموت . خذوا بيده ساعدوه على العبور .
ندمت على هذه المصارحة مثلما ندمت عليها مع الراهب لأنها أدت إلى نفس الكارثة .
الإنسان لا يحفظ السر مهما حاول ذلك . تكرر نفس السيناريو لأنه قال له وأن لم يصارحوه قولا . لقد أعلموه وأنذروه بتصرفاتهم , ببكائهم الهستيري أو بدموعهم المكبوتة ببريق الشفقة والحنان الذي لمع فجأة في أعينهم الباردة .
لذلك تعلمت الكذب , أو بالأحرى التمثيل , تعلمت الرياء والخداع والنفاق رحمة بالإنسان .
- ماذا جد من جديد يا دكتور ؟ صارحني هل أنا مشرف على الموت ؟ فحالتي اليوم سيئة إلى الغاية .
أرسم على شفتي ابتسامة سخرية وأهز كتفيه بازدراء . التفت إلى الممرضة أقول لها بصوت أريده خافتا كأني أعهد إليها بسرا على مسمع من المريض في نفس الوقت " ما لهم كلهم مرضى بالخوف . درجة الحرارة عادية اليوم . وكذلك التحاليل المخبرية . يجب أن يخرج المريض في نهاية الأسبوع وليتابع تعاطي الأدوية في داره فقد خرج من منطقة الخطر . ثم أترك الغرفة بدون تحية المريض وكأنه ضايقني بسؤاله البليد .
يا للرجل المسكين . أيامه معدودة لكن ما العمل ؟
سيناريو ثان :
- ماذا جد من جديد يا دكتور ؟ صارحني هل أنا مشرف على الموت ؟ فحالتي سيئة للغاية اليوم .
أنفجر ضاحكا :
- أنت مصاب بسرطان خطير

ثم أضيف مقطبا : هلاّ تركت هذه الأوهام جانبا ؟ على فكرة لقد قالت لي الممرضة أنك خياط من الظراز الأول . يجب أن تترك لي عنوانك حال خروجك القريب من المستشفى فأنا بحاجة إلى بدلة جديدة لكن أعلم إنني لم أقدر على دفع مثل تلك الأثمان الخيالية التي تطلبها أنت وأمثالك من لصوص .
ابتسم الرجل . ينسى مرضه . ندخل في حديثا طويل عن الخياطة وأسعار البدلات ومقارنة بين لصوصية الخياطين ولصوصية الأطباء وأترك الغرفة لينام الرجل هادئا مطمئنا والموت جاهز في قاعة الانتظار .
سيناريو ثالث :
ماذا جد من جديد يا دكتور صارحنا هل العجوز مشرف على الموت ؟
فحالته سيئة للغاية اليوم .
- لا تقلقوا فالتحاليل المخبرية طبيعية . مجرد إرهاق بسيط مرحلي . سيرجع إلى المنزل في نهاية الأسبوع إن شاء الله .
أترك أهل المريض وأنا أبتسم بمرارة .
غدا سيموت الشيخ أو بعد غد على أكثر تقدير كأنني أسمعهم يتحدثون عندئذ يا لهذا الطبيب الغبي . أكد لنا أن الشيخ سيخرج لنا في نهاية الأسبوع وهو مشرف على الموت لا بد أنه لم يعالجه كما ينبغي . ياله من جاهل مغرور . يا لبلدنا المسكين . يا لهؤلاء الأطباء الملاعين أنهم لا يجيدون إلا الجري وراء المال والممرضات . يجب أن نكتب عريضة لوزارة الصحة .
أطمئن نفسي ، لقد أمرت الممرضة بمضاعفة المهدئات و سيلتفّوا حوله .
سيقولون له من غير تصنع أو تكلف ستكون في المنزل في نهاية الأسبوع على أبعد تقدير ، الدكتور فلان بنفسه هو الذين أكد لنا هذا . ألا تثق في الدكتور؟ ألا تعلم أنه من أكبر أخصائي هاته المدينة؟
نعم سيطمئن الشيخ ، سيموت بلا قلق بلا رعب سيموت وهو يحلم بمنزله، وهو يأمل بغد ممكن أليس هذا هو المهم و لتذهب العريضة إلى الجحيم.
أصبح إذن ممثلا من الطراز الأول أخلق السيناريوهات كما يخلق الفنان اللوحات، أخترع و أحسن، أرتجل حسب المواقف والشخصيات، أساهم في حل جزء من مشكلة الناس مع الموت ، دون علم أحد أو كلمة شكر، كلن ماذا عن مشكلتي الشخصية معهم؟ بصراحة كثيرا ما يتملكني و بدون سابق إنذار شعور مؤلم بضعف الحياة... بهشاشتها... بإمكانية انفتاح الأرض تحت أقدامي في أية لحظة أقول لنفسي أطمئنها عندما تلح عليّ هذه الفكرة: هذا لايمكن... لأنني لم أتمم بعد طريقي لأنني لم أحقق شيئا يستحق الذكر.
و أقتنع بهذه الحجج الخيالية و كأن الموت يحترم حججا كهذه. و أنشد نفسي لأهدئ من لروعها أبيات شاعري ايليا ابي ماضي:
ما بنفسي خشية الموت و لا منه ارتهابي
أنا للأرض و إن طال عن الأرض اغتراب
غير أني لم يزل ضرعي لمرعى و احتلاب
لم أهب كل الذي عندي و لم يفرغ وطابي
أنا نهر لم أتمم بعد في الأرض انسياب
أنا روض لم أذع كل عبيري و ملابي
أنا نجم لم يمزق بعد جلباب الضباب
أنا فجر لم تتوج فضتي كل الروابي
لي رغاب لم تلد بعد فتبلى بالتباب
و بنفسي ألف معنى لم تضمن في كتاب
و أقول لروح إيليا ببعض الخبث:" أصحيح أنك لم تخشى الموت؟ أم أنك كنت تفتعل ، تتجلد، تخادع نفسك"؟ و أصرح بخيالي أحاول تصور لحظة عبور الجسر الأخير. عجوز في فراش مستشفى يحتضر تحت أضواء الرواق الساطعة وسط ضجيج آلات الإسعاف... حديث تافه بين ممرضات الحراسة و ليل طويل على صدري... و أزيح عن فكري هذا المنظر البشع الذي طالما عايشته في المستشفيات... و أتفنن في تصور طرق أخرى للعبور .

حقا أنا حاليا في مقتبل العمر، في شرخ الشباب في عزّ الصحة، أمشي بلا صعوبة ، شهيتي شهية نمر جائع قادر على الإفطار بالدنيا و التصحر بالآخرة، دقات قلبي منتظمة ، مفاصلي جيّدة، حواسي في حالة مقبولة أعصابي من حديد، أعمل أفكر، أكتب أتمتع بكل شيء فأنا إذن على أحال رغم قلة الماء. رغم فشل هذا المشروع أو ذاك، رغم الضرائب، رغم غلو الأسعار، تاجي على رأسي أين منه تاج قيصر أو كسرى. لكن أي عضو من أعضائي سيطلق صفارة الإنذار الأولى؟ الرئة المخ؟ الكبد؟ القلب؟ الدم؟بماذا سأشعر و أنا أحس بدبيب الموت في أحشائي؟ هل سأتعامى ؟ هل سأتصرف كما لو كنت غير موجود؟ هل سأفتعل اللامبالاة؟ هل سأتذرع بأنني مشغول جدا و لا وقت لي لاستشارة بعض الزملاء، لكن إلى متى؟ سأضطر لا محالة في وقت ما إلى مواجهة الحقيقة المخفية.

ـ أنت مريض يا ولد، الظاهر أنّ المسألة أخطر مما تتصور. سأذهب عندئذ لاستشارة الزميل المختص. أتراه سيعاتبني لأنني لم أستشره منذ أشهر؟ ألن يسخر مني ؟

ـ ماذا؟أليس من العجيب أن تأتي في هذه الحالة و أنت الذي يكتب و يحاضر في أهمية التشخيص المبكر و الطب الوقائي؟ ألا تخجل من نفسك؟

هل سأدخل فراش المرض متثاقلا، مكرها و ممتعضا ، هل سأشعر بالغبن الذل ، حتى و أنا أمرض؟ أيموت إنسان محترم مثلي ؟ هل سأتمدد على فراش المرض(على فراش الموت؟) هل سأنتظر نتائج الفحوصات المخبرية و نتائج الأشعة بقلق ، برعب، بخوف. هل سأدخل في نقاش طويل مع نفسي:" أنت مريض و مرضك أخطر مما تتصور لا داعي للمخالطة ، أنت تعلم بالتأكيد أنه قد آن أوان الرحيل، المسألة هذه المرة أخطر من التهاب زائدة دودية أو كسر معصم. لا تأمل لا تتوقع معجزة . لن تخرج من هنا إلا محمولا على الأكتاف. لن تستطيع التعامي لأن العلم أو التعلم الذي مكنك من احتلال مركز اجتماعي مرموق عشرات السنين هو الآن عدوك الرئيسي . ترى كيف سأتصرف عندما يعودني الزميل الشاب و معه الممرضة الحسناء(هل لاحظت أن الممرضة حسناء دائما في مثل هاته السيناريوهات)؟ هل سأسأله:

ـ ماذا جدّ من جديد يا دكتور. صارحني هل أنا مشرف على الموت فحالتي سيئة للغاية اليوم؟ و تتسارع الأفكار و الخواطر و الهواجس. لا لن ألقي علبة هذا السؤال لأنني أعرف أنه سيرسم على شفتيه ابتسامة ازدراء أعرف أنه سيهز كتفيه، أعرف مسبقا الجملة التي سيوشوش بها في أذن الممرضة الحسناء، سأسمعها بمنتهى الوضوح، أعرف أنه سينفجر ضاحكا، أعرف أنه سيغير الموضوع، نعم أعرف كل هذا. لماذا لا أساله لأختبر قدرته على الكذب وجودة تمثيله، فكرة مضحكة لتمتحنه بدون أن يعلم. ترى أين وصل قوم الأطباء في الكذب عن المريض؟ أرجو أن يكون ممثلا جيّدا ماذا لو أقنعني؟ سأكون ممنونا له. سأقبل إلى متى؟...

يديه قدميه . لا يا شيخ , لا تأمل , لن تنطلي عليك الحيلة فأنت طبيب محنك وممثل من الطراز الأول بينما الزميل المبتدئ . سيكذب بصفاقة , بسذاجة , ستعطيه صفر على الاختبار , ستخجل مكانه , ستعنفه على رداءة تمثيله , ستنهض من فراشك لتلقنه درسا في فن التمثيل .

لماذا لا تحاول استعمال مهاراتك في الكذب على نفسك ؟ هل أنت واثق من شخصيتك ؟ لا تتسرع بالرد . يا لك من إنسان مفرط الثقة في نفسه . تمهل . تشخيصك خاطئ لكذا وكذا من الأسباب العلمية . لا تهز كتفيك , ألم ترتكب أخطاء جسيمة في ميدان التشخيص طول حياتك. لماذا تعتبر أنك بمأمن من خطأ مماثل الآن . على فكرة لماذا لا تسافر إلى أمريكا ؟ لا تتسرع بالرفض . أنت فعلا تقرأ بينهم منذ عشرات السنين . أنا لا أشك في قيمة معلوماتك لأنك تعلم أن المقالات العلمية تعد بالآلاف . أتدعى أنك لم تفوت منها شيئا ؟ يا لك من مكابر عنيد . ألا تضن أن الزملاء الأمريكين يعرفون حلا لمشكلتك ؟ أتريد الذهاب إلى مستشفيات لندن ونيويورك وأنت الذي كنت تسخر دائما من وجهاء العرب الذين يصف لهم كبارأطبّاء بلدانهم الأسبرين فلا يشفون , ويصف لهم حثالة أطباء إنجلترا نفس الأسبرين فيبعثون أحياء يرزقون . لماذا لا نجرب الحج إلى لمدن لرود وروما ومكة وبنارس لكي لا نفوت شيئا ؟ أو ما رأيك لو اكتفينا بزيارة ضريح الغوث والمحجوب وقبر سيدي محرز وسيدي الحافي .

أترى النقاش سيحتدم بيني وبين نفسي ؟

ـ يا لك من مكابر . يا لك من دوغماتي متحجر . ماذا ستخسر ؟ جرب فنحن في ورطة . كف هزلا يا ابن آدم فالوضعية حرجة

ـ لو استطعت النهوض من هذا السرير اللعين لما تردّدت عن زيارة قبر سيدي الحافي والوقوف عند ضريح الغوث والمحجوب لا لأنني أنتظر الحياة من هؤلاء الموتى بل لاستعاد ة ذكريات الطفولة . لا تقل شيئا لا تضيع وقتك في الإلحاح السمج الثقيل . لقد وقع حكم الإعدام الصادر يوم ولادتك ودخل اليوم حيز التنفيذ .
سأنظر إلى وجهي في المرآة ولن أعرفه وقد حفرته تجاعيد الألم .
وإذا شيخ في الصحراء * كالزورق في عرض البحر
أعياه الصلح مع الماء * وأذاع الدرب إلى البر
يمشي في الأرض على مهل * وعلى حذر لكن يمشي
كالشاة تساق إلى القتل * بعصا جبار ذي بطشن
تعالي يا ممرضة يا حسناء ناولني نصف لتر من ''التيرالين'' لأنسى وأنام فأنا خائف . لن أستطيع يومئذ التهرب مت الموت فالاحتماء وراء الجهل وسأدفع بمواجهتي لدبيبه في أحشائي أشهرا وأياما وليالي , ثمن المعرفة الباهظ , سأكون كالخروف مقيدا واعيا أشعر ثانية بعد ثانية باقتراب سكين الجزار , جاف الحلق مرتعش الفرائص متقطع النفس بلا مهرب بلا مفر , بلا أمل , يسمع الخطوات , يرى بريق السكين , يشعر بأنفاس الجزار , ببرودة المعدن , بوخز السكين , يتدفق الدم , بالآم الذبح الحادة ، بالضباب بالظلام .
أيها الأموات الذين وفرت عليهم بالكذب والتمثيل هاته المواجهة المخيفة والآمها صلوا من أجلي . وملت يوما هذه اللعبة : تصور عبوري إلى العالم الآخر.
كانت فترة حالكة من حياتي كتلك الفترات التي يمر بها أحيانا إنسان مرهق قد ضاعت عنه معالم الطريق السوي . تلاش الخوف وقل حتى الحنين إلى الموت , لكن الفضول بقي فضول رجل العلم الذي يحيا للبحث والتنقيب دون سواه .
هالني جهلي بظاهرة أعايشها يوميا . تساءلت : كيف ولماذا يموت مرضاي ؟ يكيف ولماذا سأموت أنا ؟ وتطور السؤال ليصبح ماذا عن الموت ؟ وكان لهذا السؤال خلفية انتهازية : ألن أروض خوفي منه إن كشفت النقاب عن وجهه ؟ أليس أعمق خوف ذلك الذي يصيبك وأنت أمام عدو مبهم المعالم , غامض لا تعرف عنه شيئا ؟
بطبيعة الحال اتجهت إلى كتب الطب أسألها عن سر الموت , واستغربت سكوتها المطلق عنه ... صحيح أنني لم أسمع طوال سنوات دراستي عن المواضيع التي تشكل هواجس الإنسان الذي يتعامل معه الطب : الألم , الجنس , الموت ... هل سكوتها عجز , أم رفض غير واع ؟ هجرت الكتب العلمية إذن باحثا عن منفذ لآخر .
سألت الشعر العربي لأن موضوع الموت يحتل مكانة بارزة فيه . فقد تعرض إليه شعراؤنا على مدى العصور ووصفوا ببراعة المشاعر التي يثيرها وجوده , كالخوف والتصبر والتمرد والرضوخ الخ ... وتركوا لنا صور حية عن عاداتهم ومراسيم مجتمعاتهم , وخلدوا بعض الناس في مرثيتهم .
لكن الشعر عاطفة (أي ردة فعل) وأنا أريد أن أفهم ما هو الموت موضوعيا .
لذلك سألت الفلسفة العربية , لكنني لم أجد فيها ما يستحق أن أتوقف عنده طويلا , فهي لا تطرح المشكلة لأنها لا تطرح أدنى مشكلة منذ خمسة قرون , لا تتعرض لأي موضوع يتباعد شيئا ما عن الإطار العقائدي , خاصة بعد أن أجهضت العقول المتحجرة كل إمكانياتها , وحرمتها من حرية التفكير . خلت لحظة إنني سأجد ضالتي في سيلا عارا متدفق من الأبحاث الصادرة طوال العشرين سنة الأخيرة في الغرب وأتساءل في بعض الأحيان : ترى هل أن اهتمام الفكر الغربي المعاصر بموضوع الموت هو مظهر من مظاهر عمله الطبيعي , أي عمل الحرية المطلقة في البحث والتنقيب (تلك الحرية التي مكنته من الوصول إلى أعلى مصاف الخلق والإبداع والسيطرة على حضارات الخيال والاجترار كحضاراتنا) ؟ أم هل طرحه للموضوع بهذا الشكل الدرامي والمكثف هو نتيجة الشعور بدبيب الموت في الحضارة نفسها وفي قرب اندثارها ؟ لا أدري , المهم أني قرأت الكثير من الدراسات الفلسفية السيكولوجية و الاجتماعية...
كنت أفتح الكتاب تلو الكتاب يدفعني حافز غريب وأمل سخيف : أخيرا سأعرف ما هو الموت . والأمل سخيف , لأن كاتب الدراسة سواء أكانت قيمة أو سطحية (وهو أغلب الحالات إنما هو

إنسان مثالي ومثلك لا يمشي على الماء ولم يعد من سفرة لم يسافرها , ولم تسر الآلهة إليه وأي سر في آذنه . كنت أفتح الكتاب كما أقرا يوميا
(تقريبا) بختي المكتوب في برج السرطان أو رقم ورقة يا نصيب الرابحة ... أليس صحيحا أنه لو لا الأمل الذي يشدنا إلى الغد لا نهض أحد من فراشه ولو انطبقت السماء على الأرض ؟ ألحق أن هذه الكتب زادتني معرفة وإن لم تزدني علما تعلمت منها أشياء كثيرة وطريفة عن عادات الماوماو والبولينيزين , وتطورات القرون الوسطى في الغرب وخرافات قدماء المصريين , والخلفيات الاقتصادية الطبقية الأوديبية لبعض المفاهيم والمراسيم واستمتعت بأساطير هذا الشعب أو ذاك في تخيلها الشاعري للجنة وجهنم وعالم الأموات بصفة عامة , وضحكت من عالم ''دانت '', واستعدت جديتي ودرست (رغم الصداع) نظريات الفيلسوف فلان والمفكر فلان في العالم الآخر , وكانت رحلت ممتعة في تصورات الإنسان عبر الزمان والمكان لأهم مشكلة يواجهها الفكر, بعد تعامله المحموم مع تلك المعضلة الآخر التي تشكل الوجه الآخر لقطعة النقد : الحياة .
لكنني لم أجد ما كنت أبحث عنه لا شعوريا .
أليس السؤال الذي يهمك يهمني خارجا عن نطاق هذه الأبحاث التي يسميها بعضهم بمنتهى الجدية : ''التاناتولوجي'' أو علم الموت .
تصور أنك أعمى (البصر أقصد) لأننا كلنا عميان البصيرة بدرجة أولى أو بأخرى) تصور أنني أحاول أن أشرح لك ما في مشيتي ''شارلي شابلين'' من فكاهة . لن تضحك مهم أجدت الوصف , ولن تبتسم حتى وإن أسهبت في شرح الوضعية الطبقية لشارلو , ومقدار تخلصه من عقدة أديب , ومشاكله مع العدالة الأمريكية, والفضائح التي كان بطلها و .. و .. و ..
و الموسيقى هي لغة الآلهة , وشوبرت لهجة مثالية لتلك اللغة الكونية . تصور أنني أشرح لك مأساة موت الرجل وهو في الواحدة والثلاثين , وجمال وروعة الثلاثيات والرباعيات , لن يطربك . لن تنتشي , لن تشعر بحنين خارق إلى ماذا ؟ لا أترى . مجرد حنين لن تحبس دموعك بصعوبة لن .. لن .. ولن .. لا أحاول معك مرة أخرى . أسمعني جيدا . رباعية الصبية والموت تبدأ هكذا : لا لا لا ..
تبدأ في التثاؤب .
والآن افتح المسجلة وأدخل الفردوس ساعة . والموت كالحياة , كالموسيقى . كي تعرف يجب أن تجرب , لكنها تجربة فريدة من نوعها لا تعاد , وأنا أريد أن أعلم الآن .
أريد أن أعلم ما الذي ينتظرني في ذلك اليوم الهام . ترى هل سيكون العبور مؤلما مخيفا , أم هل ستكون المسألة أبسط بكثير مما أتصور بماذا سأشعر وأنا أطلق آخر نفس , والحياة تنسحب من ضلوعي كالموج عند الجزر أو كالرمل يتسرب من يد أتعبها تشنج العضلات ؟ ثم ماذا سأجد وراء الباب ؟ أسيبقى للاصطلاحات والتعابير معنى ؟ أستكون لها فاعلية في التعامل ووصف تلك الحالة التي عهدتها أما هل سيتبخر ؟ هل لهاته الحكايات الرهيبة التي يرددها البعض عن زنزانة أبدية يزمجر فيها زبانية ساديون نصيب من الصحة (المسألة هامة فأمثالي لا يذهبون إلى الجنة) . من الممكن أن لا تهمك هذه الأسئلة , لكنها الأسئلة الوحيدة التي بحثت عن جوابا لها في علم'' التاناتولوجي'' ولم أجد .
الحق عليه . لماذا ظننت أنهم يعرفون أكثر مني . الموت باب مغلق , جدار أملس عال , وراءه شيء ما . يدخل الواحد من الباب ولا يعود من وراء ذلك الجدار الأملس الشاهق ليقص ما رأى . ونحن ؟ ... إننا جالسون أمام الباب بانتظار دورنا , ندردش بقلق , ونحاول مرة التكهن ومرة النسيان . يقول الأول : '' وراء الباب حفرة . والثاني '' : لا بل حديقة ويغضب الثالث '' لا فقد رأيت في المنام أن هناك ... '' ويتحمس بعضهم إلى درجة إعمال السيف في رقاب القطيع'' قلنا لكم أن وراءه كذا وكذا كذا وكذا ... '' أيريدون طمأنة أنفسهم؟ هل وصل بهم الخوف من الفناء إلى هذه الدرجة؟ أهم بحاجة إلى إيماني كي يساندوا به إيمانهم؟
قال شاعري :

أ وراء القبر بعد الموت بعث و نشور
فحياة فخلود أم فناء فدثور
أكلام الناس صدق أم كلام الناس زور

أصحيـح أن بعض الناس يدري

لا يا إيليا ، غير صحيح، لا أحد يدري . كل التصورات و الفرضيات لا تدل إلا على ضياع الفكر. اجمعها إذن، و رتبها حسب الأبجدية . من الممكن أن تشكل مادة لمحاضرة مدرسية و ما أفعل بحاجتي الماسة إلى المعرفة يا أستاذ ؟ أطلب الاستعلامات .

- ألو مدوموازيل. من فضلك، رقم هاتف صيدلية الحراسة و رأيك في الموت. إن لم تغضب أضف رأي المدوموازيل إلى قائمة الفرضيات ، وأنتظر دورك كي تعرف.

كل كلام عن الموت إجباري كلام على هامش الموضوع تسأل: إذن لماذا تكتب؟ أرد لنفس السبب الذي جعلك تفتح هذا الكتاب . ألم تفعل شيئا في حياتك مدفوعا بقوة قاهرة لا تدري لها دفعا. ألم يقل إيليا محذرا ، فلم نرتدع لا أنا ولا أنت.

وزنت بسرّ الموت فلسفة الورى * فشالت و كانت جعجعات بلا طحن
فأصدق أهل الأرض معرفة به * كأكثرهم جهلا يزعم بالضن
فذا مثل هذا حائر اللب عنده * و ذاك كهذا ليس منه على أمن

***

الفصل الرابع
شطحات خيال أمام أسئلة بلا ردّ

أول سؤال يتبادر إلى الذهن هو لماذا نموت ؟ أنا و أنت و الناس جميعا على موعد مع الموت، كلن الحياة ستتابع مسيرتها. الوطن ليس الجملة الحسابية لكل المواطنين، هو شيء آخر قد تتطلب مصلحته أن تتوارى ، و أن تشقى و أن تتألم. و كذلك الحياة، المهم أن تعبر هي لست بالنسبة إليها إلا جسرا أو نقطة من خط. صحيح أنها وضعت فيك كل آمالها. لكنها لا تتشبث بك، حتى و إن تشبثت بها . و هي أنانية أو هكذا تبدوا. تريد قبل كل شيء أن يتدفق الماء في النهر، لا تعبأ بالقطرات و الموت بالنسبة إليها كالجنس هو إحدى وسائل الحياة، لا بدّ منه لتوازن الكون.

فرضية رقم1 :

اكتشف بعض العلماء إكسير الخلود(و بعضهم جادون في البحث عنه في العديد من المختبرات العلمية) و أصبحت أدوية الخلود في متناول الجميع .

لنترك على حدة الصبغة الفلسفية. و لنتوقف عند بعض المشاكل العملية الممكنة.

أصبح الزمان غير محدود لكن المكان غير مطاط، و الموارد بطبيعتها محدودة. أسهل الحلول هو أن يغلق الباب في وجه الزوار الجدد، أو الحدّ من عددهم على الأقل . هل سيسمع الحوار التالي في المقاهي ذلك اليوم." هل لاحظتم عجرفة عائلة فلان؟ أخيرا بعد ألف قرن حصلوا على إذن من الإدارة المركزية بولادة طفل ، و الفضل في ذلك عائد في تدخلات الأحباب و الأصدقاء . ياله من عالم . أنت لا تساوي قرشا ، طالما لم تعرف أصحاب النفوذ. هل سيكون عالمنا مقبول أو ناجحا؟لا بطبيعة الحال نظرا لحتمية الجمود و التحجر. من الخطأ أن نتصور أن بوسع الإنسان الخالد التجدد طول الوقت. فقدرة الحفظ و الاستيعاب تقل بمرور الزمن و طغيان العادة، و الحياة في عالم الإنسان و الطبيعة هي توازن دائم بين حركية الشباب و محافظة الشيوخ. لكل ممثل دوره الطبيعي، و كل دور لازم و ضروري. أخصم الحركيّة ، سيسيطر الجمود و تسود العادة. كل طفل يولد هو بمثابة فرصة جديدة للحياة. أنا لا أنظر إلى مجموعة من الأطفال المرحين، إلا و أتساءل بيني و بين نفسي بمنتهى الجدية بالرغم (أو لأجل) أسمالهم البالية و أيديهم المتسخة و فقرهم المدقع: أبينهم نبيّ؟ فيلسوف فنان؟ عالم سيقلب (أو عالمة ستقلب) نظام العالم رأسا على عقب ؟

أنا وأنت أعطينا ما أمكن للحياة، لكن الفرصة تتطلب مني و منك التواري و الاختفاء ، ذلك هو قدرنا و تلك هي إرادة الأمة المقدسة . من البديهي أن الموت هو ضمان التجدد، فالخلق، و بالتالي ضمان حية الحياة.

فرضية رقم 2 :

نجحت قوات رمسيس الثاني في السيطرة على كافة أقاليم الشرق و إفريقيا ، و استأصلت الحضارة المصرية جذور كل الحضارات المخالفة ، و لم يعرف العالم إلا شكلا واحدا من أشكال الفن و العلم و الدين هو الشكل الفرعوني الخالد. أتتصور فداحة الكارثة لو حدث هذا؟

بلاغ عسكري روماني : هزّت قواتنا المضفرة جحافل البدو و نفايات الإعراب، في معركة اليرموك و أسر زعيم البرابرة خالد بن الوليد ، و قد احتلت و حرقت قواتنا الرومانية العظيمة مكة وكر الإرهابيين، و أعدمت زعماءهم و استأصلت جذور بدعة دينية اسمها الإسلام، و أمر الإمبراطور بحرق كل مصاحف القرآن و إعدام كل ما ثبتت عليه تهمة حفظه هذا و قد قامت قوات حلفائنا الفرس المنتصرين في القادسية بحملة إبادة للقبائل العربية الثائرة كللت بالنجاح، و قد أسرت و سبّت مئات الآلاف من نساء العرب، و شرّدت بقية المتمردين في مشرق الأرض و مغاربها، حتى لا تقوم قائمة لحضارة تنافس لحضارة قيصر و كسرى تصور ترتبات هذا النصر لو وقع هذا أي أو لو كتب الخلود للفرس و الروم.

و هذا فصل خيالي من فصول تاريخ أوروبا: شكلت سنة 733 منعطفا خطيرا في حياة الغرب لأنها شهدت تداعي مقاومة الملوك النصارى أمام الزحف الإسلامي المظفر , وقد أدى انتصار عبد الرحمان الخافق على شارل مارتال في بواتيي توطيد سطوة الإسلام عندنا وشيوع لغة الجمال والحضارة في ربوعنا المتوحشة الخ ...

بصراحة أكان من صالح الحضارة أن ننتصر في "بواتيي" ؟

بطبيعة الحال هذه الفرضيات سطحية نوعا ما , لأن مصير الحضارات لا يتقرر في بعض المعارك العسكرية , لكن المهم ليس التفاصيل , وإنما جوهره الفكرة الذي تخلصه الجملة المعروفة : (لو دامت لغيرك لما أتتك)

من خلال الفرضية الأولى ندرك ما كان قد ينجر عن انتصار الحضارة الفرعونية , وعدم اضمحلالها ثم موتها أي ديكتاتورية نموذج يفرض أسلوبه ومفاهيمه من مشرق الأرض إلى مغاربها , ونواجه الشيء نفس الشيء في بقية الفرضية أي أن بروز الحضارة الإسلامية بغناها الفياض كان مرتبط بانقراض الحضارة الرومانية والفارسية كذلك لو دامت للعرب لما عرف العالم روعة الكاتدرئيات وفلسفة هيجل وموسيقى بتهوفن وشوبرت وعلم دروين وانشتاين .

كأنني أسمعك تحتج : ألم يكن بوسع العرب إنجاب مثل هؤلاء العباقرة ؟ وأرد لماذا لم تنجب الحضارة الفرس عمر إبن الخطاب , أقصى ما كان بوسع العرب خلقه في أوروبا هو مساجد مختلفة شيئا ما عن مساجد الشرق , وبعض الأعمال الأدبية الفرعية ليقول فيها يوما أحد المشارقة باحتقار " هذه بضاعتنا ردت إلينا "

التناقض واضح , بين مصالح الحضارات ومصالح الحضارة أو الحياة بصفة عامة , حسابات الحياة غير حساباتي كفرد أو كمنتم لحضارة معينة .

أنا أريد البقاء و سيطرة نموذجي، و هي لا تقبل إلا التتابع و التغيّر. ذلك هو مفهومها للحياة وتلك هي إرادتها تجربة كل الحلول عبر الأفراد والشعوب ولا تفضل أحدا على أحد ولا تضمن الخلود والبقاء لأحد , لأنها لا تأمن بتراصف الأشياء .

الأفراد , والحضارات , والأجناس , مجرد ممثلين .. جسور , وحلول مؤقتة , لوحات فنية , نماذج , لشيء ما . قصور من الرمل على الشاطئ الأبدية . عمى تبحث الحياة ؟ ماذا لو كان ذلك مجرد لهو وعبث ذاك بيني وبينك عبث قاس.

الفرضية رقم 3 :

مرت القرون وتبعتها قرون أخرى كثيرة وأصبحت الإنسانية الموحدة جنسا واحدا , دولة واحدة الخ ... ساد الجمود والتحجر وعم الترف والكسل والجبن , ولم يفد أي دواء . حصلت حقا بعض التشنجات وآثار بعض المجددين لكن العامة وأدتهم , كانوا يريدون الراحة وكان صراخ الأنبياء يزعج نومهم . كان حظ الحياة قبل ذوبان مختلف الحضارات في قالب موحد وجودا احتياطيا دائما من الشعور الهمجية على مشارف الإمبراطوريات العظمى , وهامش الحضارات المتعجرفة . كانت قبائل البدو في قلب الصحاري , أو في الفيافي أو في الغابات الجليدية تنتظر بفارغ الصبر أن تحركها إرادة الآم المقدسة وكأنها تشعر بأهمية الرسالة والمهمة .

كانت الحضارات والإمبراطوريات تشيخ وتهرم ككل الكائنات الحية شيئا فشيئا وببطء شديد , وكان الموت يتسرب إليها ، وأعراض تسلل الموت معروفة : الغرور , الجمود , التحجر , الترف , إعادة الفنان لنفس النموذج الأصلي وللمرة الألف , شرح وشرح الشرح , اجترار القناعات , التنكر باسم الواقعية لعظيم الأماني وأروع الأحلام التي مات من أجلها الشهداء ... سيطرة الطقوس ... في أثناء هذا الوقت على مشارف الإمبراطوريات كانت الأم المقدسة تعد العدة لضربة الرحمة . في عالم الطبيعة , يصفي الضعفاء بمنتهى القسوة , بمخلب وحش , تنتهي مغامرة حي فاشل , ثم تأتي كواسر الطير لتنظيف ما علق بالعظام من لحم وتكمل أشعة الشمس العمل فتصفي حسابها مع الرميم إلى أن تغطي الأرض ما نجا من المخلب والناب والأشعة الجهنمية .

ويمكن أن نقول أن العملية من البداية إلى النهاية هي عملية تنظيف أو عملية حفظ الصحة العمومية . أقصي الحي الفاشل عن التوالد , وصفة بقية الكائنات حسابه وعاشت زمانا ما على نفقته , وأفسح المجال لكل القادرين .

وكان ذلك مصير الحضارات . تقدر إذن أهمية وجود احتياطي دائما من الهمج و خطورة دوره الصحي أي تسديد ضربة الرحمة لجسم يحتضر , والقضاء على حضارة الناشفة لا تخلق ولا تغني أو تسمن من جوع . من ثمة أيضا كان تجديد أمل الحياة , برجوع المخيلة والذكاء والقوة الخلاقة إلى ساحة الأحداث .

بطبيعة الحال كانت الأمم الهمجية تعرف نفس المصير عندما تتحضر , المهم أن وجود الاحتياطي الهمجي وتجدده هو الآخر كان أحسن ضمان لبقاء الحركية , وأجدى وسيلة لتفادي الجمود ومن ثمة الطامة الكبرى يوم تضعف الحضارات , وذلك لأن احتياطي الهمج نفد .
لم يبقي مكان على سطح الأرض تعيش فيه قبائل متوحشة تكون أمل الحياة . دخل البرابرة القلعة وأطلق عليهم سور الصين الأعظم , أبح فرسان جنكيز خان يبيعون الكوكاكولا , ويسكنون مدن القصدير , ويطالبون بالترفيع في الأجور . لذلك ماتت الإنسانية كما ماتت قبلها قطعان ''الماموت'' والديناصور . لم يبقي لها أي أثر أو قل سيمحى اليوم آخر أثر لها . تلك القطعة الحديدية المحدودية التي تظهر من بين أغصان الأشجار هي كل ما بقي من برجي بنوه منذ آلاف القرون , وكانوا يسمونه برج أيفل . أين كل ما شيدوه ؟ ابتلعته الغابات , شقت الأعشاب لها طريقا عبر الإسمنت المسلح , غطت الأشجار أطلال العمارات وابتلعت الأرض ما ابتلعته . بعد لحظة سيهب النسيم وستتساقط الأوراق على تلك القطعة الحديدية وتغطيها . ها هي الآن قد تساقطت .... انتهى كل شيء .... ذهب مع الريح ... كل أثار الإنسان في جوف الأرض ... عبثا فكروا في الخلود ... حفروا في الصخر آلاف الكيلو مترات عبر مئات السنين . كان ذلك أعظم عمل قام به الإنسانية في حربها الخاسرة مع الموت . صففوا في تلك الدهاليز أضخم وأعقد عقولهم الإلكترونية وسجلوا في ذاكرتها كل ما فعلوه من يوم ولادة الجنس . اسمي واسمك واسم أحفادي وأجدادك وأجدادي , كل ذلك مسجل في الذاكرة الجبارة . هكذا ظنوا أننا سنتغلب على الموت , حسبوا لكل شيء حسابا . أخف التاريخ وراء الأبواب المصفحة , وحبسوا ذكر الحياة في تلك الذاكرة الصناعية التي لا تنسى شيئا ووضعوا في مدخل الدهليز كتاب أبجدية وتفاصيل الاستعمال . هكذا أبعدوا شبح الانقراض المرات العديدة . دمروا الحضارة بالحرب ودمرتهم الجراثيم تارة والأعاصير أو سكان الكواكب الخارجية تارة أخرى ...
ولكن الأبواب المصفحة كانت تتفتح طبق الأوامر أمام الصيادين الهمج , أحفاد الناجين من الكارثة وكانت الحضارة تتجدد ويتراجع الموت . لماذا ابتلعت الأرض كل أثرا هذه المرة , أو بالأحرى كيف وقع ذلك , فالزمن غول لا يغلبه أحد . لم يكتشف الصياد الكنز ؟ هل مر بجانب الحظ كما أمر . كنت وإياك طول الوقت نبعد بضعة أمتار غرب المكان الذي عسكر فيه تلك الليلة . وضاعت آخر فرصة لإنسانية . أما هل وجد الباب ودخل الإنسان وقرأ كل شيء وفكر وخرج ليقول لأصحابه لا شيء هنا يستحق الوقوف عنده ؟
سؤال ثالث : ماذا عن الموت كظاهرة طبيعية وقانون عام في الكون ؟
فرضية رقم 4 :
يقدر الباحثون عمر الكون بعشرين مليار سنة تقريبا . لم يمض على ظهور رجل ''كروماينون ''أكثر من عشرين ألف سنة. إذا اعتبرنا عمر الكون يساوي يوما من حياة الإنسان فإن ظهور هذا الأخير من البداية إلى الآن لا يحتل أكثر من عشر ثانية من هذا اليوم , والجزء الألف من الثانية إذا اعتبرنا تاريخه كإنسان متحضر . تصور أن البشرية تعيش عشرون مليون سنة أخرى وهو أمر مبالغ فيه . لم يحتل تاريخها بالقياس إلى اليوم الكون إلا مائة ثانية .
الحياة إذن قبس أو شعلة تضيء ظلام الكون لفترة وجيزة جدا من الممكن أنها لا تنطفئ في مكان إلا وتضيء في مكان آخر . هل تتصور أن هذا الكون المترامي الأطراف , الحالك الظلمة , تتعاقب فيه ومضات النور وكأنها قناديل أو مشاعل أطفال تائهين في ظلمة الليل ؟ هذا سراج انطفأ نوره قبل أن يكتشف أنه ليس وحيدا .
هل الإنسانية على سطح الكوكب الأزرق في قبيلة ''برازيلية'' بدائية معزولة في جزيرة من جزر نهر ''الأمازون'' بمدينة ''ساوبولو'' على بعد ألف كيلو متر بمقياس المكان وعلى بعد ألف قرن بمقياس الزمان , للقبيلة البدائية تصوراتها للعالم وللإنسانية كذلك . الواقع أن جهلنا بمحيطنا جهل مخيف . ماذا نعلم عن حضارات الإنسان الأخرى المتناثرة عبر الزمان والمكان ؟ لا شيء .
ماذا نعلم عن دنيا الكائنات الحية التي نسميها بلامبالاة أو باحتقار غبي الحيوانات ؟ لا شيء.
ماذا نعلم عن الناس الذين نعيش معهم ؟ لا شيء . ماذا نعلم عن الكائنات والحضارات التي بدأنا نعتقد أنها تملأ أرجاء هذا الكون اللامتناهى ... ؟ لا شيء على الإطلاق .
يقول ''ساجان ''هو من علماء الفلك اللامعين في أمريكا إنه سيأتي يوم تصبح فيه الأرض غير قابلة للحياة إذ ستتغير تغيرا جذريا الظروف المناخية من ضغط وحرارة ونور , وسيعرف المريخ

على العكس في تلك الفترة بالضبط الظروف الملائمة ببروزها . هذا قانون عام . أهناك حضارات تتتابع على سطح الكواكب في أرجاء الفضاء اللامتناهى ولا تعرف شيئا عن بعضها البعض نظرا لترامي أطراف هذا الكون العظيم وامتداد الزمن المريع ؟ هل يوجد " الآن " على الأرض ما هو قبل تاريخهم أو آلاف القرون بعد اندثار حضارتهم الجبارة ... هم ؟ من هم ؟ أشكال غامضة منهم مبهمة في مخيلتي وأحلامي , أنا البدائي المعزول في جزيرتي . ترى كم من كوكب مقبرة يدور في تلك النجوم ؟ والكون هل سيعرف هو الآخر الموت ؟

يتطلب الرد على السؤال الإنصات إلى تفاصيل الأسطورة المعاصرة كما يروها العلم الحديث .

وتسألني : كيف تجمع في نفس الجملة العلم بالأسطورة ؟ أليس العلم نقيض الأسطورة المطلق لا . أبدا . المهم أن نتفق على معنى المصطلحات , وهذا أصعب شيء عندما يتحاور شخصان مهذبان مثلي ومثلك .

الأسطورة هي إخراج المسرحية لفكرة أو فرضية , وهي الأخرى عمل فني مثل اللوحات والتماثيل وقطع الموسيقى المعينة . إن الفكرة يخلط في البداية بين العمل الفني وموضوعه .

قال قاليلي يصف هذه الورطة التي يقع فيها الفكر , إن نحاتا إيطاليا نحت تمثالا لآلهة من آلهة الإغريق . أبدع الرجل إبداعا خارقا ووضع بيديه معالم الأبهة والجلالة على قسمات التمثال وفجر لعبقريته الفذة نوعا من حياتي في تلك المادة الصماء إلى درجة أنه أصبح يخشي الاقتراب منه ويقدم له القرابين وكذلك نحن في اعتقاداتنا وتعاملنا مع أساطيرنا .

وتذكرني هذه القصة بأسطورة ''نارسيس ''الرب الإغريقي الفائق الجمال . أحبته " إيكو" عذراء الغابات لكنه أعرض عنها فسلطت عليه أبشع أنواع العقاب . فقالت : اجعله يا ''زوس'' ينظر إلى قسمات وجهه في صفحة الماء الهادئ الصافي وحقق ''زوس'' دعاءها فكانت الطامة الكبرى . وقع المسكين متيما , مغرما بذلك الخيال , خياله هو ... كان جميلا ذلك الخيال إلى درجة لا تصدق , ولم يكن بمقدور شيء في الوجود أن يثني نارسيس عن غرامه المجنون اليائس بوجهه في الماء ... وهكذا قضاء حياته يتحرق , شوقا إلى صورة وجهه الخارق الجمال على صفحة الماء الصافي ... مشكلة نارسيس هي مشكلتنا عادة مع الأساطير فهي ظلنا وخيالنا في المرآة , وهي غاية في الجمال والروعة لأننا لا نقص على أنفسنا إلا أروع الحكايات .

والحقيقة أننا عدنا من جديد إلى هذه المشكلة العويصة . لا أحد يدري ما هي الحقيقة إلا المشرع الأكبر والقائد بالأوركسترا والكلام وهذا ربما آخر ضرب من الأساطير , أسطورة مغايرة لكنها أسطورة .

أمنت كل الحضارات بأنها تعرف الحقيقة وكذب التاريخ كل الحضارات ولا أظن أن حضاراتنا المعاصرة ستخرق القاعدة وان القانون سيعاملها معاملة خاصة . الشيء الثابت أن الفكر يبحث منذ بدأ يفكر، يخرق التصورات الفنية و اللوحات الرائعة تارة فتكون الأساطير و يعتمد الجد و الوقار الأكاديمي تارة أخري فتكون الفلسفة و العلم . يتغير الأسلوب ، و لكن تغيير الأسلوب لا يكفي لحل المعضلة: استعصاء الواقع على الفهم، المهم أن بوسع أي أسطورة حديثة أن تجد في علم المعطيات لأن طبيعة أي عمل فني أن يبدأ من المواد الأولية التي يوفرها لنفسه.

لننصت إلى ما يقوله العلم عن موت الكون متفادين الخلط بين التفاحة على اللوحة و التفاحة على الشجرة.

كان يا ما كان في قديم الزمان و سالف العصر و الأوان أي منذ عشرة أو عشرين مليار سنة شيء يصعب تصوره يسميها البعض الذرة. الأم . و كانت هاته الذرة الأم تحوي في داخلها كل الطاقة، كل المادة ثم وقع الانفجار و هو انفجار لا يتصوره العقل ، انفجار لا تصفه الكلمات البشرية لذلك لن أصف... من ذلك الانفجار تولد كل شيء، و تبعثرت المادة في أرجاء الفضاء فكانت النجوم ثم الكواكب ثم أنا الذي أكتب و أنت الذي تقرأ.

المهم في النظرية أن الحركة التي ولدها الانفجار ، مازلت قائمة تنظر آلي السماء فتحسب النجوم ساكنة لا تتحرك و هي تفرّ بسرعة رهيبة نحو أعماق الكون كما تتطاير الشظايا عندما تتفجر القنبلة... و تنتهي القصة؟

اللوحة رقم 1:

الكون العجوز على موعد مع الموت ، على موعد مع الراحة هو الآخر شاخ و أنّت مفاصله و أجهده الجري و تقطعت أنفاسه. آن الأوان لأن يتقاعد ، لأن ينسحب ، لأن يرتاح . و لي عهد

حركة الشباب المحمومة. بدأ منذ ملايين السنين يشعر بالوهن و الإعياء تباطأت خطواته و انحنى الظهر و تقوس. أهدرت حياته الجياشة كل طاقاته و نضب منه الوقود، و أخذ النعاس يتسلل إلي أجفان النجوم ، و أزداد تثاؤب الكواكب. أحست المجرات بحاجة ماسة إلى النوم. ملّ كل شيء الدوران و الفرار المجنون إلى أعماق فضاء بلا حد و بلا نهاية. أنوار مدينة الكون تنطفئ الواحدة بعد الأخرى لأن مدينة الكون ستخلد بعد لحظة إلى حلاوة العدم. هدأت في أحشاء ملايين النجوم تلك العواصف الرهيبة من النار و النور، توقفت شيئا فشيئا المفاعلات الجبارة في أتونها و ارتعدت فرائس الكواكب من البرد و أجدبت و أقفرت و أحرقها لهب الصقيع ، و انقرضت من سخطها تلك الكائنات الحيّة المتشبثة بخضرة الربيع و دفء الشمس و نور السماء و انطفأ أيضا النور الآخر نور الفكر و لم يعد شعاعه يسأل و يجس و يبحث له عن طريق في ظلمة الدجى. و ازدادت حركة كل شيء تباطؤا و تناقلا، إنها اللحظات الأخيرة ، و هاهي تشنجات المحتضر تتباعد و تخف .انطفأت آخر نجمة و لم يبق أي بصيص من نور في الظلام. إنه الظلام المطلق و إنها السكينة المطلقة سكينة المقابر ليلة الشتاء بلا ريح... لم تبق إلا الأشلاء و هي لا تقوى إلا على التواجد الصامت . على اللاشيء على العدم و إلى ما لا نهاية يسدل الستار سيداتي سادتي على موت الكون .

اللوحة رقم 2 أو الاحتمال العلمي الثاني :

الكون سكون ، ظلام ، غموض، بارد مطلق ، لا شيء فيه إلا الأشلاء لكنه ليس ميتا كما خلقناه في اللوحة السابقة يفتعل الموت فقط، فجأة ، ها هي التشنجات تسري في جسمه الذي ظنناه أخلد إلى الراحة الأبدية، أشلاء المادة رماد، النجوم والكواكب ، ذراتها الساكنة تتحرك من جديد. لكن في الاتجاه المعاكس . انتهت مرحلة تطاير الشظايا أو الفرار المجنون نحو إرجاء الفضاء.

قال لاوتسو: كل شيء عائد إلى الأصل ، و مادتنا عائدة إلى الأصل، إلى نقطة الصفر التي شهدت بداية كل شيء ، بعد المدّ يكون الجزر ، و بعد التوسع يكون التقلص. فطر الكون يتقلص رويدا رويدا عن ملايين الأعوام الضوئية إلى بعض الملايين من الكيلومترات. سيتطلب ذلك آلاف الملايين من السنين لكن الزمن ليس زمن الإنسان، و العد بمقياسنا كمحاولة إحصاء رمال الصحراء عملية فاشلة ، تافهة لا تؤدي إلا إلى الدوران.عادت المادة إلى الأصل، تجمعت كلها في النقطة الصفر و الذرة الأم التي هي الطاقة المطلقة و الموجود المطلق ... هل هذا هو موت الكون النهائي؟ لا لأن انفجارا هائلا سيقع بعد لحظة و ستتبعثر المادة من جديد عبر أرجاء الفضاء اللامتناهي ، و ستفر بسرعة مجنونة إلى تلك الأماكن المهولة البعد. و ستتكون منها سحب الغاز، و ستتكون النجوم من سحب الغاز، و ستنفصل الكواكب عن النجوم، و ستتجمع المادة الخلاقة في أعقد التشكيلات كلما لاقت ظروفا ملائمة على سطح الكواكب، فيكون الورود والطيور و أنا الذي أكتب و أنت اتلي يقرأ، ثم يموت من النجوم و الكواكب ما لا يعد و لا يحصى و ستتتابع الحضارات في الكون و كأنما هي ومضات نور، و لن ينطفئ النور الا ليضيء الكون نورا جديدا ، و هكذا إلى أن يصاب جسم الكون الجديد بالوهن و الإعياء ، فتتباطأ خطواته و يتوقف شيئا فشيئا و كأنه عداء يحاول التقاط أنفاسه ثم ستنهار المادة على بعضها و ستتدافع نحو الأرض و كأنها تسقط في قاع بئر ، و ستنفجر الذرة الأم من جديد وهكذا بلا توقف أو نهاية و إلى أبد الآبدين . أغمض عينيك و أطلق العنان لمخيلتك: يوم ... يوم ...يوم... ألا يذكرك هذا بشيء؟ بخفقان القلب على وجه التحديد ؟ لكنك تتخيل الآن خفقان قلب الكائن الأوحد الذي يموت فيه الموت . هل تتصور لو كانت هذه الفرضية العلمية صحيحة بمعناها الحقيقي ؟ أي هل تتصور العدد الهائل من المرات الذي كتبت فيه هذه الأسطر؟ و هل تتصور العدد الهائل من المرات الذي سأكتب فيها هذه الأسطر و العدد الهائل من المرات التي ستقرأها أنت؟

***

الفصل الخامس
الشر الخسوف الآلهة

كان موضوع الشرّ شغلها الشاغل . كنت أقول لها في البداية بحماس الشباب " غدا نعوض فلانا , والنظام الفلاني بالنظام العلاني , سنشمر عن سواعدنا نحارب قوى الظلم والظلام , وسننتصر لأن ذلك قدرنا المحتوم , ثم نبني جنة الفردوس , ونتنعم نحن وأحفادنا إلى أن ننقرض كما أنقرض جنس الديناصور . وكانت تضحك من سذاجتي وكان لضحكها رنة الحزن .
كانت ماري مؤمنة , يتدلى الصليب الذهبي دوما على صدرها , وكنت أحب ممازحتها : هل تعلمين أن إلهنا أكثر رجولة من إلهكم و كنائسكم وكاتدرا ئيتكم تقطع النفس , مظلمة حزينة ؟ والغناء الديني . إن بدني ليقشعر لسماعه . إنها معابد للموت . كل طقوسكم تنضح بالموت ... فهذا المعلق على الصليب لهو أقصى ما وصل إليه الفكر السوداوي في ميدان الحوار مع عزرائيل . وكانت تضحك بمرح : أسكت يا حسود فكاتدرانياتنا قمة الفن على هذه الأرض أين منها جوامعكم في بلاد التخلف . وكنت أعابثها بعد أن تنتهي من صلاتها : " تخلى عن إبنه الأوحد وهو يئن على الصليب . تريدين أن تستجيب لدعائك يا لك من مغفلة " .
في البداية كان التهكمي عليها جادا مقصودا . كنت أؤمن بما أقول وبأنني أعرف الحقيقة, وبأن الأفكار (العلمية) التي أقول بها تفسر الماضي والحاضر وتخطط للمستقبل , لذلك كان النقاش الدائر بيننا - ونحن في مطبخها مع ثلة من الأصدقاء المنتمين إلى كافة التيارات الفكرية – حادا عنيفا . كنت أريد فرض رأيي بالقوة لا لأنه رأيي فحسب , بل لأنني كنت واثقا من التصاقه بالواقع والحقيقة الموضوعية . وكنت لا أفهم مقاومة الآخرين رغم وضوح الرؤية بالنسبة لي : هل هو جهل أم عناد أم سواء نية أم ارتباط عضوي بالقلة المسئولة عن الشر في العالم ؟ ثم قرأت يوما كلاما لابن المقفع فتح عيني ولم أعد من يومها أجادل أحدا في دينه . قال الكاتب الفذ : " وأردت الدين , فلم وقع ذلك في نفسي أشتبه علي أمر الدين , أم كتب الطب فلم أجد فيها لشيء من الأديان ذكرا يدلني على أهداها و أصوبها . وأما الأديان فكثيرة ومختلفة ليس منها شيء إلا وهو على ثلاثة أصناف , قوم ورثوا دينهم عن آبائهم وآخرون أكرهوا عليه حتى ولجوا فيه , وآخرون يبتغون به الدنيا وكلهم يزعموا أنهم على صواب وهدى وإن من خالفه على خطأ وضلالة, فالاختلاف بينه كثير في أمر الخالق والخلق , ومبتدأ الأمر ومنتهاه , وما سوى ذلك . وكل على كل زارا وله عدو وعليه عاتب . فرأيت أن أراجع علماء أهل كل ملة وأنظارهم وأنظر فيما يصفون لعلي أعرف بذلك الحق من الباطل فأختاره وألزمه على ثقة ويقين , غير مصدق بما لا أعرف ولا أتابع ما لا يبلغه عقلي . ففعلت ذلك وسألت ونظرت فلم أجد أحدا من الأوائل يزيد من مدح دينه وذمه ما يخالفه من الأديان فاستبان لي أنهم بالهوى يستجيبون ولا يتكلمون بالعدل , ولم أجد عند أحدا منهم صفة تكون عدلا ويعرفها ذو العقل ويرضى بها . فلما رأيت ذلك لم أجد إلى متابعة أحدا منهم سبيلا " .
غيرت هذه الكلمات البسيطة عقليتي , قلبت أفكاري رأسا على عقب , فهمت أن الفكر واحد وإن اختلفت مظاهره عبر الزمان والمكان , وأصبحت لا أتعصب إلا لعدم التعصب , وترسخت هاته القناعة في عقلي على شكل أبيات ابن عربي الرائعة :

لقد صار قلبي قابلا كل صورة * فمرعى لغزلان ودير لرهبان
وبيت لأوثان وكعبة طائف * وألواح توراة ومصحف قرآن
أدين بدين الحب أنى توجهت * ركابي به فالحب ديني وإيماني

أصبحت لا أناقش إلا لأحث الآخرين على التعمق في مفاهيمهم وأصبحت من هواة جمع الأفكار . كنت ولا أزال أتخذ مواقف من كل موضوع , أدافع عن رأيي بما أمكن من الحجج والبراهين لكن الموقع الوعي بأنه رأي لا أكثر : رأي نسبي , ناقص , اجتهاد , محاولة , وجهت نظر ... تسليط شعاع ضوء من زاوية معينة . وما أكثر زوايا أي موضوع . قالت صديقة لنا ونحن ساهرون مرة في مطبخ ماري " تيتا تحتضر . ستترك أربعة أطفال وزوجا محطما . هل تتطورون أن تيتا تموت . ذلك البركان سيخمد , تلك الشعلة من الحياة تنطفئ . إنه شيء لا يتصوره العقل .
واحتدم النقاش للمرة آلاف عن قسوة الشر واستعصائه على الفهم , عن فظاعة الموت كتتويج لفظاعة العيش .

قال ناقم : من المسئول عن الشر . وعن أبشع مظاهره ؟ الظلم . أنا أعرف أناس أغنياء ومع ذلك فهم أذكياء وبصحة جيدة . وأعرف عددا أكبر يجمعون في نفس الوقت الفقر والغباء والجهل , والمرض . لماذا ؟ العمل والجدارة هاها ... يقول مثلا فرنسي إن أردت الكفاف فاعمل وإن أردت الثروة فأبحث عن حلا آخر ... في مدن قصدير البنغال وباقي مدن العالم الثالث يجد ملايين من الناس الأكفاء , شجعان طيبون أذكياء الخ ... لن تمنعهم هذه الخصال من الموت جوعا ... وتقتيلا لن يمنع غباء بعض الأوروبيين وصلفهم من الموت بالتخمة بعد عمر طويل .. إلى اليسار در ... أنت للجنة إلى اليمين در أنت إلى جهنم ... لكن لماذا أنا ؟ ... هكذا بلا سبب أو لأسباب واهية ... لأنك طويل قصير أبيض , أسود ... طاولة القمار لم تسحب ثمرتك ... لكن فسروا لنا على الأقل قبل أن يحصدنا الموت مغزى هذا السيناريو السخيف الذي نسميه الحياة . يقول لك الأول : اقترفت آثاما في حياة سابقة لكن إن سامحة فأنا أحيا حياتي هذه ولا علم لي لحياة سابقة فلماذا الخلط ؟ وقال أحدهم ! خلقك ليبلوك . فرددت : ألم يجد لعبة أذكى ؟ وقال ثالث : دموعا تعبئ بها الطريق إلى عالم مثالي يكون فيه الإنسان سيد مصيره . قلت : جميل جدا لكنني أناني , لماذا تريد أن تكون الأمي سبب سعادة أحفاد الأحفاد ... اللعنة عليهم مسبقا , وملعون أبو عالمهم المثالي الذي يرتكز على عذاب لن يعوضني عن أحد .

قال المتسيس : الشر هو نتيجة عمل زيد وعمرو وثلة من المتآمرين على الحياة ... كان يؤمن بالشيطان , لكن على الطريقة العصرية . وقال الملحد : إنه الدليل الأوحد على انعدام المعني في الكون . الحل المنطقي والوحيد هو أن نتصور أننا ضحية إله مادي خلق الإنسان ليتلهى بآلامه ؟ السادية كما تعرفون خاصية بعض الناس . لم نرفض أن يكون سيد هذا الكون سادي الطبع .

قال ملحد آخر يعاتب ماري ويستفز صليبها الذهبي : أترضينا بإله سادي الطبع نفسر به الشر وخوف الموت ؟ لا تفهمين أننا عندما ننكر وجود الله فنحن الملحدون أشد الناس نسكا وورعا وإنما فعلنا ذلك من باب الرحمة به والترفق بسمعته . وبصراحة ماذا سيكون تشخيصك يا دكتورة ماري أمام إله نسأله عن السر فيغرق في الصمت , نصرخ من فرط الرعب في آذنيه فلا يحرك ساكن , نغرق أمامه في الفظائع فلا ترمش له عين , ألم تقل الدكتورة – حتى وإن لم يرض ذلك ماري : إله أعمى , أصم , أبكم .

قال فيلسوف السهرة : هل الموت حق مخيف ؟ هل له بصفة عامة خصائص موضوعية يمكن أن نعرفه بها ؟ هل يمكن أن نقول عنه مثلا إنه مؤلم , مرير , ظالم , كما نقول عن السماء أنها زرقاء وعن الماء أن سائل وعن البحر انه متقلب ؟ يبدو ذلك عندما يقول الأديب عن بطله أنه تجرع كاس الموت , وهو يقصد عادة أنها كاس مريرة الطعم , لكن هل هذا التشبيه صائب ؟ أي هل للموت طعم ومذاق ؟ حقا أن انتظار الموت مؤلم والهرب من مؤلم , وبعض كيفيات الموت غاية في البشاعة , لكن هذا لا يعني أن له صفة قارة يمكن تحديده بها .

تأوي ليلة إلى فراشك مرهقا وتنهض وأنت تصرخ مرتعدا ياله من كابوس رهيب هل يعنى ذلك أن النوم شيء رهيب لأن الأحلام المرعبة تتخلله أحيانا ؟

في بعض البلدان شبه المتحضرة يمارس نوع راق من التعذيب . يمنع المتهم من النوم ليالي متتالية إلى أن يصاب بحالة تشبه الهوس , فتتهاوى دعامات شخصيته ويصبح لعبة طيعة بين أيدي حفظة النظام والحضارة ... من البديهي أن حالة اليقظة ليست مسؤولة عن عذابه وإنما الظروف هي التي فرضت هاته اليقظة الطبيعية . أقصى ما يمكن الإقرار به هو أنه لو اليقظة لما كان عذاب المتهم ممكنا بهذا الشكل , ولولا النوم لما وجدت الكوابيس . ولكن لولا النوم لا كانت متعة الراحة , ولولا اليقظة لما كانت متعة الحياة .

والآن يسعني أن أضيف أنه لو النوم لا ما كانت متعة الراحة ولو اليقظة لما كانت متعة الحياة . والموت كالنوم والحياة كاليقظة كلها حالات نصبغها نحن حسب الظروف ونضفي عليها خصائص هي منا وليست منها . أنا لا أنكر أن الحياة ألم , والموت ألم , لكني أقول إنهما ألم لأننا لا نعرف كيف نعيش ولا نعرف كيف نموت . الواقع أن مشكلتنا ليس مع الموت بل مع الخوف منها وهذا موضوع آخر .

وأنشدتهم واجما أبياتا لإيليا , وكأن ثقل الكون هو الجاثم على صدري :

ذهبت بمن صلحوا ومن فسدوا * ومضت بمن تسعوا ومن سعدوا

وبمن أذاب الحب مهجته * وبمن تأكل قلبه الحسد

وطوت ملوك مالهم عدد * فكأنهم في الأرض ما وجدوا
قالت ماري : أنت ملأن بالتناقضات ولكل من مواقفك المتضاربة أقوال وأبيات جاهزة تدعم بها هذا الرأي ونقيضه لكني لم أنسي ما قرأته لي يوما من شعر له معنى آخر : فعلا نحن نشقى ونموت , لكنكم تنسون وقع غرير الماء وروعة غروب الشمس وحلاوة الجلوس على العشب وجمال الغابات الأخاذ أيام الربيع , تنسون لذة الحب والصداقة كل الروائع الآخر التي تمنحنا إياها الحياة بسخاء . أنتم أطفال مدللون تتمادون في الشكوى والبكاء لأن العالم لا يلبي طلباتكم في التوي واللحظة , وأنتم عادة أول المسئولين عن مصائبكم.
كانت ماري تردد مقطوعة عزفتها لها على كل الأوتار ، و كانت تكذب على نفسها مثلما كنت أكذب على نفسي و أنا أترجم لها أبيات إيليا في الشكوى و الشاكي. و كنت أسرح بخيالي و هي تتكلم. أوراق صفراء متناثرة على أرض الخريف ... أشجار باسقة وقد تعلق الثلج بأغصانه، دفء الشمس روعة النجوم ...ليلة يكتمل فيها البدر.. أريج الياسمين .. ضحكة طفل... تسارع دقات قلبي و اليد البضة في يدي... دموع تحبس عندما تتصاعد الموسيقى الآلهة .... ابتسامة اعتراف، و نظرة عابرة سبيل ... كانت تلك بعضا من لحظات السعادة التي تجعلني أتحمل فظاعة ساعات اليوم الطويلة... لحظات رائعة... تأتي و أنا لا أنتظرها تفاجئني و أنا عبوس قمطرير . تعيد ارتباطي بعالم أضيق به و يضيق بي . كنت أريد إذ ذلك إيقاف عجلة الزمان ، أن أجعل اللحظة المباركة تتمطّط إلى ما لا نهاية . لكنها كانت تذهب بلا رجعة ، لذلك تراني أسارع لوضعها في كنز لن يسرقها مني أحد، كنز ذاكرتي أجمع فيه هذه الشوارد، أدخرها لأيام يطول فيها المشي تحت السحاب المظلم. كنا واعين بأن السعادة هي الشاذة و ليست القاعدة ، و إن الحياة سفرة في واد مظلم . فجأة تنقشع السحب و تظهر من فجوة السحاب الأسود زرقة السماء و بصيص من نور الشمس . بنفس السرعة تطبق السحب الدامسة على الفجوة و كأن لها ثارا قديما معها، فإذا بك من جديد تتخبط في عالم الظلم و اليأس. كنا نخالط أنفسنا نتصبر ننشد السلوى و نتعلق بالقش يطفو على سطح الموج حتى لا نغرق ، و كان القاسم المشترك بين فكرينا النفور من العالم. ديكور رائع حقا ، لكن ماذا عن التراجيدية التي كنا نتابع فصولها ، لا نأتي بمعجزة و لا نقوى على حل. لم تكن طبيعة العمل الطبي وحدها السبب في حساسيتنا المفرطة تجاه الآلام و الموت إذا لم تكن بحاجة إلى الإنصات مليا.. كأن صراخ العالم و زعيقه يصم أذننا و يفجر الطبلية و كنا بحاجة ماسة إلى إغلاق أعيننا حتى لا تعشش داخل المخ تلك المناظر البشعة التي كان التلفزيون سخيا بها، فإذا بها نواة كابوس لا ينتهي.
كانت تردد وهي تحاول أن تجد تفسيرا للشر يقبله العقل و ترضى به العاطفة . هو حدث طارئ خلقه ليبلونا .سيأتي المسيح يوما ما . ذلك أمر لا جدال فيه. هل تتصور أنه لن يأتي .. هذا مستحيل . إذن سيأتي ، و سنعرفه كلنا و سنبكي فرحا. و كنت أرد متجهما:
سخافات رومانطقية ، لن يأتي أحد، السماء لا تمطر المنقذين، نحن ركاب باخرة سكرى. الطاقم لا يعرف الملاحة، و القبطان لا يفارق زجاجة الويسكي، و الركاب مجانين ، كلهم مدججون بالسلاح، و كل " كابين" قلعة محاصرة ، تتراشق طول الرحلة المجهولة بالسب و الشتم و التهديد. ألا تسمعين عويل المذبوحين يتصاعد من "الكابنات" التي وجد لها السافحون منفذا . كل هذا و البحر يرمي بجبال الموج على القشة الطافية و كأنه لن يهدأ له بال و لن تقر له عين طالما لم يغرقها . الغريب أن من بعض الركاب من يؤمن بالسعادة و سيف داموكلاس'' مسلط على رأسه و ر أس الجميع، ألا تتعجبين'' من قدرة الفكر على مغالطة نفسه ، و عبقريته في إنكار الحواجز و تحطيمها الوهمي ؟) كان النقاش تلك الليلة بمطبخ ماري حادا ساخنا ، كان كل واحد منّا يصفي حساباته مع أعدائه الوهميين من شياطين والهة وبشر .
قال الملحد الأول وكان من أكرم الناس خلقا وأكملهم عقلا تصلون لأربابكم تستعينون بها عل فهم الشر ومحاربته لكن تكون الشكوى والقاضي هو الغريم ؟
قلت : أنت تعلم رفض المطلق للإلحاد ورأيي فيه لمني أتسأل في بعض الأحيان :
ترى أين يضع ملفات الأسماك وهي تختنق والثكلى وهي تنتحب والعذراء حي تغتصب , والمصيد لحظة يتمزق والمريض وهو يحتضر ؟ أين آثار صرخة الزهور لما تقتطف وصرير أسنان الكرم وهي تعتصر ودم القرابين وهي من الشرايين تتفجر .
وبكاء الطفل لما يعذب , واحتجاج الدينصور وهو ينقرض .

وأعجباه . لم تكتب النجوم عرائض وهي تنطفئ ألم تستنجد به الريشة وهي في مهب الريح تتطاير ؟ ألم تحتج عليه الخطى عندما تتعثر؟ أليست لديه وثائق عن الشعوب لما تتشرد , وعن اللحوم وهي تقطع ؟ أين ملفات عويل الأرامل حين تسلب وتوسل العبيد حين تجلد ؟ ألم يأتوه دراسات وأبحاث عن الآم النمل عند ما يرفس , ونحيب الغزال عندما يسلخ , وأنين المسيح وهو يصلب , واستغاثة الأنبياء وهي تضطهد ؟ أين الجلدات التي يصنف فيها عويلنا وبكاءنا وتوسلاتنا وأمانينا ؟ ماذا فعل بآهاتنا وصلواتنا ودعائنا ؟ قال ضاحكا : ألقى بكل المستندات التي تصله تباع في سلة المهملات وقطع خيط التلفون .

قالت ماري : أرأيتم الفيلم الذين عرضته البارحة التلفزة عن حياة الحيوان هل لاحظتم فظاعة موت الغزال بعد أن أحكم النمر أنيابه حول عنقه ؟ تخيلوا . وسرحت بخيالها وكأنها تحتضر معه " إنه يركض رغم وهن قواه وتقطع أنفاسه . لم تره يوما الأعشاب والأشجار وسائر الكائنات التي تملأ الفيافي , يركض بهاته السرعة المجنونة , يثب من أعلى سطح الأرض وكأنه يريد الاحتماء في أحضان السحب ليسقط من جديد ويرتطم بها إذ لا يفر منها أحد . كل الكائنات ممسكة بأنفسها , تتساءل هل ستنجو هذه المرة أيضا لمنها في الواقع لا تبالي . كل المسألة مجرد فرحة , بعد لحظات ستعود إلى همومها فلكل كائن في الوجود نمر يتربص به ونهاية مهما كان الدور المحدد له في السيناريو ونمر غزالنا الراكض هو أيضا ممثل ذائق طعم الموت يوما أو آخر . لكنه الآن حيّ تتدفق الحياة عبر شراييه المرنة وعضلاته المتوترة وخفقان قلبه المحموم , هو والغزال شيء واحد يأتيان باتفاق رائع حركات بالية الحياة والموت . لا معنى لواحد بدون آخر جمعتهما الحياة في فصل من التمثلية ووزعت الصلاحيات والأدوار . من قال أن "زوس" ظلم الغزال ؟ ألا يجتث هو الآخر طري العشب وبراعم الأشجار ليسحقها بين أسناني ؟ ها قد بدأت قواه تخوته وأنفاس النمر اللاهثة تحرق مؤخرته ... أسنان الوحش تطبق على الهوى . آخر جهد . آخر قفزة ... آخر بصيص من الأمل ... آخر سقطة لم يكن أبدا حيّ مثلما هو حي في هذه الدقيقة الحاسمة : كل خلايا جسمه في حالة العمل الأقصى . لمنها النهاية .. وهذا الألم الهائل ينذر بأن البرية لم تعرف ركض الغزال , وأن الشمس لن تشرق له من جديد , وأنه لن يسارع من أجل الأنثى ولن يسحق تحت أسنانه طرى العشب وبراعم الأشجار .

قالت : يقال إن الجمل عندما يذبح يبكي بصوت مسموع , ويقال هذا عن حيوانات أخرى أقسم أنني رأيت يوما وأنا طفل جدي ينتحب ويقاوم وهم يلقونه على الأرض لذبح , كنت يوم العيد عندما أرى خالي يمسك السكين ليفجر الدم من شراايين الخروف أغمض عيني ألم يكن يذبح صديقا عزيزا على تعهدت أشهرا قبل العيد بالرعاية والزينة وكنت أفتحهما ثانية لأشاهد صديقي يتخبط وهو يعالج سكرات الموت , وكنت أشعر ذلك اليوم بحزن عميق , وأضربت عن اللحم سنة وأنا مراهق , وطلقت هذه العادات من بيتي , ترى هل يبكي الغزال والنمر يقطع لحمه وأنيابه ؟ ألا أدري , لكن ما نعرفه عن تركيب الجهاز العصبي يدفعني إلى الإمام بأنه يتألم كما أتألم أنا وأنت لو وضعنا في نفس الوقف الرهيب فالخلايا العصبية وكيفية عملها الكيماوي واحدة عند الإنسان والحيوان والفرق كمي وليس نوعي .

قالت وهي تتابع حلمها اليقظان : " ها هي تشنجات الغزال تتوقف , صمت القلب انتهت حالة الإنذار القصوى , انطفأت كل الأنوار كفت خلايا المخ عن التسجيل , ولى الألم إلى غير رجعة . لحظات رهيبة حق لكنها انتهت . هي الثمن الباهظ لكل تلك الدقائق التي ذاق فيها الغزال متعة الدفء تحت أشعة الشمس ولذة الحب والنصر والفرح بالنجاة من أنياب الأسود الجائعة .

من يدري ؟ ... لم يفكر الغزال يوما في محاسبة الحياة , أتراه كان يعلم بالفطرة أن الحياة تاجر لا يساوم ؟ قلت أتابع حلمها : والنمر هو الآخر بريء , أنابه تعمل عملها الطبيعي بتأني المنتصرين الواثقين من قواهم . هو لا يضمر في هذه اللحظة ولا في تلك اللحظات الحاسمة التي سبقتها كرها للغزال ليس بينهما حسدا أو سواء تفاهم . لم يقابلهم من قبل ولم يعرف عليه شيئا إلا سرعة ركضه وجمال قفزاته وبراعته في المراوغة لحظة الصيد . لم يقتله من أجل فكرة أو لضغينة قديمة بينهما . قتله لأنه جائع , ولأن أطفاله بانتظاره جائعون هكذا أرادت الطبيعة أن يكون العالم. على كل من لم تعجبه التفاصيل أو من يزعجه موت الغزال البريء عليه أن يتقدم بشكواه واحتجاجه إلى الأم المقدسة وهي لن تعبأ باحتجاج ولم يعبأ النمر وسيتنعم هو المدام

وكافة أفراد العائلة وسيسعد بطريّ العشب لأنه سيبقى ذلك اليوم ملتحما بالأرض الطيبة القاسية وستتمتع كواسر الطير وجحافل النمل وسائر الهوام لبقية الوليمة ...
على فكرة أتذكرين يوم فرضت علينا الكلية زيارة المذابح العمومية لدراسة قواعد نظافة اللحوم ... لم أشاهد على سطح الأرض أبشع من هذه الأماكن . تصوري مئات الأبقار الوديعة وهي تنزل من عربات قطار خصوصي , تساق بسرعة وعنف نحو مرابض مخصصة ثم تفرز بنفس الغلظة والسرعة , وتساق الواحدة تلوى الأخرى الموت . لا أدري هل رائحة الدم أم الصراخ هو الذي أخافها لكني فهمت من تسارع الضربات ونرفزة العمال أنها بدأت تتردد في المضي إلى الأمام وكأنها فهمت .
قال إيليا في الكائنات الحية التي نسميها باحتقار غبي الحيوانات :
كلها مثلي تحيّ * كلها مثلي تموت
ولها مثلي شراب * ولها مثلي قوت
ورقاد وانتباه * وحديث وسكوت
فبما امتاز عنها * ليت شعري لست أدري
وتصفف الأبقار في دهليز طويل ضيق وأنف البقرة في مؤخرة الآخر ثم تدفع الضحية إلى الأمام ويغلق باب أوتوماتكي وراءها . ها هي الآن وجها لوجه مع الموت . ويتابع العامل حديثه وضحكه مع زميله لا ينظر إلى الحيوان ولا يعيره أدنى اهتمام . يمسك نوعا من المسدس ويضعه بين قرني البقرة ويضغط على الزر فتتهاوى ثم تمسك آلة رهيبة برجلها وترفعها مترا ونصفا فوق سطح الأرض . ويجر العامل عنقها فيسقط الرأس وينفجر الدم من الشرايين , ثم تقدم الآلة الجثة إلى عامل آخر يبقرها . فتخرج الأحشاء وتتابع الآلة مسيرتها بالجثة هذا يخلع عنها الجلد وهذا الأطراف الخ ... كل العملية لا تتطلب أكثر من خمس دقائق والبقرة التابعة تنتظر أن يضع العامل الأول المسدس بين قرنيها . ولكن أبشع المناظر التي شاهدتها اليوم كان بطلها جزار متدنين فهناك من يهتمون بتقديس حتى تفاصيل القتل, ففي المذبح المخصص لدين ما , يحبس الحيوان في آلة كراوية ويضغط الجزار المتدين على زر فإذا بالحيوان على ظهره وأطرافه الأربعة في الفضاء ويرفع الحبر ذراعه ويجزه العنق بالسكين ويتدفق الدم وتشاهد الأطراف البارزة من الفوهات الحديدية تتحرك وتتشنج حتى بعد سقوط الرأس , وتسمع الرجل يتمتم بصلوات لآله ليس آله البقر . وأصابني الدوران والغثيان وضحكت مني زميلتي ودار الحديث عن خشونة الرجال المزعومة وجلد النساء الحقيقي واختصرت الزيارة وهربت من ذلك المكان المريع الذي تفوح منه رائحة الدم والأحشاء المبقورة . وكرهت تلك الأماكن (ولا أزال) التي أصبح فيها الموت عملا صناعيا ، ميكانيكيا رتيبا هجميا في تقنينه و تنظيمه.
قالت: تقرئين في الصحف تفاصيل عن حياتنا و موتنا فيخيل لك أننا وصلنا في الميدانين إلى أقصى حدّ ممكن من الفظاعة لكنك غلطانة. الفظاعة كالقناعة كنز لا يفنى هذا آخر ما صدر في الجرائد. تصوري : رجل و امرأة يحتضنان بمنتهى الحنان رضيعا نائما يعبران به القمارق. هذا منظر مؤثر ، و يهمس الشرطي في أذن المرأة أمر المرور حتى لا يوقظ الرضيع ملقيا نظرة حنان على الملاك النائم الذي يذكره بذلك الملاك النائم في بيته. و هكذا تمر الكوكايين الثمينة.
- لكن أين البضاعة ؟
- ألم تفهمي . في جوف الرضيع طبعا
- يا خبر أسود ؟ هل خلط بالمخدرات
- لا يا ساذجة سرقا الرضيع سلعة قبل العبور و قتلاه و بقراه و أخرجا أحشاءه ووضعا في بطنه المخدرات و غطياه و عبرا به الحدود و في العيون كل حنان الأبوة والأمومة ، أسألك عن أمور كهذه تقولين حكمة الله ... إرادة الله.
بصراحة لو كنت أم الطفل ، أكنت ترضين بهذا المنطق، و صمتت ماري طويلا.
قلت : أتذكرين ما كتب دستويفسكي في إحدى راوياته الشهيرة عن عبث بعض سادة الإقطاع في روسيا ما قبل الثورة؟ كانت اللعبة تتمثل في صيد الأطفال ... يطلق الطفل عاريا في السهل و يقولون له وهم على صهوة الجواد أهرب ثم يتبعونه بجيادهم و كلابهم وكأنه أرنب أو ثعلب و أنياب الكلاب تعض الهواء المرة الأولى و الثانية، لتطبق أخيرا على عنق الطفل بعد مطاردة مثيرة رهيبة . كان صيدهم ذلك اليوم طفلا اسمه ديميتري و لم أنس يوما ديميتري

ألا تصدقين ؟ هل سمعت عما يجري في زنزانات التعذيب ؟ و هل تعلمين أنهم يجبرون الآباء على قول ما يريدون بتعذيب أطفالهم تحت أعينهم و تقطيع أوصالهم ؟ افتحوا نوافذهم يا ناس و أرهفوا السمع. ألا تسمعون صراخ الآباء و عويل الأطفال , أتريدون مني تفاصيل البل و الحرق و الاغتصاب؟

قالت وفي الشر المطلق يروي دستويفسكي , قصة ذلك الطفل الذي لم يتجاوز الثامنة والذي كان يحبس فر مرحاض بارد مظلم كل ليلة ... ليصلي . والمراحيض في روسيا عند الشتاء كما تعلمين ليست أمكنة يستحسن وضع الأطفال فيها للصلاة , فيها للصلاة , خاصة في الليالي المظلمة .

تخيل دستويفسكي رعب الطفل , نحيبه , جثوه على الأرض الجليدية ... صلواته إلى عذراء قازان وعيسى المسيح وأبينا الذي في السماوات ... وتخيل صمت السماء الرهيب ولم يقبل ذلك الصمت , قال : لو غفرت الأم لقاتل ابنها , ولو عم السلام الدنيا , ولو رقد الغزال قرب النمر بدون خوف , ولو تعانق ألذ الأعداء , وقد تطهروا من البغضاء بدموعهم الصادقة , ولو نزل المسيح ليمحو أخطاء البشر وآثامهم . لما غفرت .. لنا قبلت ... لما صفحت , باسم ذلك الطفل الجاثي على الأرض في المرحاض . باسم ذلك الطفل العاري المتخبط تحت أنياب الكلاب ...

كان صمت السماء ولا مبالاتها بتضرعات الطفل بالنسبة للكاتب الفذ الحجة الدامغة على عدم وجود الله , وأفحمتني الحجة وتلاشي مني الإيمان زمنا طويلا , و تصلبت قناعتي في فكرة : أما أنه كان قادر تلك الليلة من إنقاذه الطفل من براثن الكلب و لم يفعل فهو شرير، و أما أنه كان يريد إنقاذه و لم ينجح فهو إذن عاجز. المشكلة إن ديستويفسكي صاحب الحجة بقي مؤمنا بوجود الله و إلى أخر رمق من حياته، و لم أفهم موقفه و لم أجد له تبريرا .

قلت : أمن الممكن أننا أطفال بله نحكم على الآلهة بمقاييسها البلهاء .

أذكر يوم بلغت مريم الرابعة جررتها إلى روضة الأطفال و فضحتني في الشارع كانت تقاوم و تصرخ و تبكي بصوت يمزق القلب.

خاصة و أن نظرات الاستنكار من طرف المارة كانت بليغة:" يا لقساوة هذا الرجل انظروا إليه كيف يجذب بعنف هذه الطفلة المسكينة الحلوة..."

و مسحت عرقي بارتياح و تنفست الصعداء لحظة سلمتها للمعلمة و هربت و أنا غضبان أضحك. كنت ذلك اليوم من وجهة نظر مريم شريرا لم ترض تصرفاتي و كانت حاجتها ماسة إلى العدل و المنطق . أخرجتها مبكرا في يوم بارد من غرفتها ، و أبعدتها ، بل قل فصلتها عن أمها و دميتها، و رميتها في عالم ملآن بالأجانب و الأخطار.

ماذا لو كان حسابنا للآلهة من نوع احتجاج مريم يوم جررتها إلى المدرسة ؟ لكن هناك فرقا كبيرا بين بكاء ابنتي ذلك اليوم و بكاء الطفل ديمتري و الكلاب تلحس دمه و دموعه ، لأن المعنى أتضح لمريم بعد أيام، أصبحت تنهض من فراشها قبلي و قبل أمها و تصرخ:" سأصل متأخرتا إلى المدرسة"، و كانت أمها تنهض بتثاقل لتعدها و صارت مريم هي التي تجرّها أو تجرني إلى المدرسة ، كما صارت لعبتها المفضلة لمدة سنوات إعادة تفاصيل يومها في المدرسة، تجلسنا في المطبخ و تطلب الصمت حتى تواجهنا و تقلقنا الأغنية الأخيرة التي تعلمتها... و كانت تنهض من مقعدها بوقار لتضرب بمسطرتها على أصابعي لأنني تلميذ كسول يضحك طول الوقت .

لكي لا أظن أن الطفل المقتول بتلك الكيفية البشعة فهم في العالم الآخر الحكمة من موته و لا أعتقد أنه الآن يمرح في رحاب الجنة تحت نظرات الرب الرحيمة.

قال أحدنا: لنضع في الكفة- للدفاع عن حكمة الآلهة- نشوة الصيادين و تمتع الكلاب بالصيد، و فرح الخيل بالركض وراء الطفل الفريسة ... لماذا نرفض للصياد البشري حق الصيد ، حتى و لو كانت صيد طفل في الثامنة؟ هل نلوم النمر على تقطيعه لحم الغزال . و لنفرض أن فرح هؤلاء يغطي دموع الضحية و الأم كما تغطي الصادرات الوردات... لكن أي تبرير منطقي يمكن أن نسوقه لفهم الحكمة في ذبح الرضيع و إخراج أحشائه و حشوه بالكوكايين ؟.. كيف يمكن للرب أن يتخلص من مسؤولياته؟ و ماهي الحجج التي يمكن أن يسوقها للأم دفاعا عن نفسها؟ قد تقولين كان تلك الليلة مشغول بقضايا عاجلة و لم يقم أعوانه بعملهم و سيعاقب المجرمين في زنزانة مدروسة تكفل لهم أقصى حدّ ممكن من العذاب ، و سيعوض للأم بطفل آخر لن تستعمل بطنه كمستودع كوكايين الخ...

من الممكن أن تقبل الأم هذه التعويضات و هذه هذه المعاذير لكت دستويفسكي لم يقبلها وهو على حق.
الشر قدر الحيّ طول الوقت. كان من الممكن التغاضي عن هفوة... أو هفوتين... لكن الفظاعة تصاحب العالم و تلازمه.
لا ننكر أن روعة الحياة لا تضاهيها روعة لكن هل بوسع الآلهة أن تنكر الثمن الباهظ الذي يدفعه الحيّ للتمتع بشرف الحياة؟... هل خلقت النقص عمدا لتتلاهى بآلامنا أم أنها أعجز و أقل كمالا مما تدّعي؟
قال الملحد: الواقع أن معضلة الشر هي سبب لقاء الآلهة حتفها ، مصير كل كائن في عالم الحيات أو عالم الأفكار أنه مضطر للتعامل مع معضلة يصفيها أو تصفيه و عجز الآلهة عن إيجاد حل ، أو على الأقل تفسير معقول و منطقي، للشر هو سبب تعاقبها على ساحة الحضارات و موتها الحتمي . تبدأ حياة الرب أو الربة ككل حياة أي تحت راية الأمل سيكبر هذا الصغير و سيأتي بما لم يستطعه الأوائل ... سيعطي للشر تفسير مقنعا و سيقضي عليه القضاء المطلق . لا تجعل عليه... أمهلوه بعض الوقت فحتى الآلهة بحاجة للوقت ... قدسوه و أعبدوه و أطيعوه و أطيعوا خاصة ممثليه على الأرض،فهم حلقة الاتصال بينكم و بينه و لن يلحقكم سوء ، و لتعرفوا الذل و الخوف، و الجوع و الآلام و الظلم... و لن تصطاد كلاب السادة أطفالكم للهو .
و يقبل الإنسان المعاهدة لكن الوقت يمر و الشر قائم ، بل و يستفحل و مع ذلك فقد احترم الاتفاقية الضمنية .
" كم صليت و ذبحت القرابين يا زوس ، يا أمون ، يا كالي ... يا ادوناي... يا نزامي ... يا من لا اسم لك و مع ذلك فقد ذبحوا زوجتي و اغتصبوا بناتي و أحرقوا حصادي ، و أنت ترى و تسمع و لا تحرك ساكنا .
و يتسرب الشك إلى العقل ... ة تبدأ مفاصل الرب تئن آنذاك.
تطلب العدل ، مقتل الآلهة ... لذلك يحرم الكهنة على الناس التفكير ، أي مراجعة الحسابات ، لكن استفحال الشر ظاهرة يصعب تجاوزها.
يأتي يوم يرفع الإنسان المقهور رأسه صارخا: انتهت الاتفاقية , وبطل مفعولها
لا غرابة في ذلك إذ هناك اتفاق ضمني واضح بين الرب والإنسان : طاعة مقابل عدل , والاتفاق بطبيعة الحال قابل لنقض إذ لم يكن أحد الطرفين بواجبه , عقاب في حالة التمرد والتمرد في حالة الظلم , أو التقاعس والتاريخ هو القصة المأساوية لتقاعس الطرفين عن احترام تعهدهما . قصة علاقة الإنسان بآلهته قصة حب قاتل لأنه غير متبادل , وهي ككل هذه القصص الغرامية حافلة بالمآسي , تبدأ كأنشودة وتنتهي بفاجعة ... لا يسدل الستار على المسرحية إلا ويقتل الرب لينصب آخر . وتموت الآلهة بكيفيات مختلفة شأنها في هذا شأن البشر , منها من تنقرض بالحرب إذ يقول المنتصرون للمنهزمين . " هزمنكم لأن ربنا أقوى من ربكم هاتوا الغنائم والسبايا , وأقبلوا أوامر ونواهي ربنا وزعيمنا " .
ويرضى المغلوبون فيقتلون ربهم بدون تأنيب ضمير زائد ولسان حالهم يقول : لو كان ربا يعول عليه لما رضي لنا بالهزيمة ولما ملك علينا ذلك الغبي , ولما سلط علينا الجراد السنة الماضية , لا بد أن رب هؤلاء الغازين على درجة هائلة من القوة فلولا ذلك لما غلبونا , لنجربه , فمن الممكن أن نحقق عملية رابحة على كل حال لا غيار لنا , والسيف مسلط على أعناقنا .
أصعب الآلهة قتلا وأصلبها عودا آلهة الهنود , وذلك لتعددها الهائل , الشيء الذي يجعل اصطيادها أصعب بكثير من التنكيل برب واحد معزول , خاصة وأن بعضها تجاهر بلا حياء أنها تمثل الشر . فكيف تلومها على القيام بمهامها بذلك الإتقان المعروف ومنها من يشيخ وما من أحد يعيره أدن اهتمام .
أسأل شاب غربي معاصر عن حالة ربه , سيهز كتفيه بلا مبالاة : " انقطعت عني أخباره منذ مدة " وأسأله عن أبيه : " هو الآخر في مأوى العجزي , آخر رسالة تلقيتها منه كانت مناسبة عيد الفصح , لو مات لا أخبرتني الإدارة ... إذن هو حيّ ... لكنه كبر ولن يعمر طويلا . مسكين كان رجلا طيبا " . ومن الآلهة من يموت ضحية انقلاب فيجتث الاعتقاد كما تجتث النباتات المضرة . المهم انتظار انقراض جيل ما قبل الثورة ... سيتخبط طيلة هاته الفترة , وسيحاول استعادة سلطانه وهيبته , ولكن محتشدات سيبيريا له بالمرصاد . لن يعمر , سينقرض بلا رجعة يوم

يموت في المحتشد آخر الإتباع وآخر الكهنة ويوم تصبح كنائسه متاحف تزوره السائحات بالبيكيني , ويوم تتخرج من المدارس والجامعات جحافل من أتباع الديانة الجديدة .
القاسم المشترك بين حضارتي الغرب الرأس مالية والشيوعية أن القوم بعثوا بالرسالة الآتية إلى أبيهم الذي في السماوات .
تحية وبعد .
" فقد درسنا بمنتهى الموضوعية نتائج عملكم منذ عشرين قرنا في سائر الميادين التي كنا ننتظر عونا من طرفكم لحلها كما اعتبرنا موت الطفل ديمتري في تلك الظروف الرهيبة التي تعرفونها واستمعنا إلى القائلين بأن لك حكمة في هذه الموتة البشعة وفي عذاب ذلك الطفل البريء وبعد التفكير الطويل فقد قررنا رفض حكمتك هذه جملة وتفصيلا خاصة وأن حالات الفظاعة والبشاعة والظلم لا تعد ولا تحصى وبما أنكم منذ القديم لا تحركون ساكنا لنصرة المظلوم وإغاثة الضحية ومنع الفظاعة والبشاعة والجريمة رغم ما تدعونه من حكمة وقوة , فقد قررنا الاستغناء عن خدماتكم واعتبار مهمتكم منتهية بدءا من لحظة تسلمكم هذا الإشعار, وتفضلوا بقبول إحتراماتنا الخ .. التوقيع الإنسان الثائر .
ويتلقى الرب رسالة إحالته على التقاعد الإجباري بقرار من مجلس التأديب ولا يلبث أن يلفظ أنفاسه إذ هو ككل الآلهة عاجز عن البقاء والدوام إن قطع عنه الإنسان ذلك الأوكسجين الذي يستمد منه وجوده وحيويته : الإيمان . ثم تصل أخبار موت الإله العجوز إلى الإنسان المتمرد, فيجلس يوما نيتشه NIETZCHE ليدبج إعلان الوفاة في إحدى الجرائد الصباحية المغمورة :" توفي الله بعد أن وفاه الأجل المحتوم إثر مرضا عضال دام عشرين قرنا فلا تغمده أحد بالرحمة هو الذي لم يرحم ديمتري ولا رزق أحد من ذويه جميل الصبر والسلوان " .
وكأنني بنيتشه يستطيل الإعلان فيختصره خوفا من تكاليف النشر إلى تلك الجملة المقتضبة الشهيرة التي أصبحت شعار قرن الإلحاد " لقد مات الله "
قلت : وبقية القصة ؟
أنتم تعرفونها . استحوذ الإنسان على الصولجان . وضع تاج الألوهية على رأسه نصب نفسه ربا . واستعصى الواقع على الفهم كما لم يستعص أبدا طوال التاريخ , وسجل مؤشر الموت والفظاعة والشر في العالم قفزة مخيفة إلى الأمام .
أما من حلا تسكن عليه العاطفة ويرضى عنه العقل ؟ و طال النقاش و تشعب و نحن نبحث عن الحل كما تبحث فئران المختبرات عن مخرج في الدهليز .

***

الجزء الثاني
الآراء والخواطر

الفصل السادس
تحت عدسة المجهر

المشكلة : رأي العلم في الموت ؟ وبداية الإجابة تبدأ بتساؤل :
هل الموت – كما يتصور الكثير – عملية سلبية تدل على فشل الجسم الحيّ في المحافظة على تماسكه وقواه ؟ هل هو حدث عارض أو مرض خطير لم يكشف له الطب إلى حد الآن دواء ناجعا ؟ هل سنستطيع التغلب عليه يوم نتمكن من تشخيص العطب الخطير ومعالجته بفضل تقدم الأبحاث العلمية؟
وردي بك من الوضوح هو : لا
الموت ليس دليل فشل الجسم أو مرضا عضالا سنتمكن من القضاء عليه , الموت علميا وظيفة من أهم وظائف الجسم .
لكي يفهم القارئ هذه النقطة الأساسية , يجب عليه أن يتوغل معي في دروب الأبحاث العلمية الحديثة, وقد يتطلب منه هذا شيئا من الجهد وإعمال المخيلة . وليقبل مني زملائي الأطباء اعتذاري لما سيعتري هذا العرض من تبسيط تفرضه علينا طبيعة المحاولة . كلنا نعلم أن الجسم يتكون من أعضاء (القلب .. المخ .. الكبد .. الرئتين .. الخ) وكلنا نعلم أن هذه الأعضاء بدورها تتركب من أنسجة متخصصة ومتباينة التعقيد والصلاحيات , أما إذا توغلنا داخل التقسيم فسنجد أن الأنسجة حصيلة تلاحم ملايين من الوحدات الأساسية : الخلايا , والخلية هذه رغم صغر حجمها (إذ لا نراها إلا تحت عدسة المجهر) أعجوبة الخلق الأولى فهي عالم بأسره يقضي جهابذة الباحثين عمرهم في دراستها ولا يصلون إلى شيء يذكر , ولا غرابة في هذا إذا هي مكمن سر الحياة والموت . الجسم إذن مكون من ملايين من هذه الخلايا , وهي تتفرغ كما هو معروف عن انقسام الخلية الأولى التي تكونت في الرحم عندما ولج الحيوان المنوي بويضة الأم وأخصبها . تبدأ عندئذ مرحلة عجيبة من الانقسام المتتابع , إذ تنقسم البويضة المخصبة إلى خليتين ثم إلى أربع ثم إلى ثمان وهكذا بدون توقف تقريبا إلى أن تبني الخلية الأولى المخ والقلب والكبد والرئتين وبقية الأعضاء ... بالطبع يتطلب هذا من الخلايا التخصص , لأن القلب لا يشبه الكبد , ولأن دور المخ ليس دور الغدة الدرقية . المهم أن الحياة تكون بهذا الانقسام المريع الذي يجعل من خلية واحدة ذلك الرضيع الباكي الذي تأخذه بحنان (أو بقرف حسب حدّة الصراخ) .
هل تنتهي مرحلة الانقسام عند الولادة ؟ لا بالطبع فأنت تعلم أن الجسم يتطور وأن هذا الرضيع سيصبح فتاة أو شاب وهذا يتطلب تتابع الانقسام وتصاعدا مجنونا في عدد الخلايا , وتزايدا مذهلا في تعقيدها , فكل الأعضاء باستثناء الجهاز العصبي الذي ينتهي تطوره سنتين بعد الولادة بحاجة إلى الزيادة في حجمها وخاصة العظام والعضلات .
وتسأل : أيتوقف الانقسام عند ما يكتمل نمو الإنسان ؟
لا , لأن الجسم يجدد خلاياه طول الوقت حتى وهو في أشده . تنظر إلى زوجتك تحسبها لا تتغير إلا ببطء وهي تجدد خلاياها طول الوقت . مثلا كل الخلايا الحمر التي تحمل الأوكسجين والتي لا تكون الحياة بدونها تتجدد بأكملها كل ثلاثة أشهر , والفرق بالنسبة للخلايا هو سرعة التجدد . تجد الحالة القصوى في خلايا الجهاز العصبي القارة, والحالة القصوى في سرعة التجدد في خلايا الدم والجلد . لاحظ أن الانقسام يخضع لقانون هام هو قانون الحد . من البديهي أن على الخلايا أن تتوقف عن الانقسام عندما يكتمل صنع القلب أو المخ , أي أن العملية ليست فوضوية وإنما هي مبرمجة بمنتهى الدقة وأنت تعرف اسم المرض الناتج عن الانقسام الفوضوي للخلايا : السرطان لاحظ أيضا أن الخلايا المتجددة كخلايا الدم لا تتعايش مع الخلايا القديمة . هي بحاجة إلى كل المساحة . إذن عملية الانقسام هذه تتطلب في نفس الوقت اختفاء الخلايا القديمة.
هي بحاجة إلى كل المساحة . إذن عملية الانقسام هذه تتطلب في نفس الوقت اختفاء الخلايا القديمة أي موتها ، فالقاعدة إذن سواء في عالم الأجناس أو في عالم الخلايا لا تتغير. تكون الحياة بالموت و يكون الموت بالحياة ، لا معنى لأي واحد منهما بدون الآخر .
والآن ماذا عن الشيخوخة والموت ؟ هل يتتابع الانقسام أم هل سيطرأ عامل جديد على عمل الخلايا ؟

لقد أصبحنا نعرف الرد عن هذا السؤال وهاهو : كلما أقترب المرء من الشيخوخة كلما تباطأ انقسام الخلايا وتزايدت أخطاء الجسم في التعامل مع المحيط . الواقع أنك تحسب الجسم عندما تدرس علميا هذه الظاهرة ضحية مؤامرة مقصودة ... مؤامرة تنبع من داخله إذ تشعر بأن الخلايا دخلت في طورا من العمل الرديء , إنها باتت ترفض القيام بمهامها , إنها لا تريد الحياة ...

كيف ؟ لكي تعرف الخلفيات تتبع معي تفاصيل بعض التجارب العلمية .

نحن الآن مع ''ليونارد هايفليك ''البحاث بمخبر مستشفى الأطفال بكالفورنيا والموضوع دراسة انقسام بعض الخلايا .

المهم في التجربة هو الحصول على هذه الخلايا من رئة جنين أجهضته أمه أي الحصول على خلايا في بداية مرحلة التطور, والعملية سهلة من الناحية التقنية .

يبقي أن نضع هذه الخلايا في سوائل معينة تكفل لها الحياة , وأن ندرس انقسامها تحت المجهر.

أول نتيجة هي متابعة الانقسام , وثانيها وأهمها أن هذه الخلايا لا تنقسم أكثر من خمسين مرة مهما حاولت , أي أن عدد التوالد محدد منذ البداية برقم لا جدال فيه : خمسون .

لنتأكد من هذه النقطة الرئيسية, ولنضع هذه الخلايا في سائل ''الأزوط'' الذي سيجمد فيها الحياة بدون قتلها, و لننتظر سنينا طويلة كما أنتظر هايفليك .

والآن لنعد الخلايا إلى محيطها العادي أي لننعشها من جديد ولنتابع انقسامها , ترى عند أي رقم ستتوقف . لا بد أنك عرفت الإجابة الصحيحة : خمسون . وكأنها مبرمجة منذ البداية وللانقسام خمسين مرة مهما كانت الظروف ومهما كان طول الوقت الذي أوقفنا خلاله عملها .

لنأخذ الآن (في إطار عملية جراحية مثلا) مثل هذه الخلايا عند إنسان بلغ أشده ستنقسم ثلاثين مرة مثلا إن كان في العشرين , وعشرة إن كان في الأربعين , ولم تنقسم بالمرة إن كان قد بلغ أسوأ العمر , والتفسير بسيط : لقد أخذت هذه الخلايا حظها من الانقسام ولم يعد لها رصيد وافر تسحب عليه الشيكات إذ أنفقت كل ما تملك . لا حظ أيضا أن الخلايا عندما تقترب من الرقم المهيب , تتباطأ في الانقسام ثم تصاب بتغيرات جذرية تقربها رويدا رويدا من حالة العجز التالية , من حالة من الموت . القاعدة إذن هي وجود برنامج في هذه الخلايا يحدد عدد المرات التي بوسعها أن تنقسم إليها مع استحالة تجاوز هذا العدد بأي صورة من الصور . مثلها في هذا مثل كاسيت مدتها نصف ساعة , تضعها في المسجلة فتسمعك الموسيقى نصف ساعة لا ساعة أو ساعتين. من هنا تفهم إذا الخلفية البيولوجيا للعمر المحدود يبقى أن نجد له تفسيرا فالخلية كما تعلمنا في المدرسة الثانوية والجامعة هي الوحدة الأساسية للجسم , وهي محاطة بغشاء خارجي يفصلها عن بقية الخلايا الأخرى ويحدد بقية محتواها وهو مادة لزجة شفافة . تتوسطها النواة التي تحتل قلب الخلية والنواة هذه كما يعرف العلم أعقد ما في الوجود لأنها العقل الجبار الذي يتحطم في مصير الخلية , فهو مركز كل المعلومات المسجلة التي توجه الخلية أي توجه الجسم والحياة .

ليتعمق معي قارئ بمتابعة التجارب هايفليك .

نأخذ خليتين : قدر الأولى أن تنقسم خمسين مرة لأنها خلية جنين وقدرة الثانية التي أخذنها من كهل أن تنقسم ثلاثين مرة...

لنتخلص من نواة الخلية الثانية ولنزرع فيها نواة خلية الجنين . وهذه أمور ممكنة من الناحية التقنية ستكون النتيجة انقسام الخلية الثانية خمسين مرة لا ثلاثين لأن الأوامر مبرمجة داخل النواة لا في المادة اللزجة التي تكون جسم الخلية .

لا غرابة في هذا فنحن نعرف منذ بداية القرن أن ما يسمى بالبرنامج الوراثي مسجل داخل النواة , وبالضبط على الكروزومات .

تنظر إلى داخل خلية من خلاياك تتجسس على أسرارها فتلاحظ أن فيها 46 زوجا من خيوط رفيعة جدا ترث 23 منها من أبيك والنصف الآخر من أمك وهي ما نسميها بالكروزومات . كل أسرار الجنس وكل خصائصك الوراثية مكبوتة بشيفرة كيماوية على هذه الخيوط الرفيعة لون شعرك , لون عينيك , طول قامتك , نسبة ذكائك , قابليتك لدفاع ضد مرض السرطان الخ ... بطبيعة الحال البرنامج مكتوب في داخل على الخلايا بدون استثناء وخزينة المعلومات هذه موجودة منذ أخصب الحيوان المنوي بويضة الأم .

والحياة هي ترجمة هذه الشيفرة الكيماوية إلى جسم له خصائص وحياة لها هدف .
تتساءل : ماهي علاقة شيفرة الكيماوية مكتوبة بلغة ما داخل خلية لا نراها إلا بالمجهر بشكلي وأهدافي ؟ أقول هي نفس العلاقة التي تربط بين تلك الاسطوانة السوداء التي تضعها في جهاز آلي يعمل بالكهرباء فإذا بأروع الموسيقى تتفجر وتعيد التحامك بعالم الهي كله كمال وبهاء , نحن وضعنا الموسيقى حسب مورس الكهربائي المعين داخل الاسطوانة السوداء ثن ترجمها الجهاز , كذلك فعل أبرع المخططين عند وضع برنامج المعزوفة الإنسانية الرائعة داخل النواة وجعل لها من عظيم الأجهزة وأبرعها مل يترجمها فتكون أنت وأكون أنا , ونكون نحن . وأغرب من هذا أبرع المخططين , ووضع فينا فكرا جبرا يجعلنا نعرف الشيء الكثير عن هذه الشيفرة وكيفية ترجمتها إذ اهتدى في خمسينيات القرن الماضي عالمان أمريكيان هما ''وطسون وقريك ''إلى فك هذا المورس كما استطاع ''شامبوليون'' فك مورس لغة الفراعنة قبلهما بقرن .
بالطبع تكمن أوامر الانقسام و توقيتها هي الأخرى في خزينة المعلوات الموجودة داخل نواة الخليّة . ملاحظة عابرة بالمناسبة : الشيفرة أو المورس الذي تعرضنا له هو نفس المورس عند الإنسان و الحيوان والنبات و الفرق هو في تتابع الأحرف و تصفيفها و غنى خزينة المعلومات ، فالمورس بعبارة أخرى هو اللغة الأم أما الأجناس فهي مجرد لهجاتها المحلية .
و الآن بقي أن نرد على السؤال الهام لماذا تتوقف الخلايا عن الانقسام في وقت ما ؟ لماذا لا تتابع عملها إلى الأبد ؟ أول ما تبادر إلى ذهن بعض البحاثين كمد فدف و لسلي أو رجل أن الموت ينتج عن عطب يلحق بخزينة المعلومات كأن يمحي الزمن مثلا بعض أحرف الخطاب الطويل ، فيستعصى على حامض RNA ترجمة خطاب غير مفهوم و من ثمة حصول أخطاء الجسم المتصاعدة التي تؤدي إلى الموت.
احتمال ثان : ألا تكون الموت نتيجة أضرار يلحقها المحيط الخارجي بخزينة المعلومات. و ترتيبات هذا الافتراض بديهية كأن تقول: لنحاو إذن اكتشاف هذه المؤثرات للتحكم فيها و إعطاء فرصة الخلود لخزينة المعلومات و بهذا تكتشف سر الأسرار .
و تتابعت الفرضيات و تتابعت التجارب تثبت خطأ هذا التصور. لنسلط كما فعل هايفليك الأشعة ما فوق البنفسجية على الكروموزومات سنحدث فيها أضرار فادحة . هل ستموت الخلية؟ لا...
ستجدد مقاطع الخطاب التي محيت بتأثير الأشعة، للخلية إذا قدرات هائلة لإصلاح العطب الذي قد يلحقها، المهم أن قدرة الإصلاح هذه رهن بشباب الخلية أي أنها ستستطيع مواجهة الأخطاء المحدقة بها إن كانت في بداية الانقسام، أما إذا كانت خلية عجوز فلن تستطيع إصلاح العطب.
الاستنتاج المنطقي إذن هو عدد الانقسام غير مرتبط بالعطب الطارئ و إنما هو مرتبط بأهم من ذلك. و قدرة الخلية على المحافظة على نفسها وثيقة الصلة بعمرها أي بعدد الانقسام المسموح به و هذا العدد هو الذي يحدد مقدرة الخلية للعلاج، مثلما يحدد ما بقى لها من وقت.
نحن نواجه إذن استحالة تجاوز عدد معين من الانقسام. لماذا ؟ لأن هناك أمرا بالموت مكتوب بوضوح في مقطع من مقاطع الخطاب و على الكروموزوم رقم 6 بالضبط.
الموت علميا إذن قدر الجسم و إحدى وظائفها الرئيسية و لا أبالغ إن قلت أن تنفيذ هذا الأمر يبدأ لحظة إخصاب البويضة إذ يبدأ عندئذ العد (للحياة) و العد المعاكس (للموت) .
حكم الإعدام مكتوب إذن منذ البداية لخزينة المعلومات تبقى كيفية الترجمة و توقيتها (إن لم يتعرض الجسم إلى حدث طارئ يقضي عليه قبل نهاية الشريط المبرمج) و قد أكتشف العلم كيف يوقع الحكم. يأمر الجسم الأنسجة بعدم التجدّد و ينهي قابلية الخلايا للانقسام كما ينهي مهمة بعض الخلايا المختصة بالدفاع عن الجسم. مثلا تلك التي تفرض الأجسام المضادة التي تحميه من الجراثيم في بعض الأحيان بطلق العنان لبعض الخلايا فتنقسم بسرعة تؤدي إلى ظهور مرض السرطان . بمرور الزمن تتزايد أخطاء خلايا مشلولة و تتكاثر عيوب الصنع في الحوامض الأمينية و النشويات و الدهنيات و العملية كما قلت مبرمجة ، تخضع لتوقيت ، و ليست مسألة وهن ميكانيكي ، لذلك أقول أن الموت نفسه علم و ليس فشل علم الخلية.
القبطان الآن على سطح الباخرة و الباخرة على وشك الوصول إلى المرفأ الأخير جابت البحار سنينا طويلة ، قاومت العواصف الرهيبة و طفت على سطح الأمواج المجنونة، كانت تغرق آلاف المرات ، لكن علم الذي يعلم كان فيها لذلك واصلت رحلتها.

قامت برصد و تسجيل ملايين المعلومات عن المحيط ، أين ستذهب لكها ؟ ذلك سر لا يعلمه إلا هو . لكن من المؤكد أنها لن تضيع فكل هذه العملية تدل على وجود ذكاء خارق لمخطط عبقري . هاهي غرفة العمليات تبعث بآخر التعليمات : تقفل النوافذ . تطفأ الأنوار . تغير الباخرة و جهتها، يسحب العلم المرفرف. و الآن إلى الأمام نحو جدار الضباب حيث توقف المحركات و يقطب القبطان حاجبيه و تتسارع دقات قلبه . ترى ماذا وراء جدار الضباب و لكنه ينفذ الأوامر بحذافيرها و تحط السفينة مراسيها . لانتظار مهمة أخرى.

لست أدري . كل ما أعلم هو أنه قد يأتي يوم تدرس فيه وظيفة وفيزيولوجيا الموت في كلية الطب (التي تجهل الموضوع أو تتجاهله) مثلما تدرس فيها فيزيولوجيا الهضم والتنفس . ومن ثمة سخافة الأبحاث التي يقومون بها في المختبرات بحثا عن ألا موت . هل تتصور بحاثا يدرس التنفس ليمنع وقوعه ؟ المشكلة أن هذه الأبحاث موجودة ومتواصلة وكأن بعض الخلايا ترفض الأمر وأنها تحاول تطويقه للمحافظة على كيانها ووجودها . السرطان مثلا ليس أكثر من تمرد خلايا نسيج معين على أمر الموت أو انتظاره , إذ تدخل في عملية انقسام مجنونة لا ترتبك بمخطط ولا تخضع لنظام , والنتيجة معروفة : يصاب الجسم كله بمرض قاتل , وتنسحب منه الحياة بسرعة متفاوتة وتموت الخلايا المتمردة على سائر الخلايا الأخرى , وبهذا تكون أهلكت الجسم بتمردها وخروجها على القانون دون أن تنقذ نفسها .

لكن أهم تمرد هو ذلك الذي تقوده خلايا الجهاز العصبي التي ما انفكت تحلم بالخلود ,بل وتخطط له وتبحث عنه في المختبرات العلمية . يكتسي التمرد هنا صبغة خاصة إذ يعرف أنه لا فائدة ترجى من " عباطة " الخلايا السرطانية , وإن الخلود لا يكون بهذه الكيفية , وأن على المخ أن يجد حلا يطوق أمر الموت ولا يخرقه , إذ هو بعرف القانون الذي سنه الفكر (أي حصيلة عمل من جملة الخلايا العصبية الإنسانية عبر مختلف مراحل الزمان وتباين المكان) .

والقائل بأنه لا يمكن للإنسان إملاء إرادته على الطبيعة إلا بطاعة قوانينها . كيف يمكن إذن تطويق الأمر بالموت , وهو من أهم الأوامر المبرمجة في خزينة المعلومات ؟ لا يمكن هنا أيضا التحايل على القانون خاصة وأن للإنسان استعدادات هائلة في هذا الميدان وقابلية يضرب بها المثل لخرق كل القوانين الإنسانية والطبيعية . الواقع أن هناك حلا وإمكانية يقع تجربتها في المختبرات , وأنت عزيزي إن كتب لك الخلود فربما ستخلد بهذه الكيفية. نحن الآن في مخبر بحاثين أمريكيين هما ''كنج'' و'' بريق ''نبحث معهما عن طريق ممكن .

لقد رأينا أنه بالإمكان تجميد إمكانية الانقسام عند خلية جنين والاحتفاظ بها زمنا طويلا في سائل ''الأزوط '' ثم إجبارها على الانقسام من جديد إن نحن أعدناها إلى ظروف ملائمة للحياة كالحرارة المعقولة وإن وفرنا لها السوائل المغذية اللازمة .

كما رأينا أن نواة كل خلية قادرة بدورها على صنع الجسم بأكمله لأن البرنامج الوراثي أو خزينة المعلومات في هذه النواة , معنى هذا أن بإمكان خلية قشرتك الجلدية إعادة صنعك من جديد لواستطعنا إجبار خزينة المعلومات على فتح أبوابها من جديد على مصراعيها وترجمة كل الأوامر التي تحتوي عليها .

المشكلة إذن : إجبار مواد خلية متخصصة على إعادة صنع الجسم, وقد تم هذا بفضل كنج وبريق إذ استطاعا انتزاع خلية متخصصة من جنين الضفدعة وإعادة صنع الضفدعة من جديد .

ضفدعة أخرى نسخة طبق الأصل . هل تتصور معنى هذه التجربة الرهيبة ؟ نحن بطبيعة الحال أعقد مليون مرة من ضفدعة لكن الفرق ليس أبعد من الفرق بين الطائرة البدائية التي طارت أول مرة والكونكورد أو صاروخ الفضاء . يكفي أن يكتشف الفكر بداية الحل لكي تتتابع الاكتشافات والتحسينات وبصورة متصارعة ومهولة السرعة .

تصور أننا استطعنا إجبار خلية جنين إنسان على فتح خزينة المعلومات من جديد . تصور أنك تريد أن تكفل لابنك ولابنتك الخلود كهدية عيد ميلاده الأولى يكفى أن تطلب من جراح أن يأخذ عددا من خلاياه وهو في رحم أمه (والعملية ممكنة تقنيا) وأن يحتفظ بها في سائل معين إذ أنت تعلم أن هذه الخلايا اليافعة لم تستهلك إلا بضعة انقسامات أي أنها كشريط الكاسيت في البداية .

- عندي لك مفاجأة , وهي القصة بحذافيرها : كل ما عليك أن تفعله الآن هو إخراج الخلية رقم 1 من المستودع عندما تشرع بقرب موتك وأن تتأكد من أنها دخلت في عملية الانقسام وأنها تعيد صنعك من جديد .

يالك من محظوظ , آه لماذا لم يقع الاكتشاف قبل ولادتي . تصور يا بني ستخلق نسخة طبق الأصل منك وستجيد الكاسيت عزف المقطوعة التي هي حياتك مرة أخرى لا بل مرات . لا تنسى أن لا نسختك رقم 1 أن تتأكد بدورها عندما تشرف على الموت من إخراج خلية أخرى من المستودع فقد جمعت ما لا يقل عن مائة خلية تصور كاسيت خلاياك ستعزف مقطوعة مائة مرة على الأقل , بل قل إلى ما لا نهاية , إذ سيمكنك بطبيعة الحال أن تعيد في أي وقت شئت طيلة آلاف القرون التي ستحياها أخذ بعض خلايا من أي جنين شئت . هنيئا لك يا إبن الخلود .
أغرب ما في هذه القصة (التي قد تصبح إمكانية محتملة جدا إبان القرن الآتي) ليس تحقيق الحلم المستحيل وإنما امتعاظ ابنك ، نعم امتعاظه .
ـ لكنه خلود ناقص يا أبتاه , فأنا لست جسما فقد وإنما طبع وتاريخ كونته آلاف الصدف وشخصيتي هي حصيلة عوامل خارجية لا عد لها ولا حصر , وهذه الشخصية ستموت بموتي ... ولن تأخذ شيئا من النسخة طبقة الأصل رقم 1 فالنسخة الجديدة لم تحفظ شيئا من تجربتي لأنها كاسيت فارغة , ستسجل عليها ملايين الظروف معالم شخصية أخرى قد تكون مخالفة لشخصيتي الأولى وما لها هي الأخرى أن تذهب مع الريح . أتراني , سأكون كذلك البطل الخرافي الإغريقي سيزيف الذي حكمت عليه آلهة بحمل نفس الصخرة على ظهره من أسفل الجبل إلى أعلاه بدون انقطاع وإلى الأبد .
أضف إلى هذا أنني سأكون قد خنت الحياة . ألا تعلم أنها لم تغلق إنسانا واحدا يشبه إنسانا آخر ولا حيوانا واحدا يشابه حيوانا آخر , ألا تعلم أنها تكره طبع نفس النسخة أكثر من مرة واحدة . إنها تحب التباين إنها اخترعت الجنس لكي تتمازج الخلايا فتخرج منها إمكانيات جديدة , إنها بهذا التحسن , تخترع , تألف , تجرب إمكانيات أخرى قد يخرج منها نبي , فيلسوف , فنان , أفرض أن كل إنسان جرب هذا الحل . ألن تنتهي عملية الخلق والإبداع , ألن تسيطر الرتابة على عالم الأحياء, ألن يسود الجمود . ألم تصاب الحياة بفقر الدم . بنضوب الحيوية , بجدب القريحة , هل فكرة بأننا قد نكون بهذا قد حكمنا على الحياة بالموت .
وقد تذهل وقد تصاب بهلع , وقد تتساءل بقلق متزايد أترى الفتى على حق , وعقوقه مشروع ؟ أتري أبرع المخططين على حق لما جعل هو الآخر الحياة محدودة , والتطاول على مشيئته خطيئة . أترى الهدية مسمومة ؟ لكن لماذا يصر عقلنا المحموم على الجري وراء الخلود , منذ بدأ يفكر ؟

***

الفصل السابع
في زنزانة الأبدية

السؤال المطروح : هل موت الموت أي الخلود في هذه الحياة أو حياة أخرى أمر مستحب ؟ وقد تسارع لرد بالإيجاب لكن حذار من البديهيات .
حقا لقد قال الفكر دوما أنه يرفض الموت , وكم من تصورات خيالية عبر بها عن رفضه لهذا طوال تاريخية , لكن الفكر لا يستقر على رأي لأن من طبيعته مناقشة نفسه في إطار حوار ذاتي لا ينتهي . تابع معي جزءا من تأملاته . ها هو يرد بنفسه على نفسه , يفكر , يعمل الرأي مليا في ترتبات جريه وراء الخلود , وها هو على عادته يغلف وراءه بثوب أجمل الأساطير (1) الأرض ميتة أو تحتضر في أحسن الحالات . أقفرت . جفت مآقي السماء . وابتلعت كثبان الرمل النخل في الواحات , والزيارتين في السهول ثم أتت على غابات الصنوبر في أعالي الجبال وماتت الأعشاب وكل تلك الكائنات التي كان يسميها باحتقار غبي البهائم أو الحيوانات . انتحرت الإنسانية هكذا بكل بساطة . أكلت القطة أطفالها انتحرت . لكن لماذا ؟ كان ذلك مصيرها الحتمي . كل طريق مسدود وكل طريق ذو اتجاه إجباري , وقدر كل كائن الارتطام يوما بجدار الموت . والأسباب ثانوية , لكنك ضحية عقلا تحب الأسباب والشروح والتفاسير . فهناك تفسير لتسكت . تخبطت طيلة قرون عديدة, في مصاعب لا عد ولا حصر , كانت كجسم مثخن بالجراح , لا يندمل جرح إلا وتنفتح جروح . وكان الدم يتدفق منها شلالات وأنهار ولم تكن تبخل بالدم , جربت كل الوصفات التي عرضها عليها المشعوذون والدجالون من كل حب وصوب. كانوا يعرضون عليها المرهم قائلين بعجرفة كبار المحتالين : غدا تنتهي آلامك . غدا تنهضين, غدا تبدأ حياتك . وكان المرهم يزيد في آلام , وكان الجرح ينزف أكثر مما نزف سابقا , وكانت تمرغ وجهها في الوحل وتصرخ : ... كفى . والألم المزمن كما تعلم يولد الجنون . لا داء عضال كاليأس , واليأس أول خطوة على طريق الموت اثارت حفيظة الطبيعة بصراخها الهستيري , بتشنجها المحموم المجنون , والطبيعة أم سخية عادلة, لكنها صارمة وقاسية إلى أبعد حدود القسوة . أقسى ما فيها أنها لا تتعمد القسوة , تخضع لقوانينها الجبارة , تسلم , وتأخذ منها كل ما تريد في منتهى السطوة وفي منتهى الخضوع . لكنها لا تغفر أدنى هفوة , ولا تنسى أبدا . وكانت الإنسانية السكرى بالألم تخرق القانون تلوى القانون وتحفر قبرها بأظافرها الدامية .
لكن هل انتحرت حقا أما وأدتها الطبيعة ؟ لا يهم لأن النتيجة واحدة . كان حكم الإعدام مهيأ لتوقيع وكانت الإنسانية في أعماقها راضية بالموت , كانت تريده قاطعا تحدي السيف سريعا خاطفا كالبرق . ولم تكن تريد أن تترك أثرا لتشهد بفشلها المخزي

, لذلك جندت ذكاءها الشيطاني طيلة قرون وسخرت خيرة عقولها الليالي الطوال , تفكر في الموت الخاطف وتوصلت بسرعة إلى ما تريد وتراكمت الآلات الجهنمية بسرعة مجنونة . أخشى ما كانت تخشاه أن تنسى في أدغال إفريقيا أو أحراش آسيا أو في متاهات صحارى الجليد كائنين يعيدان المهزلة الباكية , ولم تكن تخاف ذلك إلا رحمة وشفقة , لذلك أخذت كافة احتياطاتها . ولما أتي اليوم المشهود تداعت أبراج بابل, توقف الرضيع عن الصراخ , وتسمر الطير , وسكت الشاعر , ولم تورق الأشجار زمنا طويلا , والنجوم والشمس والقمر ؟ لم يبديا تأثرا بالغا. تلك لا مبالاتهم الأزلية .
وعمة السكينة الأرض وأمسكت الطبيعة بأنفاسها أمام روعة الكارثة , وبقية صامتة زمنا طويلا , ثم تجاسر أخيرا الطير وغرد بعد قرون ودخلت الذئاب المدن تبحث في الخرائب عن

---

(1) فيلم " زاردوز " للمخرج الأمريكي ج بورمان

بداية لحياة جديدة. وابتلعت الأرض الأبراج المتداعية , وهضمت كل هذا الدمل والتهمت الغابات الجبارة الصديد , وشق العشب بعد آلاف القرون طريق له عبر الإسمنت المسلح وغاصت الأطلال واحتضنتها الأم المقدسة ولم يوجد أحد للبكاء عليها . ثم خرجت من ظلام الغابات كائنات أخرى : الملاكون الجدد ؟ ونظرت إليهم الشمس بلا مبالاتها المعتادة . صارعوا إلى ملاقاة بشاعتها وهم يلهجون بحمدها ولم تغتر. كم عبدوها من قبل , هم أيضا سراب زائل . وتساءلت بخبث : أي سيناريو خططه لهم الأم المقدسة وكم من وقت سيصمدون . لكن كل الحسابات مخلوطة لم تنقرض الإنسانية ولم ينقرض معها الأمل .
حدث ما كانت تخشاه يوم أكفهر وجه السماء بقي شهود كمشة من الهمج يعيشون على أنقاض المدن الميتة يخضعونا لإله جبار اسمه "زاردوز "يأتي في شكل طير من حديد يرمي لهم بالطعام ويسلمونه أشجعهم قربانا وكان زعيمهم تلك الليلة هو المرشح لإرضاء نهم الرب الدموي . ودخل البطل فم الطير الحديدي ليموت , لكنه الطائر الحديدي أقلع ليحط به في الجنة . وذهل الصياد. كم قالوا له أنه سيدخلها وهو ميت لكنه كان يعلم أنه حيّ .
هنا يدخل الفيلم في وصف طويل لجمال " الجنة " وروعتها وسكانها الذين بلغوا درجة لا توصف من الجمال والحكمة الخ ... بالطبع لابدّ من قصة حب (لا داعي للتوقف عند تفاصيلها) كل ما يهمنا أن الحبيبة ترفض هنا حب البطل و لا تكف عن استفزازه و السخرية من رجولته ، مستثيرة غضبه و كرهه و أن سكان الجنة يعاملون بطلنا ككلب مدلل و من ثمة نتابع تصاعد نقمته و إصراره على الفرار ثم محاولته الفاشلة لتغطي حاجز شفاف لكنها أصلب من الفولاذ يمنعه من مغادرة الزنزانة الذهبية .
لنتوقف هنا عند بعض المشاهد التي ستمكننا من فهم هاجس و هو ينسج خيوط هذه الأسطورة.

المشهد الأول

لما اقتربت منه كعادتها تستفزه و تعابثه لم يتمالك نفسه.
أطبق بيديه الخشنتين على عنقها الأملس الطويل و ضحك بكامل قواه و قلب يطفح بالكره ، لكن ضحكها لم يخفت بل تصاعدت حدّته ، لم يتهشم العنف الأملس ، بقى يتحدى بوقاحة يدين تعودتا القتل منذ نعومة الأظفار، فأصبح غضبه شيئا لا يوصف، أخرج نصله الذي لم يفارقه لحظة مسددا لها طعنة هائلة بين الثديين...
و حدقت فيه لحظة بصمت و النصل مغروس في قلبها و ارتفعت قهقهتها من جديد تصمّ أذنيه... نظر إليها ببلاهة وهي تضحك. لا العنق تهشم و لا الدم تدفق من الصدر و ارتخت العضلات المتشنجة ... و بقى يردد و هو في شبه غيبوبة ...من أنتم؟ من أنتم؟ من نحن؟ نحن يا حبيبي المتوحش الخالدون.. و مضت.

المشهد الثاني

ابتسم له العجوز: يقال أنك تتجول في ربوع المستعمر كالمجنون و تصلك في يدك تهدد بها الريح ... فابحث عن سر...
ليس لنا سر نخفيه عنك ... أتريد أن أقص عليك القصة؟ لكن اعلم أنها قصة حزينة...
كنا نشعر بأن الكارثة آتية لا ريب فيها . لم تكن بحاجة إلى الكثير من الحدس. كانت السحب الداكنة تتجمع في سماء الإنسانية منذ زمن بعيد إلى أن حجبت نور الشمس عن الأرض و كنا نعلم أن العاصفة ستكون مهولة... خرجت البشرية في ذلك الوقت على الطبيعة... استهزأت بقوانينها عبثت بإرادتها الخفية و الواضحة وقفت في وجهها و من يقدر على قوانين الكون ألا صاحبه و ذاته المطلقة؟ لذلك أعددنا العدة ... للنجاة بأرواحنا. كل شيء للنجاة بذكرى الإنسانية و كنا نحسب أننا سننجح أحسن مما نجحوا و لم نع أننا من نفس الجنس الملعون . جمعنا تراث الفكر المقدس و رحلنا ... انتقينا خيرة البشر و رحلنا ... انعزلنا في هذا المكان ... و على ذلك الجدار الشفاف عند صف الشجار ماتت آخر صرخاتهم يوم انتحروا. متى كان ذلك؟ لا أدري .
هنا لا أحد يعبأ بالزمن ... كان ذلك البارحة أو منذ ألف قرن... أعدنا خلق العالم... و هنا في هذا المكان المنعزل بنينا الجنة... كما كانوا يتخيلونها في كتبهم المقدسة و أشعارهم و أحلامهم المجنونة بنيناها و لم يعد الزمن يحدنا . قلّمنا أظفارنا ... اكتشفنا السر الرهيب الذي ما انفكوا

يحلمون به منذ البداية . و لم نكن نرى في ذلك معصية . ألم تضع فينا الأم المقدسة الفضول و حب البحث و التنقيب. و صمت الرجل طويلا و مرّت سحابة من الحزن على ملامحه. قال الصياد يحثه على المضي :
لكن لماذا أنت العجوز الوحيد؟ بينهم؟...
وزادت تجاعيد وجه الرجل عمقا وقال :
- أنا مذنب والمذنب يعاقب هنا بالشيخوخة الأبدية ... تحي أبد الدهر بروماتيزم الثمانين , وأرق الثمانين , تنظر إليهم وهم يتسلقون الأدراج جريا وأسنانهم كاملة في أفواههم ... خانتك الحياة ولا أمل لك في راحت الموت ... لمن كيف أشرح لك . ستفهم يوم لكن ليس الآن ... اتركني...
وكف عن الجولان في المستعمرة كالمجنون ... إياك وإياك ... لا تخطأ كما أخطأت ... لا تقترب من ذلك المبنى ... لا تبحث عن الزمردة السوداء حتى لا تعرف أهوال الشيخوخة الأبدية .
ومضى الشيخ وبقي صوته عالقا في ذهن الصياد, لكن النبرة كانت تكذب القول . ألم يكن الشيخ يقول له في الواقع : اقترب من ذلك المبنى ودمر الزمردة السوداء ففي ذلك فرصتك الوحيدة للعودة إلى أن يأتي الحيّ وسكرة الصيد ؟
قالت له وكانت لا تتركه يبتعد عنها طويلا : حقا هناك وراء صف الأشجار ضوء القمر الحقيقي ... وغناء الطير وعضة الجوع لكنك هنا لا تجوع ولا تعطش فلماذا تحن إلى العذاب ؟
وكان كلامها يزيده إصرارا ... إصرارا على ماذا ؟ كانت هي الأخرى تقول له بعينيها : اذهب إلى ذلك المكان وأدخله فتلك فرصتك الوحيدة و ... فرصتنا . وعذبته نفس الأسئلة التي لم يكن يدري لها جوابا ... ترى ماذا يريد منه ... ماذا يريدون منه لكنهم ... لماذا أخرجه من عالمه ... لماذا دخل تلك القاعة المملوءة كتبا ... لماذا قرأ وهو أكبر الصيادين ... لماذا يستفزونه وفي أعينهم بريق من الأمل ... نعم إنه الأمل ذلك الشعور الذي يلمحه في أعينهم وهم يدللونه وكأنه كلب صيد ثمين لكنهم لا يقولون شيئا ... عندما يسأل يضحكون وكأن ضحكهم دائما شيء عجيب ... أقرب منه إلى شهيق الحزن من ذلك الانفجار المرح الذي يمزق روحه وهو يرقص فرحا حول جثة الليث والعدو وسمين الصيد ... وزاد حنينه إلى الماء البارد بعد العطش ... إلى زفير الريح في الأشجار ... إلى صراخ الصبية وهم يتشاجرون ... إلى الجري وراء الغزال ... إلى نشوة النصر وقرع الطبول .
وتأجج الحقد في صدره ضد هؤلاء الأعداء الذين لا يطولهم حقد ولا يجرحهم نصله القاتل ... لم يحرموا عليه إلا اقترابه من ذلك المبنى ... وكان خوفا هستيريا يتملكهم كلما وجدوه بقربه وفهم أن هناك مقتلهم وحريته ... ودخله ليلة وهو عازم . إنها ليلة رائعة للنصر أو للموت ...
قال له الشيخ يوما : أحذر دخول ذلك المكان الخطر فهو محرم ...
و ستتسبب لنا في كارثة إن دخلته ...
كارثة ؟ أية كارثة يمكن أن تصيب الخالدين ؟ تذكّر أنه قال : الزمرّدة هي حافظ السر ... و لولاها لانهار ذلك الجدار الشفاف الذي يفصل بيننا و بين عالم الموت ... الزمردة ... يجب أذن تدمير الزمردة ... و لم يحي منذ ذلك اليوم هو و كل الخلايا التي تشكل جسمه إلا لتحقيق ذلك الهدف ... لكن أين الطريق إليها في هذه الدهاليز . لحظة تدمر الزمردة يتهاوى الجدار الشفاف و يكون أعظم نصر على سطح الأرض ... يومها سيعود لحد النصل مفعوله و لن يعجز عن أخذ تلك المرأة الوقحة الجمال .لكن أين الطريق في هاته الدهاليز المتشابه التي لا تنتهي ؟ أغنّي : يا من لا اسم لك ... و كأنه سمع دعاءه إذ رنّت ضحكاته في أذنيه , و لكنها هذه المرة كانت تحدّق فيه بمنتهى الجدّية و في نظرتها لهب الشوق و الحب و الخوف و الأمل و علم أنه لم يعد ذلك الكلب المدلل و انه أصبح رجلا يواجه امرأة .
قالت و هي تأخذ بيده : اتبعني ... الطريق من هنا و اصبر فستعرضنا متاعب هائلة يهون أمامها كل ما عرفته من مصاعب و قد تموت , أو تحكم عليك الزمردة بالشيخوخة الأبدية ... لكــن هيّا تشجع ... أيها المنقذ .
المنقذ تبعها صاغرا ؟ لماذا أطلقت عليه هذا الاسم ؟ و لماذا رنّت الخشوع في كلامها ؟ انطلقت تقوده في تلك الدهاليز المرعبة . ضاعا معا . ثم وجدا الطريق و ضاعا من جديد ... و أحس بألم غير معقول ينهش لحمه . لمّا تأوه ضمته إلى صدرها غطته بشعرها و آسته و داعبته كما تداعب الأم صغيرها ... كان النور يعميه , و كان الضجيج يصم أذنيه فتهمس له بحبها و تغنّي له و

يصمت الألم . و كانت عزيمته تخور و هي لها بالمرصاد تقول له . تشجع ... تصل و تأخذني ... لن تعجز , لأنك فحل الفحول و أنا أحبك منذ بداية التاريخ , لم يكن شيء في هذه الدهاليز و أهوالها يذكّره بأخطار غاباته ... أين الفوق و التحت ؟ أين البعد و القبل ؟ و هل للعقول الإلكترونية مقتل حساس تحاربه بالضوء و الضجيج و كوابيس عقل مريض ؟ و هاته المرأة الوقحة الجمال التي تقول له : من هنا و ليس من هناك ... أحذر هذا و ذاك . لكن ترى من يحارب ؟ أهكذا يكون الصيد يا حبيبي ... و كان ردّها لا يتغيّر : عدونا ليس نمرا كاسرا و إنما علم الزمردة . و هو الذي علم الكون بأسره . لماذا تخون قومها ؟ ألانها تحبّه ؟ لكن الحب عطش . أيعطش الكاملون و الحب نقص ؟ أيعرف الخالدون النقص ؟ كانت تجاهد عدوا خفيا و هي تدفعه إلى الأمام ... و كانت تضحك بسعادة عند اجتياز عقبات لا تدركها إلا هي . لأول مرة لم يكن ضحكها ذلك الشيء الأشبه بشهيق الحزن ... إلا بداية وقت كاف لمعرفة أسرار الحرم .
ومع ذلك, كانت تقف مرة تلو الأخرى , وتقول له : انتظر حتى أسأل ... كانت تحدق في الفضاء وكأنها تخاطب أحد ثم تنفرج أساريرها : (تعال من هنا حتى في الجنة يوجد مؤامرات ومتآمرون لكن من هم .. لماذا اختاروه هو ؟ لو لم يقفز في "زاردوز" ذلك اليوم لما أنت مفاصله بهذا الألم الرهيب الذي لا يعرف له مصدرا .. لكنه قفز وكان مدفوعا بقوة هائلة .
قالت له بعد أن قطعا شوطا طويلا : نحن وضعنا فيها علم الكون وسر خلودنا ... أعطيناها سلطة مطلقة على أنفسنا لكننا علمناها الحذر من شهواتنا ... من طمعنا وجنوننا . ابتداء من هذه النقطة لن ينفتح باب أمام أحد منا . وابتداء من هذا الحاجز لن أنفعك في شيء ... هنا الحرم ووراءه الزمردة , والخالدون لا يدخلون الحرم ... وأنت تدخل لأنها لا تعرفك ولا تنتظرك ولا تحترز منك . ادخل الحرم وأطبق براحتك عليها . تقطع عنها النور ويعود الكون إلى ما كان عليه منذ الأزل ... وكانت تغالب زهوها وفرحا مجنونا كذلك الذي يعرفه وهو يرقص حول جثة عدو جبار . كيف وصل إلى قلب الحرم رغم عينيه المحترقتين وطنين أذنيه والصداع الهائل الذي كان يسحق عظم جمجمته ويطبق ككماشة من حديد على فكره المرهق ؟ كيف حملت قدامه ذلك الجسم وهو أثقل من كل جبال الكون ؟ أين وجد ذلك القوة الغريبة التي كانت تدفع به دفعا وتجذبه جذبا ؟ ترى هل استمدها من سحر عينيها وهي تضمه إلى صدرها وتقبله بحنان قائلة : " ادفع آخر باب وأطبق براحتك عليها ... اذهب أيها المنقذ . لن تفشل لأنك أحب الأبناء إلى أمنا المقدسة" وها هي الزمردة الآن في راحة يده ... وتتابعت الأفكار إلى عقله المسحوق بالتعب والألم . علم الكون وقدرة الخالدين في راحة يده ... حيلة الفكر البشري منذ آلاف القرون في راحة يده ... في هذه القطعة من المادة برمجوا علومهم ووضعوا أسرارهم ... وفيها يمكن سر خلودهم الوقح ... لما يطبق عليها راحته ؟ سيعيد النصل قدرة تفجير الدم من الشرايين , ولقبضته قدرة تهشيم ذلك العنق الطويل الأملس , ولن تلقيه امرأة على ظهره تعبث به وتسخر من رجولته , ولن يرتطم بذلك الجدار الذي لا تراه العين وهو يركض , ولن يقف شيئا في الوجود حجر عثرة بينه وبين صفير الريح , وتغريد الطير وخرير الماء , وسيلقيها على ظهرها ويأخذها عنوة واغتصابا وهي تصرخ باللذة . وأطبق على الزمردة ثم فتحها فإذا بها فارغة وكأنه لم يطبق أصابعه إلا على الريح , لكنه شعر بأن عالما انتهى وبأن الكون لم يعد هو الكون كما عرفه قبل لحظة . اختفت الدهاليز , واستعاد جسمه المسحوق كافة قواه . وجد نفسه وسط ساحة لا يحدها شيء إلا ذلك الصف من الأشجار بعيدا كالأفق . أجال بصره وكأنه يبحث عن شيء ... عن شخص .. عنها . لكن أين هي ؟

المشهد الرئيسي

وسمع فجأة الصراخ يتعالى وكان صراخا عجيبا : أهو صراخ اللذة أم صراخ الرعب ... ؟ هرول نحو مصدر الضجيج . كان الخالدون يركضون باتجاه صف الأشجار ... ولم يصدق عينيه ولو أنه عرفهم من أول وهلة ... الصيادون في معقل الخالدين . عرف سيوفهم ورماحهم وشعر بحدس الصياد المحنك بنشوة القتل التي تتدفق في عروقهم لكنه لم يعرف لون جلدهم وأزيائهم ولم يعرف فيهم بني قومه ... كم مرت من القرون وهو في هذا المكان ... كم مرت من القرون قبل أن ينقرض ذلك القطيع من العبيد الذي تركه ... يوم امتطى ظهر الرّب الطائر ؟
متى أنجبت الأمهات أحرارا لأول مرة ؟ متى دخلوا الغاب يبحثون فيه عن عيشهم ؟ بدل العيش على هبات السماء متى كفروا ب"زاردوز" ؟ كم مرّ من وقت قبل أن يكتشفوا الخديعة ؟ كم

أحرقوا من شاعر ونبي وفيلسوف أذنبوا بذكاء مفرط قبل أن يقدّسوهم ؟ أي خرافات نسجوها عن زاردوز ؟ وكيف قاوم الكهنة رجوع الذكاء إلى عالم الإنسان ؟ متى اكتشفوا الحاجز الشفاف وكيف عرفوا أن وراء صيدا ثمينا ؟ وتعالى الصراخ ... يقطع عليه أفكاره المحمومة .. وقف مشدوها يتفرّج ... كان الخالدون يترامون على السيوف , لم يحاول واحد منهم القرار من سنابك الخيل ... وكان الصيادون يعملون السيوف في رقابهم , والهراوات تفجر الجماجم ... وكانت جماجمهم تصدر دويا كالذي تحدثه كسارة البندق . وكانت الغواني يمزقن القميص وتعرضن الصدر العاري والنهدين النافرين إلى حد النصل وهن في حالة نشوة تمسك الواحدة بالسكين , تدفعه بقوة داخل فؤادها وتغمس يديها في شلال الدم الساخن وهي تضحك ... تفر منهم الخيل فيجرون وراءها يتدافعون تحت سنابكها وهم يتضرعون إلى الفرسان : لا تذهبوا ... لا تنسونا . وكان الصياد الهمجي يترجل يغتصب الأنثى ويطبق بيديه على عنقها الممدود وكأنه هدية أو قربان ... فتتسع الحدقتان وتعلو الوجه ابتسامة الرضا . وتدفقت ذلك اليوم دماؤهم شلالات وأنهار وكأنها ينابيع تتفجر لتروي الأرض العطشى .

كانوا يلفظون آخر أنفاسهم وكأنهم انتهوا من الوصال ... يضعون رؤوسهم على الأرض , يتوسدونها , وكأن يوما طويلا أرهقهم يضمون جذوع الأشجار كما يضم الحبيب حبيبته قبل أن يخلد إلى النوم , يستلقون على ظهورهم وجها لوجه مع السماء , وكأنهم يحلمون على الشاطئ تدغدغهم أشعة شمس دافئة , يدفنون وجوههم في الأرض المقدسة ... الأرض الطيبة الأرض الأم , وكأنهم يصلون , وأخرجه صوت الشيخ من ذهوله :

(أيها المنقذ) وكانت في صوته رنة الاحترام التي خالها من صوتها لحظة فارقته " بوركت , وتباركت الأم المقدسة التي بعثتك ... حان دوري ... لا تتركني ... اغمس نصلك في ضلوعي ... لقد طال انتظاري ولم أعد أقوى على مزيد منه " وقال له المنقذ وهو يعلم أن الشيخ لن يعصي له أمرا . " نعم . لكنك ستتكلم قبل ذلك ... ستقول لي من أنت ؟ من أنتم ؟ من هي ؟ من أنا ؟ من هؤلاء ؟ .. وما سر كل هذا ؟ قال الشيخ : لما بنيا الجنة وعرفنا سر الخلود لم نكن نعلم , أننا نتطاول على قوانين الكون . قلنا بلا روية : هنا تخلق الجنة ونصنع الخلود في مختبراتنا , ونعفر أنف الموت في التراب وحققنا أمانينا وليتنا ما حققنا ... عرفنا سرّ الأسرار أو قل سرقناه اغتصبناه من صاحبه وكنا نظن أننا غلبناه , أننا لن نموت حتى ولو كانت تلك مشيئته وكنا لا نعلم ولا ندرك مدى حمقنا . كانت الجنة حقا مكانا ممتعا في البداية . ذقنا لذة التحرر من خوف مرور الزمان . لكن قانون الكون يمهل ولا يهمل ... طردنا من عالمنا المثالي الخوف والألم والجشع والطموح والحسد والبغضاء , وغرقنا من اللذة والمتعة ... كل أنواع اللذة ... كل أنواع المتعة .. بكل مسام جسدنا تمتعنا , وبكل خلايا جسدنا ذقنا النشوة ... ولم تكن نشوة الحاسة فقط بل حاسة العقل أيضا وكانت الطامة الكبرى ... نسينا أقوال حكماء الماضي ونسينا بديهيات الكون ... لم نكتشف فظاعة الغلظة إلا بعد أن أحكمنا الوثاق وأغلقنا باب الأمل , كنا كمن يحاول خلق الظلام بلا نور والنور بلا ظلام وكنا كمن يعتقد أن لليسار معنى بدون اليمين , وأن اللذة يمكن أن تكون بدون الحرمان وأن البعد لا يتبع القبل بصفة حتمية ... نسينا ترابط الأشياء ووحدة الأضداد . وكنا نعتقد أننا أحكم البشر ونحن مجانين الكون لما ألغينا الألم . لم يعد للذة معنى . وأصبح الظلام والنور سيان لم يبق للجمال قيمة بما أننا قضينا على القبح ... واختفت الحكمة بما أننا صفينا الغباء ... أصبح الخير كلمة غثة لما انقرض الشر . ولم يعد ينظر إلى النجوم بما أن الحنان إلى المطلق تبخر ... ولم تعد بنا حاجة إلى الشعر الموسيقى تتصاعد من أوتار القيثارة , لأننا لم نعد نعرف لوعة الأسى واصبح طعم اللذة سمحا ... وتركنا الجري وراء اللذة ... كنا لا نغير ولا نتغير , ولا نؤثر ولا تتأثر تعتبرون الزمان المحدود عدوكم . واختبرنا سماجة الزمان اللامحدود ثم ترعرع فينا حنين غريب مجنون إلى الراحة ... إلى الموت ... لم يكن ذلك إلا آخر ومضات الوعي في نفوسنا . أردنا الحياة الأزلية وفهمنا مؤخرا أن الحياة يجب أن يكون هناك ألم لتكون اللذة ... واليقظة ليكون النوم ... والنور ليكون الظلام , وتحت ليكون فوق ... لماذا يحلم الإنسان منذ قديم الزمان بالخلود والأزلية : إنه حلم صبياني سخيف , وكنا ونحن أطفال أشقياء : شريرين تطاولوا عل إرادة الأم المقدسة . و كنّا كالأطفال الذين يحلمون بأكبر مصاصة ممكنة . لما نمت عقولنا صنعنا المصاصة التي كانت تحلم بها عقولنا الصبيانية واكتشفنا أن الأم على حق ... و أن المصّاصة الكبرى تصيب التخمة ...و أن تلك التي أهديناها

إلى أنفسنا هدية مسمومة . تتساءل : هل تعذبنا ؟ لن نستطيع تصور حالتنا ,أنت الذي يشقى و يفرح , يبكي و ينسى , ينام و ينهض , يجوع و يشبع , يعطش و يروى , يحيا و يموت , كانت حالة لا توصف و لا تطاق .. الزما كعلكة لبان , لم نكن أحياء و لم نكن أمواتا . لنستريح ... عالم غريب لا يوصف لأمثالك , عالم ما وراء اللذة و الشهوة و الألم و الهدف . كنا كالشوارد تدور في حلقة مفرغة اسمها الدهر نقضي دهرنا في ماذا ؟ في لا شيء ... لم يكن لنا شيء نهتم به لم يكن لنا شيء تهرب منه أو شيء نرنو إلى تحقيقه , ذلك كان طعم حياتنا أو ما نسميه حياة ... الفراغ المطلق ... والفراغ المطلق هو لاشيء لا يوصف . لا يمكن أن تقول عنه أنه رهيب لأن ذلك قد يدل على بقاء شيء من الشعور ... لم نكن كمن يحيا وسط زنزانة لا يسمع شيء فيها .. رائحة لا تتغير ... عافتها حاسة الشم . إنه شيء لا يوصف .. ولم يبق من إنسانيتنا إلا الحنين إلى الموت ..لكن كيف يموت ؟ ونحن وضعنا شر الخلود في الزمردة ... وعلمناها أن لا يتجاسر مجنون منا على تدميرها . لماذا اخترنا الجنون بالضبط ؟ ألانه الثورة المطلقة التي لا تمارى ولا تهادن ؟ ألان الجنون هو آخر معاقل النفس الحرة وأصعبها اكتساحا ؟ لماذا فهمنا أننا احكمنا الوثاق وصفدنا أرجلنا في الأغلال ... كان الأوان قد فات ووجدنا أنفسنا سجناء الزمان .
كنت أول من قال لهم : خلودكم فظاعة وجنتكم جهنم وكذبوا آذانهم في البداية وحسبوها نزوة ... قالوا : أدرس أكثر . وأسمع الموسيقى أكثر , وفعلت ذلك زمنا طويلا ... لكن الملل تسلل إلى روحي .. ببطء شديد ... هو الآخر لم يكن عجولا ... وكان مثل كل قوانين الكون يمهل ولا يهمل... وملت روحي اللذة والدرس واليقظة بلا نوم , وغالبت كسل العقل وخمول العاطفة , وكنت كمن يؤدي عملا هائلا في فضاء بلا جاذبية . كانوا ينظرون إليّ بذهول يحاولون التغلب على مبالاتهم الأزلية وأنا أصرخ في آذانهم : " نعم خلودكم فظاعة وجنتكم جهنم خلقناها بأيدينا . ألم تفهموا . إن صاحب الكون سلط علينا أفظع عقاب لأننا ارتكبنا أفظع الخطايا ؟ وحكموا علي بالشيخوخة الأبدية ... كان ذلك مكتوبا في قوانيننا وكنت أول مذنب في عالم الخلود . في البداية كان ذلك شيئا هائلا ... رجوع الألم كرجوع المطر بعد صيف حار ... وانتعشت روحي وعانقت ألمي وتمسكت به طويلا ... طويلا ... لكن الألم الذي تتبعه اللذة ... كاللذة أن لم يتبعها الألم فكرة غبية . وتجربة رهيبة ... وعانيت قرونا من التجربة الرهيبة لكني لم أيأس يوما لأنني كنت أعلم أنك ستأتي ... انتظرتك طويلا وأنا واثق أنك ستأتي ... من أين أتتني تلك الثقة ؟ من إيماني بأن الأم المقدسة ستضع حدا لهذه المستعمرة الخرقاء التي تمردت على قوانين الكون ... لا أحد يصمد أمام إرادتها , وإرادتها كانت منذ البداية واضحة أن يتبع ظلام الليل نور النهار , وأن يكون النوم بعد اليقظة واليقظة بعد النوم وان يموت الحي ... وأن يأتي الشتاء بعد الخريف , وأن يسبق الربيع الصيف . وكنت أعلم سأكون ذلك الإنسان الذي ستستعمله الأم لإعادة الأمر إلى نصابها . قلت لهم في البداية : أريد أن أدرس ذلك القطيع الذي بقي يتشبث بالحياة , كما تتشبث الحشرات بفرو الكلب ... أريد أن أدرس تطورهم في ظروف مغايرة ... سأقوم عليهم بالتجارب .. دهرا سأسلط عليهم الوباء ... ودهرا آخر سأبعث إليهم بالأنبياء ... وسأحاول أن أخلق إنسانية تموت ولكنها لا تنتحر سأخلق لهم ربا يطعمهم ويرعبهم . يعتمدون عليه في الكبيرة والصغيرة ... أريد أن أعرف تطور تلك الحاجة الغريبة التي تميز الإنسان عن بقية سكان الكون ... الحرية وحب التمرد ... كيف ومتى سيتمردون على زاردوز قالوا أنهم فهموا ؟ وخلقت زاردوز وانتظرت وتتابعت الأجيال والإنسان صاغر , يعفر بالتراب وجهه , يركع للرب الرهيب ويحيا وهو يرتعد . لكنني كنت أعلم أنك ستولد يوما تحسستهم قرونا و هم ينشبون أظافرهم في الأرض الطيبة لأنني كنت أعلم خصائصك و كنت أبحث عن المنقذ ، صفيت جيلا بعد جيل الأغبياء و الضعفاء منهم حتى أخلق جنسا لا يخرج منه إلا الأبطال و فشل الكثيرون قبلك .. و خرجت عن الطوق... دخلت الغابة و كنت أول من يدخلها منذ قرون... و صارعت الأسود و أنت تضحك ...
و كنت تركع لزاردوز و أنت تسترق النظر إلى نهود الكواكب. كانوا يتزاحمون على البضائع و أنت تنظر إليهم باحتقار... كانوا يكرهونك ... و لو كان للخالدين قدرة على الكره لكرهني الخالدون.. تلك هي حكمة الطبيعة . أمنا المقدسة ككل الأمهات محافظة ... تصنع الحركة بمقدار و السكون بمقدارين... ذلك هو التوازن كما أرادته منذ البداية... و أمنا حكيمة ... لو لم يكن حب السكون والمحافظة لالتهمت الحركة كل شيء و لأنفجر العالم ، لكنها تكره السكون و الجمود

لذلك وضعت على عاتق أمثالك و أمثالي عبء تحريكك الساكن والجامد... و هي تختارنا كما من يختار القرابين... إذ تعلم أن القطيع يكره نوعنا في كل زمان و مكان . كم من مرة اعتليت و اعتليت المشنقة، و كم من مرة عذبونا و اضطهدونا و ذبحونا و أحرقونا و سلخونا و مثلوا بأجسادنا ... أنا و أنت و كل الشهداء ، و الأم تنظر و لا تحرك ساكنا ذلك قدرنا قرابين على هيكلها. تفهم أنني أحببتك و أني لا أزال أحبك... تعهدتك ... وضعنا فيك الحقد و الكراهية و استقريناك و نحن نحبك... و كتمنا عنك حبنا و أملنا. و أردنا أن تكرهنا و أن تبحث عن مقتلنا... كنا نخشى إن صارحناك أن تبحث مثل سابقيك عن سر الخلود لا عن سر الموت، و أن ننتظر من جديد و أن تنظر معنا منقذا آخر ... و كنا معك في كل خطوة و أنت في تلك السراديب تحدق إلينا أخطارها ... كنا نعينك على المصاعب تجتازها بفضل تكاتف و تعاضد عقولنا ... كانت حربا هائلة و جبارة بيننا و بين الزمردة... و ضننا أنك لن تصل و أنك ستعود و إياها و قد أبيض فوداكما بالشيب لتعانيا معي من الشيخوخة الأبدية لكنك أظهرت مقدرة فائقة و تلك المقدرة التي شعرت بها تتفجر من شراييني و أنا أتحسسك بشعاع زاردوز.. لما أطبقت براحتك على الزمردة عدت إنسانا ، و بكيت أنا الذي لم أبكي منذ آلاف القرون... و الآن حان الوقت ... عاد الكون إلى حاله الطبيعية. ثأرت منا الأم المقدسة و بقي أن تغفر , و قد غفرت بما أننا سنعرف الراحة... كانت تجربة قاسية و كان درسا قاسيا و كنها صفحة بما أنها أعادت الموت إلينا . عاد للزمان سلطانه و أطلقت قوانين الكون من معاقلها.

قبّل الشيخ يد المنقذ بخشوع، نظر إليه نظرة الحب و الاعتراف و قال : أرهقتني الأبدية و أتعبني الخلود، كم أنا سعيد و متعب ، لكن أوان الراحة الحق قد آن ... هلم اعطني هنا . لكن تمهل ... أفعل ذلك ببطء، أريد معرفة الألم و تجربة الرهبة... أريد أن أشعر بحدّة النصل... ببرودة المعدن و هو يغوص ببطء بين ضلوعي... أرين أن أمسك الدم بيدي و هو ينفجر حرا طليقا من شراييني التي طال حبسه فيها ، أريد أن أشعر به سخنا لزجا يتدفق كالشلال ... أريد أن أشعر برأسي يتوسد الأرض الطيبة الحنون و أريد أن أملأ نظري منك , و أن تلفح أشعة الشمس لحظة من الزمن , تكون أصدق و أعمك وألذ لحظات الحياة , و أريد أن أشعر بهبوب النسيم و هو يعبث بخصلات شعري و أنا على و شك النوم .

قالت و هي تقاطع الشيخ برقة و تضع يدها على ذراع المنقذ (أنا الذي قدته داخل الهيكل و انا الذي أحببته أكثر من أي واحد منكم فنصله لي قبل كل أحد... تلك هي هديته لي و علامة حبه.

و حسم المنقذ الموقف... قرر بسرعة و لم يكن من مرد لقراره . وضع ذراعه بمنتهى الحنو حول الشيخ و نظر إليه طويلا, و غرس نصله بين ضلوع أول من قال هذا الخلود فظاعة و هذه الجنة جهنم و البقاء لإرادة صاحب الكون والمشرع الأكبر)... و ازداد وجه الشيخ إشراقا و أمسك بالنصل المغروس يتحسسه كما يلعب الطفل بهدية، و جث على ركبتيه و جثا معه المنقذ , و مدده على الأرض و أدار وجهه إلى السماء و أمسك بيده, و مات الشيخ ... و كأنه يضاجع حبيبته.

و قلت بدلال : فضلته علي هكذا ... و نظرت إلى النصل المغروس في ضلوع الشيخ و بريق الشوق يلمع في عينيها . لكنه لم يستله من مكانه , لا يريد أن يحرم منه ذلك قال (أنا و أنت و كافة الشهداء القرابين هم الذين تختارهم الأم المقدسة لكي لا يتمكن الجمود من العالم). و لا يريد أن يقتل به من قالت له في الدهاليز المخيفة و في لهجتها كل حب الكون: تصل و تأخذني لأنني أحبك منذ بداية التاريخ. أمسك بيدها و قال : اتبعيني لا أريد أن أفقدك لحظة استعادتي لك . و تبعته صاغرة . كانت جثث الخالدين تطفو على ماء المسبح و بعضها تلتصق بالأرض تعانق الأشجار و الورود و تواجه السماء في أعين ضاحكة و لم يكن على محياهم أدنى أثر للألم أو الخوف... كانت ابتسامة الرضا تزيدهم جمالا و كلن جمال براءة الأطفال ... ألم تغفر لهم الأم ؟ أليسوا بصدد النوم ملء جفونهم ؟ . لن يتخلل نومهم كابوس أسمه الخلود . أوسع الصيادون لهما الطريق و هما يتجهان نحو ذلك الصف من الأشجار و ركعوا لهما . لماذا؟ ترى أي خرافات نسجوها عنه و عن المدينة الملعونة ؟

أما زالت العجائز تذكر و تذكر كيف قفز الصياد يوما في فم الرب القاسي مضحيا بحياته؟ و كيف لم يعد الرب من يومها ؟ و كيف أعادت تلك التضحية إلى الإنسانية كرامتها كرامة الحرية وتبعاتها الباهظة؟ عبرا ذلك الصف من الأشجار الذي كان الزمن يتوقف عنده.. و ضربا في الأرض ذات الطول و العرض ... و كانت الشمس بالموعد، و كذلك الريح و النجوم و القمر و

غرير الماء و قطر الندى عند الفجر. عرفا الجوع و العطش , و عرفا الشبع و حلاوة الماء بعد الظمأ... و عرفا الحب و اللذة , كذلك الألم ، و انتفخ بطنها يوما ووضع رأسه يسترق السمع و يتخيل حياة ذلك المسافر في أغرب رحلة . و كانت المغارة باردة... و عواء الذئب مخيفا, و ارتجفا من البرد و الخوف... و خرج من الصيد خاوي الوفاض مثخنا بالجراح، و ضمدت جراحه وهي تبكي إشفاقا. و ولد الطفل, و ضحكا معا و هو يحبو , و صمتا لحظة عندما وقف أول مرة... و هرول الطفل و أمسكا به كي لا يقع , و ضحكا من خوفهما عليه... و تتابعت الأيام و الفصول حلوة مرة و هما يرتجفان في قاع الكهف و زئير الأسد النسناس يصم الآذان ... وولد طفل ثان و صرخ من الدهشة ووثب هو الآخر يوما من الأيام يمشي ... و جاء يوم آخر خرج الأولاد فيه إلى الصيد ... و أمسكت بيد أكبرهم تشدها خوفا و حنانا فدفعها بخشونة.

خرج مرفوع الرأس واثق الخطوة ، و ضحكت لدموعها البنات و اشتعل الرأس شيبا ، و ازدادت التجاعيد عمقا ، و أنّت المفاصل ووهن العظم , و احدودب الظهر و هي تقول له:" ما أحلى هذه الأيام يا حبيبي لم تقاوم و لم تتمرد ولم تتحسر يوما على شبابها الراحل و جمالها المتلاشي ... كانت تعرف أن الزمن صديق و ليس عدوا...لم تتشبث به ولم تحاول إيقاف مجراه , و كانت واثقة من حكمة أكبر المشرعين , و كان هو أيضا واثقا ... ثم جاء اليوم الموعود فقالت: حان الوقت... صبرت أكثر من الآخرين لكنني لست نادمة على شيء بفضلك عشت مرتين , قبل الخلود و بعده , و الآن آن آواني و حان دوري لأرتاح قال : " هل الوسادة هكذا تلائمك..؟ أتريد أن أغطيك ..؟ خذي راحتك قالت: فعلا . هكذا أحسن . نظرت إليه و حبّ الكون كله تجسد في تلك النظرة ... و ماتت تبتسم , و جذب الغطاء على رأسها و هو يبتسم ... و مات بعدها بيومين و لم يحزن عليها أحد و لم تعرف حضارة أبنائها تلك العادة الغريبة: البكاء على الميّت.

مغزى القصة؟ مغزاها بسيط, إن ذهبت يوما تشتري خبزا لأطفالك الجياع و في جيبك أخر درهم, و كان اليوم حالكا مكفهر الوجه عبوس قمطريرا كوجه دائنيك . إن حز الألم في نفسك و أنّت مفاصلك من التعب و إن أعياك الجري وراء الغد الأفضل... و إن كنت تحمل في صدرك هم الكون بأسره فاحذر لأنك في خطر... هاهو الشيطان يقترب منك يخفي وجهه في لحافه ... لكنك ستعرفه لأنه لا يقترب إلا من أمثالك. و في مثل هاته اللحظات سيمسك ذراعك بتلطف قدامى الأصدقاء و سيقول : (أتشتري مني الخلود في الجنة بذلك الدرهم الأخير الذي في جيبك). فكر طويلا قبل أن تقبل... مؤكد أن هناك استثمارا أحسن بدرهمك الأخير.

***

الفصل الثامن
المنـهجية

هل للفكر البشري قدرة على فهم ألغاز الكون وأسراره وعلى رأسها الموت ؟
ويتطلب الرد عل السؤال إعادة مراجعة الحسابات في كثير من البديهيات .

العلم الذي يعلم

نحن لا نفرق بين مستويين من المعرفة . فكر معي ولا تكن كخفاش أرسطو أعمى أمام البديهيات . ألست واعيا بأن هناك معرفة هائلة لدى كل الكائنات وحتى في الجماد ؟ الطير يعرف كيف يطير حتى على ارتفاع تسعة آلاف متر , وهو يجد طريقه من القطب الشمالي إلى القطب الجنوبي بدون حاجة إلى بوصلة . والجنين ؟ هل تقدر مدى عمله الهائل وهو يتطور وفق خطة مازالت أقف مشدوها أمام براعتها . كيف يعرف صنع العين والآذن والقلب وموعد الساعة ليشق طريقه إلى حياة أخرى ؟ ومن علمه يا ترى كيف يطبق فمه على لحمة الثدي ؟ وكيف يجب أن يحرك عضلات فمه لامتصاص الحليب الدافئ ؟ هذه المعرفة التلقائية هي القاعدة العامة في الكون . كل الكائنات تعرف ما يجب حتى تؤدي المهمة المحددة لها . كواسر الطير تعرف كيف تصطاد , والغزلان الخائفة تعرف كيف تتفادى مخالب الأسد . الأشجار تعرف كيف تورق أغصانها , والسحاب يعرف كيف يمطر , والبرق يعرف خطف الأبصار, والنجوم والكواكب تعرف طريقها الأزلي ولا خطر من أن تظل أو تتيه في أصقاع الكون المترامي الأطرف . حتى الجراثيم تعرف استغلال السكر لتوليد الحرارة والطاقة , والحمة هي الأخرى تعرف كيف تقتات من النبات والحيوان , كل كائن مهما بلغ من البساطة هو خزينة علم . وأنا وأنت علماء من الطراز الأول . أعرف كيف أتنفس , كيف أمشي كيف أدير وجهى يمنة ويسرة . أعرف كيف آكل كيف أهضم كيف أولد الطاقة , وأعرف أشياء أخرى لا عد لها ولا حصر . هل لاحظت أن أحدا لم يعلمني هذه المعرفة التلقائية الهائلة التي يقضى البحاثة عمرهم في محاولة فهمها ومحاكاتها , وأن أحدا لم يعلمك أنت الأخر , وأنك عادت غير واع بعمق معرفتك ومدى علمك , علمي الباطن إذن يعرف الكثير , لكني لا أعلم أنني أعلم , أو قل لدى فكرة غامضة مبهمة عن مدى عبقريته , لكنني لا أستطيع وضع يدي على " من " يعلم في داخلي أهو أنا أم أحد آخر ؟
هناك كنز هائل مكن المعلومات المسجلة في خلاياي , وهذه المعلومات هي حصيلة تجربة خمسة ملايين سنة , لا غرابة أن تكون إذن معرفة عظيمة . قد نسمى بعض الإدراك عن هذا الكنز الهائل علما , بينما الواقع أن العلم ليس في المحاولات العقلية السطحية لكشف بعض أسراره .
تكتفي جل الكائنات بهذه المعرفة المطلقة . هي ومعرفتها اللاواعية شيء واحد . القاسم المشترك بين الشوارد التي تدور في فلك نواة الذرة , والكواكب التي تدور في فلك الشمس , والعشب والزهر والحيوان البري هو أنها تعلم , ولا تعلم أنها تعلم . والعلم اللاوعي التلقائي بحر زاخر لن يقدر على احتوائه أي فكر مهما طال زمن البحث . فدماغي ودماغك جهاز التقاط ومصدر أوامر للتحرّك والتأثير على المحيط , لكنه جهاز منته , والعلم اللاواعي في الكون علم لا منته , هناك ملايين الخلايا في مخي , أي ملايين الإمكانيات المادية لخزن المعلومات وتبويبها ,لكن عدد المعلومات الممكنة والمتوفرة عن الكون اكثر بملايين المرات من عدد الخلايا في مخي وإمكانياتها المحدودة للفرز والحزن . ومن ثمة تفهم استحالة احتواء الكل في الجزء . لاحظ أيضا أن هذا العالم التلقائي رغم أهميته محدود . فأنت مثلا تعرف عبقريتك العادية في فن المشي إلى أن يأتي يوم تشعر فيه بأن يدك أو رجلك أو بصفة أعم نصفك الأيمن أصبح لا يؤدي عمله بالإتقان المعروف . تهرع إلى الطبيب فيشخص عنك مرضا ما في المخ . تفهم عندئذ بعد فوات الأوان أن دماغك كان يعرف كيف يحرك نصفك الأيمن بمنته الدقة, وأن مرضا عابرا يجعله مؤقتا جاهلا , أو نصف جاهل . بعبارة آخر استطاع المرض أي الحدث الطارئ الحد من قدرات ذلك الذي كان يعلم أحسن العلم باختفاء واضمحلال علمك التلقائي بتزايد علمك الشكلي , ستتعلم صعوبة الحصول على موعد قريب عند الطبيب , وستتعلم الخوف , وربما ستبدأ في التفلسف السوداوي , كما ستتعلم أشياء مختلفة وعادة دون قيمة عن تنظيم المستشفيات وغلطة الممرضين , صلابة قلوب الأطباء , وعدم اهتمامهم الكافي بحالتك الخ ...

ستقدر عندئذ أهمية العلم التلقائي اللاوعي الذي كنت تتمتع به , ولن تحلم إلا بالعودة إلى تلك الحالة من العمل الصامت الهادئ لإغضائك , وستفهم أن الوعي دائما وعي مؤلم . سيبدأ لحظة ظهور خلل في عملك اللاوعي هذا , ومعرفتك التلقائية الهائلة التي تشمل ميادين أكثر وأشد تعقيدا لما تتصور .
جولة مفزعة قلقة في عالم المعرفة الشكلية .أغرب شيء في الوجود هذا الخط الفاصل بين النوعين من المعرفة .

علم الذي يجهل

يقول أرسطو : " الإنسان أمام الحقائق البديهية كالخفاش أمام النور : أعمى , وهذه حقيقة أخرى ساذجة : " كل الأفكار في العالم هي وليدة الفكر . والفكر واحد وإن تضاربت نتائجه " لذلك أنا لا أقول عندما أدرس موضوعا فلسفيا معينا : الله , الكون , المثالية , المدينة الفاضلة ,الموت : هذا خطأ وهذا صواب . لا أتحزب ولا أتعصب , لا أتهيأ لتقليم الأظافر . لا أجهز المشانق , لا أعد الحطب اليابس لحرق الكفرة و إنما أكتفي بوضع أكبر عدد ممكن من التصورات و النظريات على مكتبي أجمعها من عند أرسو و البدائيين (كما نسميهم) و ربما أتقدّم بفكرة من عندي و أتذكر بحسرة وفرة الأفكار الموجودة التي أجهلها لأن علمي ناقص لأنّ عمري محدود , ثم أقول : هذه هي تصورات الفكر البشري , وهذه هي حقيقة الإنسان هذا علم الذي يجهل . لذلك تفهم بسهولة أنني غير منخرط في شيعة ما , وأنني لا أنظّر لأحد , إنما أسجل وأقول : هذا من إنتاج الفكر البشري وهذا ما أظن حاليا انه الحقيقة . كأنني أسمعك تصرخ بانفعال : النازية إذن فكرة مشروعة ؟ واعتراضك الصائب يفرض عليّ الدقة والتحديد . النازية هي الشر المطلق . ترجم : للفكر البشري قابلية التخطيط للشر المطلق . موقف الشخصية لا يهم , لأن الشر وجد قبلي , وسيوجد بعدي ولن يرى الشر عالما بلا شر , كما لن يعرف حياة بلا موت أو نورا بلا ظلام .لي في كل موضوع رأي : أتخذ موقف لكنني واع بأن الفرضية التي لا أقول بها هي علميا موجودة وستبقى موجودة ... إن الفكر يتابع الحوار مع نفسه عبر تهريج الممثلين المتقمصين لدوار يظنونها شخصياتهم الحقيقية . و من ثمة سخف الحكم المعياري على الأفكار و قلة جدواه. التناقض و التضارب ، الخير و الشر ، التعصب و التسامح... كل هذا موجود و كل هذا حقيقة ، أجمع شتى مظاهر التفكير بكل ما فيها بدون حكم معياري يفسد الرؤية، لكنك لا تريد , أنت من هواة التصنيف ترفض البديهيات أو أن يشاركك عدوك العقائدي في شرف ترجمته الحقيقية لذلك تصر على أن 1+1 يساويان 2 في كل الحالات . أليس كذلك؟ لا غلط تصر على أن 1 + 1 يساويان 2 وفي كل الحالات . أليس كذلك ؟ لا غلط يؤكد المجنون 1 + 1 يساويان 4 إذا اعتبرنا سرعة الريح . ويؤكد علماء الحساب أن المجموع آخر إن اعتبرنا كيفية آخر للحساب . لماذا ترفض تصديق المجنون ؟ تلك تجربته الشخصية . لماذا ترفض تصديق الحسابين , أنت المتعلق بأهداب العلماء ليفرزوا لك الغث من السمين تقول : لكن العلم معرفة مطلقة وهو يصنف : هذا خطأ , وهذا صواب . ألا يدل هذا على وجود حقيقة مطلقة نصل إليها شيئا فشيئا بعد الضياع الطويل في المتاهات والطرق المسدودة ؟ فكرة شائعة ومنشرة بشكل رهيب , وتشكل إحدى دعامات أسطورة هذا القرن . وسيدرسها أحفادنا بعناية فائقة كما ندرس أساطير قدماء المصريين والإغريق . وبالمناسبة هل تعرف القانون القائل : (تؤمن كل الحضارات على مر الزمن على جملة من الحقائق يكذبها التاريخ حتميا ؟ والقانون في عالم الإنسان أو عالم الطبيعة لا يحد بزمان أو مكان . أين آلهة المصريين أين علم الإغريق ؟ في متحف الحقيقة والحقيقة البشرية هي ذلك المتحف الخيالي الذي تضع فيها كل الحضارات قناعاتها المحنطة . لاحظ أنني لن أغضب من غضبك , ولن أسخط على سخطك فالبحث عن الحقيقة المطلقة موقف من مواقف الفكر تسألني : ألا تؤمن بما كتب ونزل ؟
أقول : الملاحظة تدل على وجود من يؤمن ومن لا يؤمن . تضيف : لكن ما رأيك في صحة الجدلية المادية ؟ أقول : لما مل الفكر تشكيلات فكرية قارة خلق نظرية اسمها الجدلية المادية .. والنازية والخاشية ؟ ... تلك آراء تنم عن محاولة الفكر خلق مجتمع بدائي (السلطة المطلقة – الانضباط المطلق – العدوانية المطلقة) وفشله من طبيعة الفكر أن يدخل في تجارب : بعضها ينجح مؤقتا وبعضها يفشل بسرعة , والفكر على كل حال كالريح , لا يتعلق بأغصان الأشجار ولا يحد السحاب من سرعة حركته .

والواقع الموضوعي ؟ أبوسع الفكر التمكن منه وحصره في إطار تصور ونظرية (1)
ينظر الإنسان إلى السماء فيقول إنها زرقاء , ويظن الزرقة حقيقية السماء أو خاصية ملازمة لها , لكن هذا خطأ السماء ليست زرقاء, والزرقة فيها هي نتيجة تفاعل خلايا عصبية معينة وموجات كهرمغناطيسية لا تطول معين وذبذبة معينة ... حواسنا لا تلتقط إلا جزءا ضئيلا من هذه الموجات التي تحمل المعلومات في الكون , لأن حواسنا أجهزة التقاط محدودة القدرة والفاعلية , لا تعمل ألا في إطار معين من الذبذبات . من يدري ما هو لون السماء بالنسبة لملايين الكائنات التي تلتقط موجات ذات طول وذبذبة مختلفة ؟
تتصور الفلكي إنسانا يقضي لياليه يشاهد نجوم السماء ويدرسها بالعين المجرد أو بالمرقب الذي هو امتداد لها . التصور صحيح لكنه ناقص . فعالم الفلك اليوم يدرس النجوم في عز الظهيرة وهو جالس خلف مكتبه في قاعة مكيفة أمام جهاز تلفزيون , على الشاشة خطوط , ورسوم غريبة لا تفقه منها شيئا , لكنه هو يعرف أن هذه الرموز الغريبة هي صور نجوم ومجرات وكواكب سلطت عليها أجهزة رصد تعمل داخل إطار موجات أشعة أكس , أو أشعة قاما . إن سألته باستغراب عن السر , سيقول لك ضاحكا : النجوم لا ترسل فقط فوتونات أو ما نسميه نورا , ذلك النور الذي تلتقطه العين فترى العالم كما هو , ولمنها ترسل أيضا عددا هائلا من المعلومات الأخرى , تحملها موجات كهرمغناطيسية ذبذباتها أكبر أو أصغر من ذبذبات موجات النور, وهناك آلاف متعددة تلتقط هذه الذبذبات ومن ثمة تمكن من القيام بدراسة أوجه أخرى لنجوم , من زوايا مختلفة لا تدركها العين .
معنى هذا أننا لا نرى ولا نعرف من الكون إلا جزءا ضئيلا سواء أكان نتيجة تعامل حواسنا , أو أجهزتنا الأخرى التي تشكل امتدادا لها , أو بديلا عنها في بعض الحالات , نستنتج إذن أن المعرفة العلمية ليست كما يخيل للفكر الساذج عملية تسليط شعاع من نور على مساحة مظلمة بل هي حصيلة تعامل جهاز التقاط مع موضوع . أي أن النتيجة دائما نسبية . أنا لا أرى العالم كما يراه الثعبان أو الأرنب . كذلك عن بقية الحواس هناك جزء كبير من المظاهر سيبقى إلى الأبد خارج متناول إدراكي , لأن حواسي لا تستطيع التمكن منها. لكل الكائنات بدون استثناء تصورها للعالم المرتبط بتركيبة حواسها وطبيعة مشاغلها , ومن ثمة يمكن سن قانون : ليس هناك واقع مجرد وممثلون على ساحته بل أن لكل كائن واقعه , أو أن كل واقع مرتبط بنوع الكائن الذي يتعامل معه (أنت تعرف ضمنيا أن لهذا القانون فعاليته داخل الحضارة الإنسانية نفسها . أنا لي تصوري للواقع , وللبوذي والهندوسي والراهب تصوراتهم الخاصة . الاختلافات هنا أبسط بكثير من الاختلافات بين أجناس الكائنات لكنها عادة كافية لأن تسمم حياة أناس يريدون فرض مفهومهم الخاص أو الحفاظ عليه) وتقول الفيزياء النووية المعاصرة أيضا أن العالم كما نفهمه من خلال القوانين التي نصفها دائما نتيجة تعامل الواقع مع أجهزتنا وتفكيرنا , أين أن طبيعة الأجهزة والفرضيات هي التي تحدد ضمنيا صورة العالم . وبعبارة أخرى لا يوجد لعالم أو واقع مجرد خارج عن تأثيرات الأجهزة المسلطة عليه , وبها تكون قد حسمت ذلك الجدال الأزلي الدائر بين الفكر ونفسه حول الواقع هل هو مادة مستقلة عن الفكر (النظرية المادية) أما نتيجة علم الفلك (النظرية المثالية) . نحن لا نستطيع الارتقاء إلى المعرفة المجردة عن واقع مطلق , والصورة التي تأخذها عن العالم من خلال المعادلات والآلات هي من نفس النوع (ولو على مستوى آخر أكثر تجدد) الذي تطوله حواسنا وبالتالي فهو نسبي وسيبقي دائما وأبدا .
لكن لماذا نتشاءم أو نتأفف . فمساحة الكهف المظلم الذي نتخبط فيه واسعة بما في الكفاية , أضف إلى هذا أن فيه عددا هائلا من النتوءات والدهاليز والأنفاق سنقضي العمر نتبارى في التعرف عليها وفي تحسين معلوماتنا عنها .
أقرأ تصورات قاليان في المخ فأضحك ويزداد ضحكي وأنا أتابع براهين " ديكارت" المفحمة و هو يسوقها بمنتهى الجدّية لإثبات وجود الروح في مكان معين من المخ. و مع ذلك فإن ديكارت و قاليان من نوابغ الطب و الفلسفة لكنهما أخطآ ، كذلك سيضحك أحفادنا من تصوراتنا في كل الميادين ، لكنهم سيضحكون كما أضحك، لا استخفافا أ, تهكما ، و إنما تلطفا و شفقة تماما كما يفعل كهل و هو ينظر إلى صورته طفلا ، و هو يتصور رعبه من الغول تحت اللحاف ليلة شتاء يصفر فيها الريح بقوة. المصيبة أننا لا نعرف فضيلة التواضع. و الكارثة ليست في الجهل و إنما في الغرور. نحن نخلق الكلمات و الاصطلاحات ، و نصففها في جمل و نعتقد أنها تصف الواقع ،

و الكلمة هي الطامة الكبرى لأنها تعجز عن الوصف بل لأنها تصبح بديل ما نصف. تكتسب حياة ذاتية . نخالها الحق و هي ظلّه و سرابه, كم سال من دم الإنسان من أجل اصطلاح يفسره كل واحد حسب ذوقه و مفاهيمه؟ نختلق للملائكة جنسا و نمضي نتناقش بعدها لنعرف هل هم ينتمون إلى جنس الذكور أم جنس الإناث, أغلب خصوماتنا العقائدية من هذا النوع . و لما نعجز عن إقناع بعضنا البعض نعمد إلى البديل الأوحد للعقل: العنف . نشعل الحطب اليابس و نحرق أجساد الكفرة و الملحدين ثم يأتي يوم تنقلب فيه الآية ويصبح الضحية جلادا, و تستمر المهاترة الدموية و نبقى ضحية اللغة التي خلقناها .
عابد لله لا يحب عابد "فيشنو", و عابد "فيشنو" لا يؤمن ببوذا, و تلميذ بوذا غبي في نظر عابد الجلدية المادية , و كل على كل زار , و له عدو, و عليه كاتب , كما يقول إبن المقفع . لكن الاصطلاحات كما يقول واطس, تمسك بالحقيقة مثلما يمسك الغربال بالماء.
عندما وجد الاسم وجدت التفرقة و وجد الباطل. تحتج: لكن موقفك هذا شاك؟ طبعا , الشك إحدى خاصيات الفكر و مظاهره. وتتابع : أتنكر أننا نعرف بعض قوانين الكون ؟ لا أنكر, و كيف يسعني ذلك؟ هذا يدل على أن للفكر قدرة محدودة لاكتشاف بعض أسرار الكون الموضوعية. مثلا تطير الطائرة بموجب قانون أكتشفه الفكر, كذلك أمشي على سطح الأرض و مخي يسجل كأعقد حاسبة إلكترونية كافة المعلومات التي يوفرها المحيط , و يعطي أوامره لعضلاتي بمنتهى الدقة لكي أستعلم قوانين الجاذبية بمنتهى الحكمة في ذهابي و إيابي . للفكر إذن قدرات عجيبة.
احسب معي خصائصه: الإيمان – الإلحاد- الثقة- الشك, الفشل , النجاح, العبقرية, التفاهة ... أضف إلى قائمة الخصائص ما تراه صالحا كالتعصب , و التسامح الخ...
و الآن احسب معي نتاجاته : عقائد بالعشرات + فلسفات بالمئات + كتب بآلاف + آلات حلي + موسيقى (قرع الطبل و سنفونيات براهمز و بتهوفن و ماهلر) + لوحات + رسوم الأطفال + تماثيل (بغض النظر عن تقيم فلان و فلان) + اختراعات (عبقرية كالدراجة. هنا و قع التقييم) أسلحة – حجارة مصقولة , قصر الرمل الذي تبنيه ابنتي و هي تمرح على الشاطئ.
القائمة طويلة, أضف إليها كما تعرف عن نتاجات الفكر البشري , و لا تنسى العاطفة الجياشة , و هي للفكر كالبهارات بالنسبة إلى الطعام , لكنها بهارات قوية جدا , و أسمها عرق و دم و دموع . يا إلهي كم سال من دمي الإنسان ثمن باهظ لذلك الحوار الجبار الذي كان و لا يزال الفكر يحاور نفسه. و يصاب الفكر أحيان بالدوران و يملأه اليأس و هو يرى ضياعه في الحلقة المفرغة فينشد على لسان لاتسو: الخير أن تعلم أن ليس هناك علم يعلم و الجهل بهذه الحقيقة مرض لكن الألم منه دليل الشفاء و الحكيم غير مصاب به لأنه دائم الألم و ألمه أصدق شاهد على أنه تعافى . دياناتنا , فلسفاتنا علومنا , فنوننا إلخ... تأتأت الفكر الإنساني وهو يحاول فهم طبيعية . و أوامر علم . علم الذي يعلم .
و يداهم الفكر شك مؤلم : أحكم عليه وحده بالنفي إلى الأبد في عالم الجهل؟ من البديهي أن هناك تطابقا كليا بين كل الكائنات و معرفتها التلقائية , هي معرفتها و معرفتها هي , لذلك لم تشعر الجبال الشاهقة و غابات الصنوبر و قطعان الغزلان و الكواكب السيارة يوما بحاجة إلى التفلسف و هذه بطبيعة الحال ميزة كبرى تتميز بها عن هذا الكائن الممزق الحائر الذي هو الإنسان . لماذا تصدع البنيان المتماسك عنده. و ربما عنده وحده؟ أي لماذا أصبح كائن يعلم أنه جهل , و يتعذب لجهله هذا ؟لماذا انقسم علمه إلى علمين , علم باطني لا شعوري , يربطه بجذع الكون, علم هائل يصيب آلاف المرات و يخطئ مرة , و علم واع ناقص إلى أبعد حدود النقصان , يكاد يكون جهلا فاضحا يصيب المرمى مرة و يخطئها آلاف المرات . لماذا هذا التناقض المخيف بين " الذي يعلم فيه" و يخطط بذكاء جبار للموت , (و قد رأينا أن الموت ليس جهلا بل مكتمل الأوصاف) و بين علمه الشكلي الذي يجهل لماذا يموت , و يقاوم بكل ما أوتي من قوة هذه الفكرة التي يخطط لها "الآخر "؟ لنحدد الأسئلة: من صاحب المعرفة الواعية الشكلية؟ الفكر البشري بطبيعة الحال , و هو كما قلنا واحد و إن اختلفت و تضاربت تصوراته عبر الزمان والمكان من هو "الآخر" , هذا الذي يعرف فينا , و في كل أصناف الكائنات ؟ من صاحب المعرفة التلقائية الذي جعل الموت رديفا للحياة؟ تقول المعرفة الشكلية للفكر البشري : إنه الله أو الصدفة و الضرورة و تسميه تارة المنفاخ و تارة أخرى المحرك الأول , بل و تنفي في بعض الأحيان وجوده كليا.

المهم أن المعرفة الشكلية عاجزة عن تحديد مفاهيمها عنه و أنها لا تتجاوز التشدق لبعض العموميات , و الكلمات المبهمة الغامضة التي لا تشكل إلا لتغطية لجهلها الفضح به حتى عندما تدعي التحديد و تبالغ فيه . و لا غرابة في هذا فلو كان هناك تطابق بين المعرفتين لما تخبط الفكر بين شتى الاحتمالات و لاهتدى من أول وهلة إلى الحل الصحيح , و لا شارك صاحب المعرفة في علمه, موفرا بذلك على نفسه مشقة البحث الخائب , و عذاب الحيرة و الفشل . هناك إذن نشاز , لكن هذا النشاز ظاهر العلاقة بين المعرفتين فهل يمكن أن نغوص إلى الأعماق مع الوعي الكامل (و المؤلم) بأننا لا نفكر إلا بمفاهيم و اصطلاحات المعرفة الشكلية ؟ قبل أن نقرر رأيا , يجب استعراض كل الإمكانيات المتاحة عن طبيعة هذه العلاقة الغريبة و يمكن جمعها في فرضيتين:

الفرضية رقم1 :

المخ الذي يسمح تعقيده بظهور الواعي (ثم التساؤل فالتكهن فالتصورات المتفاوتة الصحة) هو نوع من الورم الخبيث أي أن تطوره الذي يعده العلماء أمرا إيجابيا هو في الواقع تطور سرطاني . الإنسان منفي في معرفته الشكلية و قد فقد ذلك الارتباط العضوي الوثيق مع المعرفة التلقائية التي تتمتع بها كل الكائنات الأخرى من دونه . علمه محاولة يائسة لتجاوز المرض و العودة إلى ذلك الارتباط مع علم الكائن اللاوعي هذا التمزق و الضياع الذي نعاني منه في حياتنا اليومية هو الثمن الباهظ الذي ندفعه ثمنا لغلطة من غلطات الطبيعة . نحن نتيجة خطا في برنامجها إذا كان ممكنا أن نتطور بكيفية مغايرة فنبقى مثل الكائنات الأخرى ملتحمين بالأم المقدسة لا نلقي سؤالا و لا نتعذب جهلا , لأننا مكتفون بعملنا الباطني الذي يشكل امتداد لعلمها . تطور الفكر هو تطور مرضي , و بالتالي فالوعي هو الأخر شعور مرضي وابتعاد عن الأم المقدسة و عن علمها الهائل سيكون الاستنتاج الأوحد إذن هو أننا نعاني و إلى الأبد من داء عضال اسمه الانفصام أو ما يمكن تسميته بالشيزوفرينيا الميتافيزيقية , و أن كلامنا عن العالم و الحياة و الموت هو نوع من هلوسة المجانين

الفرضية رقم 2 :

هناك بين المعرفة التلقائية و المعرفة الشكلية علاقة وثيقة متينة , إذ تلد الأولى الثانية كمرحلة عليا من مراحل تطورها, و كنتاج من نتاجاتها و يكون السيناريو كالآتي :

في الكون معرفة هائلة تخلق وتبدع و تنتج بمنه الحرية, عملية الخلق هذه كلعب الطفل المرح على الشاطئ الذي يجرب كل أنواع البنايات , تاركا لمخيلته العنان... مع فارق هام هو أن الذي يعلم , يخلق تشكيلات تِثر بدورها على المحيط, بل و تتمتع بتجربة الخلق و الإبداع . معنى هذا أن هذه المعرفة خلقت الإنسان ووضعت فيه كل عبقريتها كما يضع مهندس لامع كل ذكاءه في صنع جهاز ما. و هكذا ظهر الوعي لا كحدث طارئ سلبي بل بالعكس كتجربة إيجابية متقدمة من البديهي أن المخلوق لا يمكن أن يضاهي الخالق في علمه, لكنه قادر على إدراك بعض أفكار السيناريو.ترى هل توصلت المعرفة الخلاقة التلقائية إلى صنع تشكيلات أكثر تعقيدا و أكثر وعيا من الإنسان في أصقاع الكون المترامي الأطراف؟ هذا غير مستبعد بل و ممكن جدا, لكن ترى هل الإنسان هو التجربة الأولى الخلاقة في هذا الميدان و من ثمة نجاحها , أو فشلها النسبي , فكل التجارب تعرف بعض الفشل و خاصة في البداية؟ لكنه كما قلت فشل نسبي في كل الحالات , فأنا أعلم أنني لا أعلم , و أنا أعلم أن هناك علم لن أعلمه , و أنا أملأ عيني ليلي الصيف من روعة السماء, أو أقف مشدوها أمام جمال الدنيا و روعة الحياة... و من ثمة الاستنتاج المنطقي التالي : الوعي خاصية من الخصائص التي يرنوا إلى تحقيقها " الأخر" أكثر فأكثر و من ثمة شرعية التفكير , بل و إلزاميته لتحقيق هدف من أهداف " ذلك الذي يعلم".

أي الفرضيتين أحق بالتصديق؟ أيهما أقرب إلى المنطق و العاطفة ؟

البديهي أن الفرضية رقم 1 مرفوضة منطقيا . فأنا أنني أجهل و قادر على مراجعة مفاهيمي و تجاوز تعقلي المحموم و المؤقت بصورة ما , و الفكر رغم حدوده و عيوبه واع بإمكانية وقوعه في الخطأ و قادر على مراجعة الحسابات سواء داخل تفكير حضارة أو إنسان أو في إطار هذا النقاش الذي ما أنفك يتحاور به مع نفسه في إطار تباين و تنافس وتناقض المذاهب و العقائد والفلسفات.

موقفه هذا يفرض علينا (أي على نفسه) الإيمان بأنه ليس هلوسة مجنون فالفكر المرضي عاجز عن هذه المراجعة و لا يقبل ممارسة نقده الذاتي , إذ هو واثق من تماشى تصوراته مع الواقع, بل قل إن هذه الثقة المطلقة هي أولى خصائص جنونه . صحيح أن الفكر وقع مرارا في هذا الفخ و أنه دفع ثمنا هائلا لسقوطه فيه, لكننا نعرف إن تتبعنا تاريخه على أمد طويل أنه استطاع كل مرة تجاوز العقبة و الشفاء من هذا المرض الخطير.
التفكير الشكلي للمخ البشري إذن ظاهرة طبيعية و ليست ظاهرة مرضية.
أضف إلى هذا أننا ننفر تلقائيا من هذه الفرضية و رفضنا التلقائي لهذه النظرة لهو أحسن دليل و أقوى حجة على خطأها . لماذا؟ لأن التلقائية هي خاصية من خصائص معرفة "الأخر" أو ذلك الذي يعلم فينا و بالتالي فأنه هنا هو الذي يرفض الفرضية و ليست اجتهادات الفكر الشكلي الواعي . لاحظ أيضا أننا عندما ننسب الجنون للفكر الشكلي الواعي فأننا ننسبه في نفس الوقت لمعرفة "الذي يعلم" فهو الذي خلق المخ و أعطاه قدرة فرز المعلومات عن المحيط و تبويبها, و اختلاق نظريات و تصورات تجمعها في كل متناسق ترضى عنه حاجة هذا المخ إلى النظام أي إلى معيار لم يأت به إجباريا ألا "هو" . الفرضية رقم 2 أصح إذن لأنها أقرب إلى العقل و العاطفة , وهي تفسر الظاهرة القارة في الفكر البشري أي حب البحث أو سمة الفضول ... فضول أجدادنا القردة النسناسة, تراه يبحث كأن شيئا ما ينقصه ... يسعى بتعثر, يسقط يستعيد توازنه, يتيه في السراديب و الأنفاق, يعود أدراجه. يحاول من جديد... يصل إلى طريق مسدود, لا يفتح بابا ألا ليواجه بعشرات من الأبواب الموصدة... سجين في زنزانة بلا نافذة لا يكلّ و لا يستسلم, كأنّ شيئا ما يدفعه و شيئا ما يجذبه... من يجذب و من يدفع لماذا؟ لا أدري. أذهب إلى المكتبة و راجع جملة النظريات و التصورات في كتب الفلسفة و أضف إليها هذا التصور.
- المعرفة التلقائية هي سند المعرفة الهائلة التي تتمتع بها الكواكب و الشوارد و قطعان الفيلة في أحراش إفريقيا و أسراب الطيور في السماء, إذ هي تعطي لكل موجود وجوده . و الظاهرة القارة هي عبقرية هذه المعرفة اللاواعية التي خلقت ملايين هذه الأشكال في الصخر و النبات و الحيوان التي تقف المعرفة الشكلية الواعية حائرة أمام غناها و تعقيدها المذهل . لاحظ أننا لا نعلم إلا النزر القليل عما تحققه المعرفة التلقائية من معجزات على سطح كوكبنا هذا فما بالك بما يمكن أنها حققته في أصقاع الكون المترامية الأطراف و على مر العصور. لاحظ أيضا في نفس السياق أننا نظن علمها مقصورا على خلق مستويات معينة و أشكال محددة من الكينونة كالحياة و الإحياء. من قال الذين ماتوا لا وجود لهم على مستوى ما في ذكرتها؟ من يستطيع الجزم بأن الذين يستعدون لطرق أبواب الحياة غير موجودين كأفكار مبهمة , أو واضحة في برنامجها .
- العلاقة بين معرفة الذي يعرف والأشكال المهولة العدد التي تجسم علمه هذا , علاقة وثيقة, يمكن تشبيهها بعلاقة المصرف المركزي للدولة و فروعه المتفاوتة الأهمية الفرق بين الصخر و النبات و الحيوان و الإنسان هو في كمية السوائل النقدية (عدد المعلومات و تعقيدها) المودعة في كل فرع.
لنعتمد تشبيها أكثر رومانطيقية مع التذكير بضرورة الحذر من التشابيه و المصطلحات.
أنظر على شجرة وارفة الظل و تأمل طويلا في الجذع. و الآن حدق مليا في أغصانها المتعددة المتفرعة عن بعضها البعض, و املأ عينيك من بهاء الثمار و روعة الأوراق و إن تهاوت على الأرض يوم خريف. من البديهي أن الفروع و الأغصان تستمد حياتها من تلك السوائل المغذية التي تخضها من مجار تتسلق الجذع , و من البديهي أن الجذع هو الذي يسند و يحمل و يغذي و يتعهد تلك الأغصان المثقلة بشهي الثمار.
لا أظن الأمر يختلف كثيرا في طبيعة علاقتنا بالمعرفة التلقائية. نحن غصن من شجرة. غصن جاد به الجذع, غصن من بين الأغصان.. غصن ينهل من نفس السوائل المغذية , التي تنهل منها بقية الأغصان , غصن يحمل ثمرة محددة اسمها .. الوعي.
- تفسير النشاز الذي لاحظناه بين المعرفتين ممكن في إطار هذا التصور حسب إمكانيتين ربما تكونان متكاملتين لنسمي الفرضية الأولى بالعائق الميكانيكي.
توفر المعرفة التلقائية للمخ إمكانيات هائلة ,ثم تجمع قوى الأدمغة المعزولة في إطار نسيج يتحدى الزمان و المكان فيكون الفكر البشري , و قد رأينا أنه نتيجة عمل الدماغ الجماعي

للإنسانية و لكن هذا الدماغ الجبار رغم إمكانياته, عاجز عن استيعاب كل السوائل المغذية التي ما انفك الجذع يضخها إلى فوق .
البنك المصرفي إذن غني بكل الموارد , لكن الفرع الجهوي عاجز عن استيعاب المدفوعات و تصريفها نظرا لضيق السوق المحلية, إن صح هذا الاحتمال , فلن يبقى أمام البنك المركزي خيار آخر غير توسيع الفرع الجهوي إن كان قبلا لذلك أو إغلاقه و فتح مصرف أوفر ربحا في مكان آخر , (نحن ،نأمل بالطبع أن لا يكون الجذع قد ضاق ذرعا بالغصن البشري و أنه سيوفر له من علمه الهائل ما أمكنه من تحمل الثمار المتعلقة به دون أن ينكسر).
لنسمي الاحتمال الثاني بالعائق الفيزلوجي : سبب النشاز هنا هو طموح الغصن لأن يكون الجذع , أو محاولة الفرع الجهوي اغتصاب صلاحيات المصرف المركزي و من ثمة إفلاس مشاريعه في غياب رأس مال كاف لا يملكه ألا صاحب الأمر و النهي . المسألة لا تتعلق إذن بنقص في تركيب و إمكانيات الدماغ الجماعي بقدر ما تتعلق بتجاوز صلاحيات لم تعط من طرف السلطة المركزية لأنها لا تدخل في مخططاتها .
الخطأ إذن في محاولة استخدام محرك متواضع القوة يكفي لجر سيارة للتحليق في الفضاء والتغلب على جاذبية الأرض. المضحك في الفكر الواعي هذا هو أنه هو الآخر كالهرّ يحكي انتفاخا صولة الأسد , ومن ثمة ضياعه وتمزقه وحيرته التي تعرضنا لها .
لنجمع الآن الاحتمالين في فرضية واحدة تكون كالآتي نتقي بها مهاترات لا طائل من ورائها : النشاز ناتج عن محاولة الفكر البشري التمكن من أسرار الكون وهو غير مؤهل لذلك من ثمة هلوسته وجنونه عندما يدعي أنه يتكلم مع الذي يعرف أو أنه ينطق باسمه أو أنه الابن المدلل عنده باستثناء كافة الكائنات الأخرى التي يجهل عنها كل شيء . وعن هذه الهلوسة نتج ذلك التصرف الأخرق الذي يشكل امتدادا طبيعيا لها .. العنف المدمر تجاه قطاعات من المجموعة البشرية أي تجاه نفسه وتجاه الطبيعة بمختلف أبناء الأم المقدسة وقد أدّت به هذه الاتجاهات اللافيزولوجية والتي لم تردّها القوة الخلاقة إلى كل التصورات الخاطئة والناقصة التي تملأ آلاف المجلدات . لكن الأهم من هذا هو أن الضياع ليس قدر الإنسان المحتوم وإنما مرحلة إجبارية من مراحل تطوره الفيزولوجي فالاحتجاج على الفكر الإنساني بهفواته بالقول بأنه لن يخرج أبدا من مغارة أفلاطون كالاحتجاج على الطفل بعثراته بالقول بأنه لن يمشي أبدا . بالإضافة إلى أن مثل هذا التقرير يعني التعريض الضمني للأم المقدسة , بنواياها , بعجزها عن تقويم وتصحيح مسيرة أحد فلذات كبدها , بقدرتها على تعليمه المشي , بتقاعسها عن إقالته من كبوته , بينما نحن نفترض منذ البداية أنها موفورة العلم : حسنت النية . اتضحت لنا إذن معالم الفكر الإنساني الفعال الذي سيخرجنا من الظلمات إلى النور , هو فكر متواضع في أهدافه يركز على النبوغ فالميدان الذي تخصصه معرفة " الذي يعلم " مما سيتطلب منه التفتح على الأوامر الخفية والواضحة التي تأتيه من جذع الشجرة .
المهم هنا ضبط جهاز الالتقاط على طول الموجات التي تبثها الإذاعة المركزية حتى لا تختلط الأوامر والنواهي المتدفقة منها نحو كائنات أخرى ذات مهام مختلفة . لكن الانضباط والتواضع لا يكفيانا , ذلك لأن المهمة المحددة للإنسان جبارة , فهو أكبر فرع للبنك المركزي على هذا الكوكب والأعمال المطلوبة منه تفوق بكثير إمكانياته الحالية . والدليل على ذلك أنه يشعر بصفة مبهمة بعظم المهمة الملقاة على عاتقه , ويسبق الأحداث شأنه في هذا شأن رضيع يعلم أن عليه أن يمشي يوما رغم وهن رجليه وصعوبة الاحتفاظ بتوازنه .
كيف تتطور قدرات العقل الجماعي ؟ لرد على هذا السؤال , اعتمد الفكر تطورات متضاربة . قال يوم : أن تزايد فعاليته يتطلب تحوير بيولوجيا وقال يوما آخر : المسألة أخلاقية وليست بيولوجية . وداهمه الشك أحيانا فتساءل : هل يمثل بالنسبة للمخطط الأكبر مرحلة سيقع تجاوزها , مثلما تجاوزت تجربة الإنسان فترة تكوين القرد وأي شكل سيتخذه السوبرمان , هذا الكائن العجيب الذي لم يكن الإنسان له سواء تمهيد تجربة تحضيرية وها هو رأي آخر يراوده إذ أقول أن السوبرمان موجود بيننا منذ البداية , لأنه الجنس البشري نفسه .
خذ فيلا وأعزله عن القطيع لن يتوالد طبعا لكنه يستطيع العيش داخل الأحراش والغابات , وسيعرف كيف يدافع عن نفسه , خذ القطيع بأكمله أي جملة الفيلة المعزولين , لن تتغير بصفة جذرية علاقة كل فرد منهم مع المحيط . سيأكل ويدافع عن نفسه بنفس الكيفية , لكن القطيع لن

يخلق محيطا آخر يتكاتف فيه الأفراد, إذن هناك حدود في مضاعفة قوة وقدرة كل فرد منهم على الخلق والتجديد . خذ إنسانا وعزله عن المجموعة , لن يستطيع القيام لأبسط حاجياته وقد تفترسه الفئران والقطط , بطبيعة الحال لن يؤثر هو الآخر بشيء على المحيط بل سيكون تأثيره أضعف بكثير من تأثير الفيل التائه . أول استنتاج إذن هو أن دماغه رغم إمكانياته الهائلة غير فعال في هذا الإطار اللاطبيعي . ضحوا بعد ذلك داخل مجموعة بشرية معينة مهم كانت صغيرة . سيكون إنسانا مكتمل إنسانية يعيش على التراث الجماعي وقد يضيف إليه شيئا ما , والآن أجمع التجارب التي قامت بها الأدمغة المتعددة عبر الزمان والمكان تتوارثها آبا عن جده , وتضيف إليها ما تحصل عليه من هنا وهناك سيكون ذلك الحاصل الفكر البشري .

ثاني استنتاج إذن إن هذا الفكر البشري هو وليد الدماغ الجماعي الذي يتألف من عمل أدمغة متعددة وذلك عبر القرون والأماكن والآن مه هو عدد الأدمغة التي تساهم في عملية الخلق والإبداع بالقياس إلى العدد المتوفر بعبارة أخرى ما هو مردود الأدمغة التي تشكل أوراق ذلك الغصن الوارف الملتحم بالجذع المقدس ؟ لا شيء تقريب . لا تنتج 99,99% من الأدمغة شيئا إذن .لا تخلق ولا تبدع . خذ شعبا بأكمله وأحسب ما ينتجه من عباقرة مثل ''لاوتسو'' و''شوبرت'' و''ايليا أبو ماضي'' و''انشتاين'' و''ادوين هوبل'' ... ستصدم طبعا وستقفل بغضب دفتر الحسابات . أنت لن تقبل أبدا بتسيير معمل فيه عشر آلاف عامل , ينتج منه أربعة والبقية لهم لها إلا المطالبة بترفيع الأجور ومع ذلك فهذا هو الحاصل في ميدان فعالية الدماغ الجماعي , المردود سيئ للغاية ربما تعترض بهذه الأدمغة المجمدة هي التي توفر بمجهوداتها الفرصة للأدمغة الفعالة لكي تخلق وتبدع , لكنه اعتراض سطحي ذلك لأن إمكانيات الخلق والإبداع متوافرة في كل دماغ بدون استثناء , واقتصار دماغ ما على تنظيف المراحيض طول حياة أمر غير مقبول , أنا لا أشاهد إنسانا يزاول عملا روتينيا تافها لا يتطلب مجهود فكريا إلا ويهالني تبذير الطاقات المريع . أنا لا أقول بالطبع أن خادمتك عبقرية ولكنني أدعي أننا لا نستطيع رفض هذا الاحتمال طالما لم يثبت العكس أي طالما لم نعطيها كل فرص الخلق والإبداع فهي تملك جهازا أعقد من مليون حاسوب واقتصارها على غسل الصحون وتنظيف الأرض وفي داخل جمجمتها آلة كهذه أمر غريب . كل مشاكل الإنسانية هي نتيجة هذا التبذير كل انتفاضات الإنسانية هي نتيجة رفضها لهذا التبذير , كل أسطورة آمال الإنسانية في إيجاد حل يمكن الـــ99,99% من الأدمغة المعطنة من حقها المشاركة في مغامرة الدماغ الجماعي .

أفرض أن هذا سيتحقق بعد آلاف الحروب والثورات الخ ... وإن الإنسانية استطاعت للمرة الأولى في تاريخها ربط أكبر عدد ممكن من الأدمغة في إطار شبكة جبارة تحلل مشاكل الكون (الواقع داخل صلاحيات هذا الدماغ) وتصحح من هفواتها وأغلاطها نظرا للإمكانيات الجبارة لهذه الشبكة الدماغية . ألم يحقق هذا الكائن كافة الأحلام المجنونة التي يحلم بها الإنسان منذ قديم الزمان وعلى رأسها فهم نوايا وأوامر سيد الكون والتماشي معها .

وبالانتظار ؟

نحن حقا في مغارة أفلاطون ... لكننا نخطط بالإمكانيات المحدودة للدماغ الجماعي الحالي للخروج منها . فهذا قدرنا لأنها إرادة صاحب السلطة المركزية .

معنى هذا أننا نفكر ونغلط ولكننا على الدرب السليم سائرون ونحن في بداية هذه المسيرة الجبارة , ومن ثمة جاء قصورنا الهائل والمؤقتة , وهذا الغرور الذي يفسد الرؤية أكثر مما يفسده الجهل . المشكلة حاليا مع الفلاسفة والعلماء , أنهم يضنون في أنفسهم القدرة علة اكتشاف الحقيقة المطلقة . وهم في الواقع كالموسيقيين والشعراء والرسامين... يخلقون لوحات فنية متفاوتة الجمال , لكن علاقتها بواقع '' الذي يعلم علاقة لوحة ''موناليزا'' بالمرأة الحقيقية التي أبصرها يوما ''دوفنسي' . وتفسيري الخاص للموت لا يطمح إلا لرسم لوحة تضاف إلى الأخريات . ابحث عن غيري ليصف لك المطلق .

لا تبحث إذن عن التشابه والتطابق , كل ما أرجوه هو أن تعجبك الألوان في هذا التفسير .

***

الفصل التاسع
أسطورة من الأساطير

هناك نمطان من التفكير أي فرضيتان ومنهجيتان مختلفتان للفكر البشري الواحد الأحد ومن ثمة نوعان من البشر والعقول .
- نمط أول يحاول تفسير كل ظواهر الكون وعلى رأسها الموت والشر على ضوء نظرية جامدة مقدسة يجعلها المقياس القار الأزلي والمعيار الواحد للحقيقة ولذلك تراه يحاول حشر كافة هذه الظواهر داخل الإطار وإن استعصى ذلك فسيرفض حكم الواقع حتى لا يضطر إلى التضحية بالإطار , وقد يقلم أظافرك ويجهز لك المشانق ومحاكم التفتيش إن رفضت الانصياع له لنسمي هذه الظاهرة بالنزعة المحافظة أو الأمنية للفكر .
- نمط ثان يعتمد منهجية مختلفة : إخضاع كل الإطارات الفكرية النظرية بحكم الواقع وتهشيمها وتجاوزها بمنتهى السهولة ومضحيا بها كل ما بان فيها خلل أو نقص لتفسيره وفهمه لنسمى هذه الظاهرة بالنزعة التجديدية للفكر ولنتفق مبدئيا على أن من طبيعة الفكر أن يكون محافظ ومجدد في نفس الوقت وإن التناقض والتضارب خاصية من خصائصه وإحدى وسائل استمراره وتطوره كاتب هذه السطور اختار أن يحمل وأن يترجم لنزعة التجديدية للفكر مع الوعي بأن نزعته المحافظة جزء شرعي مكون له ومتفاديا بذلك إصدار الأحكام المعيارية الساذجة والتهم التافهة التي تعود بعض حملة نمطي الفكر تبادلها متجاهلين أنه لا معنى لليل بدون نهار ولا لنهار بدون الليل , وإن التضارب والتناقض وتناحر الأضداد, كما يقول أبو العلاء من خصائص الكون الملازمة . ليست هناك مرحلة عابرة تنتهي باندثار أحد الطرفي النزاع وانتصار الطرف الآخر .
الموضوع المطروح إذن هنا هو محاولة استكشاف تفسير للموت والشر , وذلك بالاعتماد على التطور الجديد العلمي للكون كما بدأت ملامحه تتضح منذ قرابة قرن . ولنتفاهم منذ البداية على موقفين إذ سيستعصي على القارئ فهم آرائي إن لم يقبلها .
- المواضيع الفكرية التي تشغل بال الإنسان قارة أزلية ولم تندثر إلا معه : الكون , الحياة ,الموت , الجمال ... لتطور الإنسان تتصور مفاهيمه وتتغير . كذلك عن حاجيات الإنسان الروحية : الإيمان , الطمأنينة , المعرفة ... هي أيضا حاجيات قارة , وإنما تختلف طرق التعبير عنها , تتغير وتتطور بتغير وتطور الإنسان عبر الزمن .
- العلم بشتى فروعه : علم الفلك , الفيزياء النووية , البيولوجيا بمختلف أقسامها هو المدخل الإجباري لكل عقل متجدد ومجدد يبحث عن تصور معاصر للكون ومن ثمة فللإنسان مشاغله وهمومه كالموت والشر , فالعلم باكتشافاته وخاصة بمنهجيته هو حاليا أمضي سلاحا اكتشفه الفكر لتحقيق مأربه أو للمضي في البحث عنها وقد تتضح له في يوم من الأيام عيوب هذا السلاح وحدوده فيستبدله لوسيلة أرقى , لكنه اليوم بدون منازع ورقته الرابحة الوحيدة .
هنا يجب التركيز وبقوة على نقطة هامة . عند ما أقول أن علينا أن نستشف تفسيرا للموت وللشر من تصور معاصر علمي للكون فإنني لا أعني أن هذا التصور سيكون أتوماتيكيا صحيحا مائة في المائة وكيف يسعه ذلك وهو تصور علمي .
وقد لا يفهم القارئ قصدي , إن طالما تعود على الإيمان الخاشع بأن العلم مرادف للحقيقة , لكن الاعتقاد بأن كلام ما عن الكون هو الحقيقة المقدسة التي لا يمكن الجدال فيها هو من " تقنيات " العقيدة أي النزعة المحافظة الأمنية للفكر , والكلام العلمي على عكس هذا : هو تجدد , تناقض , جدال دائم , بناء فتهديم فبناء , هو حركة لا تهدأ ولا تفتر . تصوّرنا الجديد للكون ومن ثمة تصوري للموت , علمي , بمعنى أنه مرتكز على أحدث اكتشافات الفكر اعتمادا على أرقى تقنياته , لكنه قابل للتغيير , للإصلاح للتحسّن . هو إذن نقطة انطلاق , لا نهاية كاملة مكتملة فالاكتمال ليس من ادعاءات الفكر العلمي وإنما من ادعاءات العقائد التي قال في تعريفها غاندي " لغات ناقصة , يستعملها أناس ناقصون في محاربة يائسة للحديث عن حقيقة كاملة " فأضفت

أنها رغم ذلك لغات بعض الفكر في بحثه الدائم ... ومن ثمة جدارتها بكل الاحترام حتى وإن لم تكن جديرة بكل الخضوع .

الاتّون والشرار

المشكل المطروح :
إن كان الموت ظاهرة طبيعية مبرمجة داخل نواة الخلية , وإن كان الخلود فكرة مسمومة فما هو التصور الممكن علميا للقبل والبعد . وذلك في إطار التصور الجديد للكون الذي يجعل منه كائنا يولد من انفجار ضخم ويتوسع في كل الاتجاهات وتتولد من مادته كل أشكال الحياة .
وإلى حدّ الآن حار الفكر بين الفرضيتين : ابعد الموت خلود أم عدم . يقول الفكر تارة بالفرضية الأولى وتارة بالثانية , يعمل كالرقاص من الكفر إلى الإيمان , من الإيمان إلى الكفر , من الاعتقاد بشيء إلى الاعتقاد بعكسه
فالرق يتبع العبودية وهي تتبع الرق , النظام فالفوضى . الفوضى فالنظام , نمهد اليسار إلى طريق اليمين واليمين أحسن من يعبد الطريق إلى اليسار . العظمة تؤول أتوماتيكيا إلى الانحطاط ويكون الانحطاط أولى الخطوات على درب العظمة . ثم الألم . أنت تعرف أنه يتبع دائما اللذة , وأن بعد العسر يسرا , هكذا كل شيء في الكون ... ليل بعد نهار , نوم بعد يقظة .. نور بعد ظلام , هذا يبدأ كل شيء من جديد ... كذلك أقول لا داعي لتشنج في ميدان الأفكار أو في أي ميدان آخر من ميادين الحياة . كلها مسألة وقت ويبدأ الرقاص سعيه في الاتجاه المعاكس .
الواقع أن نظرية العدم استهوت الفكر وأنها شاعت زمنا طويلا في الغرب ولا تزال تسيطر على تطورات بعض الذين تركوا أساطيرهم . وهي لم توضع في إخراج مسرحية , لأنها غير قابلة للإخراج الفني نظرا لرداءتها .
فبعد حياة لا معني لها ولا هدف تلفظ نفسك الأخير ... يبتلعك الظلام وتصبح لا شيء ... تتبخر بكل بساطة . حقا تبقى لفترة وجيزة جثة هامدة يعيش على حسابها ولمدة الدود والجراثيم لكن الزمن الجبار سيهضم العظام وبذلك تنتهي مغامرتك الفاشلة . بالطبع لن تترك أدنى أثرا مهما فعلت من المعجزات , ومهما أمنت بعبقريتك . الريح لا تترك أثرا على صفحة المحيط . وحبة الرمل ليست الصحراء . اختفيت قبل أن يعي الكون بوجودك . ضاعت تجربتك , ضاع علمك , ضاع وعيك , ضاعت آلامك وأفراحك , لم يبق منها أثرا . مات الذين حملوا ذكراك بنفس السرعة الرهيبة, وابتلع بعبع الزمان كل مخلفاتك ومخلفاتهم . جربت العلم والعبقرية والقوة والذرية لتخلد , لكنك كنت كمن يريد شرب البحر , فبمقياس الزمن لم يحتل تاريخ الإنسانية من البداية إلى النهاية أكثر من عشر ثانية , ولم تشكل حياتك وحياة حاملي ذكراك إلا الجزء المليون من عشر الثانية هذه . كل شيء عائد إلى اللاشيء ... لكن الفكر يقف حائرا أمام هذا ألا شيء ... ويصاب الدوران ويتمكن منه الشك . المسألة ليست مسألة الحكم المعياري على هذا اللاشيء ... هل هو نافع أم مضر , صالح أم طالح , إيجابي أم سلبي ؟ الخ ...
وإنما هذه مسألة تماشي الفكر مع المنطق نفسه . ويتذكر الفكر ورطة مماثلة وقع فيها , لكنه خرج منها بسرعة
المكان : أوروبا أم الحضارة المعاصرة . الزمان : أواخر القرن السابع عشر . موضوع النقاش : بروز الحياة ونظرية النشوء المفاجئ .
كان لبعض البحاثة إذ ذاك رأي في منتهى الغرابة (بالنسبة إلينا) في موضوع خلق بعض الكائنات الصغيرة كالذباب أو الديدان يتلخص في أنها تخلق ببساطة من اللاشيء ... هذا بلا سبب تظهر الدودة أو الذبابة كالسمكة التي تثب من أعماق البحر , مع الفرق بأنه ليس هناك أي بحر تثب منه الدودة .
واحتدم النقاش عشرات السنين بين القائلين بهذه النظرية ومنافسهم الذين أثبت العلم صحة رأيهم, والقائلين بأن الحياة لا يمكن أن تتولد إلا عن الحياة , وإن عجز العلم آنذاك عن اكتشاف حلقة التسلسل لا يعنى عدم وجودها . وصدقت نظريتهم واكتشف العلم أن هذه الكائنات تتولد بصفة طبيعية عن أجنة حية , هي بدورها نتيجة عمل جسم حي . الخ .
ما علاقة هذا بموضوعنا ؟ العلاقة واضحة . ألا يمكن تسمية العدم بنظرية الاختفاء المفاجئ ؟ السمكة هنا لا تظهر للعيان إلا لتغوص من جديد , لكن في ذواتنا شيء نقول عنه أنه ليس البحر

وإنه لا يزخر بعلم رهيب ووجود موضوعي , لأننا لا نملك أي جهاز علمي كالمجهر أو أية نظرية علمية لتوغل في أعماقه واكتشاف أسراره وخباياه .
هناك إذن تشابه كبير في النظريتين , تقول نظرية النشوء المفاجئ أن الحياة تنتج عن الخروج من اللاشيء وأنه لا وجود لصلة سابقة بين الشكل الموجود وشيء سابق له , وإنه لا سبب منطقا لهذا البروز على ساحة الأحداث . وتقول نظرية الاختفاء المفاجئ إن الموت هو دخول اللاشيء . وإنه لا وجود لصلة مستقبلية لشكل المختفي . يبدأ الخط في نظرية النشوء المفاجئ من نقطة وينتهي في نظرية الاختفاء المفاجئ إلى نقطة .. والحياة هي خط ممدود بين عدميين لا نعرف عنهما شيئا لأنهما اللاشيء المطلق .
لكن الفكر لا يقتنع . ألم يثبت علميا خطأ نظرية النشوء المفاجئ ؟ أليس من الممكن إثبات خطأ نظرية الاختفاء المفاجئ وذلك بالاعتماد على نظرية المنطق والمنطق وحده ؟ المهم ليس أن ندخل في وصف عريض طويل لما بعد النقطة الأخيرة لأن ذلك فوق طاقتنا ولكن أن نثبت أن فكرة انتهاء الخط عند هذه النقطة خاطئة خطأها عندما نقول أن نفس الخط بدأ من نقطة النشوء المفاجئ . إنّ إثبات هذا الرأي ممكن باعتماد المنطق العلمي السليم وحده , وبدون حاجة إلى الاحتماء والتذرع بسلطة هذا النبي أو ذاك , فحجج الإثبات متوفرة في الفكر العلمي الذي يشكل دعامة أسطورة العصر .

من يموت ؟ الأنا طبعا . لولا الأنا لما أصابنا ضر كما يقول لاوتسيو . به نحيا وهو الذي يموت من هذا الأنا ؟ تقول الفلسفة الشرقية أنه وهم أو سراب . وهكذا تسقط مشكلة الموت . لكنه وهم يأكل ويهضم ويتبرز ويقاوم الموت ويكتب النظريات التي تحاول إثبات طبيعته الوهمية . لذلك لا أجد صعوبة في الاعتقاد بأن الأنا على العكس شيء " صلب " وأن وجوده الموضوعي أقوى من أن يتبخر لمجرد القول بأنه وهم أو سراب . لكن تحديد هذا الأنا خاصة عبر الزمن أمر صعب . أزن قرابة السبعين كيلو غراما وطولي متر وسبعون , ألبس نظارات سميكة . أدخن الغليون , ولي العديد من الخصائص الأخرى البدنية والفكرية. لا داعي للخوض فيها لأنها لا تهم أحد باستثناء الكاتب وبعض من أهله وأصدقائه . المهم أن " الأنا " الآن وفي هذا المكان بالضبط هو مرحلة من مراحل تطوره وشكل من أشكاله المتعددة . لو كان لأهلي في زمن طفولتي كاميرا مثلما هو الحال عند الأثرياء حاليا , ولو التقطوا لي أشرطة سينمائية إبان الشهر والسنين الأولى من عمري , ولو عرضوها عليّ وأنا في العشرين لما وجدت أدنى صلة منطقية بين " الأنا " الحالي وذلك الرضيع المضحك أو ذلك الطفل الباكي . حقا أنا أعرف أنني كنت طفلا , بل وأتذكر الشيء الكثير عن ذلك الطفل, ومازالت أقاسي أحيانا من أوهامه ومخاوفه وكوابيسه , لكنني بصراحة أتعامل مع ذكراه , بتقدمي في الزمن , تعامل الأجنبي مع ذكرى سفرة بعيدة في الزمان والمكان . الفرق بين شخصيتي وأفكاري ناهيك عن جسمي وبين شخصية وأفكار ذلك الطفل الذي كنت هو فرق هائل شاسع . لولا ترابط الذاكرة وتصديقي لما نقوله كلنا عن تسلسل مراحل الحياة لما اضطرني شيء في الوجود إلى التصديق بأن ذلك الرضيع الذي لا يزن عند الولادة أكثر من ثلاثة كيلوا غرام, والذي لا يعدو أن يكون آلة بيولوجية بدائية تأكل وتتنفس وتهضم وتتبرز وتقضي أغلب الوقت في النوم هو أنا .

ألا تستغربوا هذا الاختلاف الشكلي الهائل وهذا الفرق الشاسع بين شكلك وأنت رضيع وشكلك وأنت طفل ؟ ! والعلاقة بينك حاليا وبين الطفل الذي كنت علاقة ارتباط في الزمن , لكن تباعد الشكلين يعطيك حق الادعاء إن أردت إنك كائن آخر جسميا وعقليا .

بطبيعة الحال ستتضاءل قوة وعمق التغيرات بتقدمك في السن إذ أن الهوة بينك في السبعين وبينك في الربعين ستكون أقل عمق وأنت تنتقل من مرحلة العشرين إلى مرحلة الأربعين المهم أنك لن تتوقف أبدا عن التغير شكلا ومضمونا . متى بدأت هذه السلسلة من التغيرات ؟ يقال : يوم ولدت . وكأن حياتك تبدأ يوم الولادة . هذا مكتوب في بطاقة تعريفك, وأنت تحفظ عن ظهر قلب تاريخ ميلادك ؟ ألم يخطر على بالك أن تناقش هذه الحقيقة ؟ احترز دائما من البديهييات فهي ليست كما تظن . كانت جدتي منى لا تعرف حتى سنة ميلادها , وكنا نضحك من جهلها , كانت تقول : ولدت عام الطوفان أو عام القنطرة (أي عام ذهاب الطوفان بالقنطرة) كان ذلك حدثا كبيرا في القرية الفقيرة أرخ به الفلاحون الأحداث العظيمة ومنها ولادة جدتي , وبالتقدم الحاصل تعلمت من جملة الأشياء التي تعلمتها تاريخ ميلادي . أقول ولدت سنة كذا وشهر كذا ويوم كذا , لكن ابنتي نادية ستعرف بالضبط الساعة والدقيقة . سيأتي يوم تحتفل بعيد ميلادها وستطلب الصمت من ضيوفها . " أمسكوا أنفاسكم يا أولاد ويا بنات الساعة الآن العاشرة وإحدى وعشرين دقيقة بعد دقيقة بالضبط سأكون أتممت سنتي الثامنة عشر في هاته الدقيقة بالضبط دخلت الحياة , وتألقت كما يدعي أبي النجم في السماء التي أهداني إياها والتي أطلق عليها اسمي (وهذا بدون أدنى رخصة أو علم لسلطات العلمية) .

كانت جدتي تقول : عام الطوفان , وستقول ابنتي على الدقيقة الواحدة والعشرين . أي التأريخين أصح ؟ بصراحة أنا افضل تاريخ جدتي ففيه شاعرية أكثر والتصاقا أعمق بمجرى الأحداث .

العلاقة في تاريخها بين ولادتها وبين حدث في الطبيعة يقربها إلى الواقع أكثر من تاريخ ابنتي الجاف , كل شيء مترابط في الكون .... كانت جدتي تعلم بصفة بديهية تلقائية ارتباطها العضوي بكل ما يجري فيه لذلك لم تقسم حياتها ولم تهشمها إلى أيام وساعات ودقائق مثلما أفعل . كانت حياتها منغمسة في مجرى الطبيعة . زمانها كزمن الريح والأشجار والفصول يسيل بلا حواجز أو تقطع بين دجاجها و كلابها وغنمها جزءا متصلا بالطبيعة , جزءا منغمسا في العالم لا تتحداه ولا تعرف عذاب الغربة فيه كما أعرف , لم تكن تدري لزمن حدودا , وإنما كانت تعرف أوقاته

الملآئة : زواج , موت , ولادة , مرض , قنطرة يذهب بها الفيضان .. جفاف .. مطر أقوى من العادة .. زواج .. موت ... ولادة .. كانت كالحصاة يجرفها نهر الزمن وهي لا تقاوم حقا . كانت في تلك القرية المتماوتة جوعا على أبواب تونس تعيش كما لن نرضى بالعيش ولمنها كانت بالمقابل تحي في وفاق وانسجام مع مخططات الطبيعة وإرادتها لكن شاعرية تاريخها لبداية حياتها لا يجب أن يخفى عنا . إنها كانت تغلط غلك ابنتي التي تؤرخ لدخولها الوجود بالساعة والدقيقة فمن البديهي أن حياتك . وكل حياة . لا تبدأ لحظة إطلاق أول صرخة (صرخة الدهشة أم صرخة الرعب؟) .

يقودون السيارات في بريطانيا على اليمين ونحن نقود سيارتنا على اليسار ... والمرور ممكن في كلتا الحاليتين إذا احترم الجهلة والأغبياء القانون أي الاتفاق الضمني بيننا . حياتنا العملية رهن دائما وأبدا باتفاقنا على كل معاني المصطلحات ... الخيانة , العرف ... الكيلو غرام ... الله – الخ ... كل هذه الاصطلاحات تحمل معنى معينا نتفق عليه ضمنيا عندما نتكلم . أقول الشجرة وتفهم الشجرة وليس السيارة , وبهذا يكون التخاطب ممكن , لكن هذه الاصطلاحات لا تستنفذ الواقع .

قال لا وتسو: عندما تسكت الألفاظ تنهار الحدود . الحياة كذلك مصطلح نعطيه معنى لكنه لا يستنفد كل أسرارها . نقول عنها أنها تبدأ لحظة كذا لكن هذا مجرد عرف اجتماعي . تدعي البطاقة التي سلمتني إياها البيروقراطية أن نادية ولدت يوم 26 ديسمبر على الساعة العاشرة و اثنتين و عشرين دقيقة . أصروا على أن أسجلها في دفاترهم, و لو لم أفعل لتعرضت إلى مضايقات لا عد لها و لا حصر.

لكن كلاهما مجرّد اتفاقية ... الشكل الرسمي لتعارف اجتماعي قديم يقضي بان الحياة تبدأ لحظة الولادة, و أصبح للتعارف قوة القانون و أصبحنا نخلط بين الاصطلاح القاصر و الحقيقة المعقدة, و كأن لكلمة الشمس قدرة على حرق الجلد لكن البيروقراطية جاهلة و العرف مجرد اتفاق . أما الحقيقة فأعتقد بكثير و أبسط مما نتصوّر. من المؤكد أن حياة نادية لم تبدأ لحظة الولادة... و هذا الكلام ليس سفسطة و إنما هو علم , خروجها من الرحم ذلك اليوم كان انتقالا من مرحلة إلى مرحلة أخرى ... لا أكثر. كانت موجودة أشهرا طويلة قبل ولادتها , و كانت تحيا, و كانت حياتها سلسة من التغيرات الجبارة . كانت رحلة من أغرب و أعقد الرحلات.. كانت تصنع العينين و الأذنين و القلب و الأعضاء ... و كان علمها بتتالي العمليات و دقة الصنع علما هائلا ... كيف يمكن إذن أن نقول عنها أنها لم تكن تحيا ,أو أن حياتها تلك كانت شيئا ثانويا بينما يعرف العلم أن مصيرها كان يتقرر إبان تلك المغامرة الهائلة ؟ أنت لا تتصور براعة نادية و مهارتها و دقتها و ذكاءها الخارق و امتداد و عمق علمها التلقائي اللاوعي, و هي تنفذ برنامجا خططه لها أبرع المهندسين , كنت أهرع إلى كتبي أبحث و أنقب في فصول علم الجنين و هي تتطور , و كنت أضع رأسي على بطن أمها حتى قبل أن ينتفخ بصفة محترمة محاولا تخيل صورة هذا الكائن الذي سيغير يوما حياتي , و كنت أضحك من أمها و هي تقول لي بغضب مفتعل : اليوم ضربني (أو ضربتني) بأقدامها (ها) لا بد أنه بدأ يجد المكان ضيقا , أنه يرفس داخل أحشائي و كأنه يلعب مباراة كرة القدم . الظاهر أنه سيكون عصبيا مثل أبيه . كثيرا ما تلصصت عليه (ها) و كأنني فضولي ينظر بدون حياء من ثقب المفتاح. أضع سماعتي الطبية على بطن أمها أحاول التقاط دقات القلب . و كنت أسمع خفقانه في الأشهر الأخيرة, و تتسارع دقات قلبي و اشعر بالرهبة و الخشوع و تستقبل مخيلتي العاجزة و هي تحاول تصور علم هذا الذي يعرف , و صمته الهائل .

تقول : إذن بدأت حياة الطفلة . لحظة إخصاب خليتي مع خلية أمها وذلك بعد أن اقتنعت بأن نادية الجدة العجوز والفتاة الخجولة والطفلة المرحة والرضيع الباكي هي دائما نفس الشخص رغم تباعد الأشكال المذهل, ومن ثمة فإنه يقبل إضافة شكلها وهي على حال بويضة أخصبت منذ دقائق إلى قائمة التغيرات الجذرية التي هي قدرها ؟ الكلام علميا صحيح لأن الخلية الجديدة تحمل في نواتها برنامج التطور الذي ستعرفه نادية , لكن هل نستطيع حقا اعتماد لحظة الإخصاب كنقطة الصفر في العد الزمني ؟ لا أعتقد . تقول : نقطة البداية , وأقول : منعرجه , لأنني لا أريد أن اسقط كل الذي مهده لهذه اللحظة , كانت موجودة ضمنيا في وجودي ووجود أمها , وتبلور هذا الوجود الضمني ليصبح فعليا يوما ما , تصور انقسام خلايا نادية لكن

بالمقلوب أي تصور شريط حياتها وهو يبدأ من النهاية لينتهي عند بداية ما . هاهو جسمها يصغر رويدا رويدا ... أصبحت الآن رضيعا ولد منذ دقيقة .. تابع معي بمخيلتك الصفرة في الرحم .. اختفت شيئا فشيئا الملامح ثم الأعضاء .. نحن الآن أمام كرة لا ترى من أعلى سطحها إلا علامات الست عشرة خلية .. نابع بقية الشريط .. هاهي مرحلة ثماني خلايا ثم أربع , اثنتين .. وهنا وصلنا إلى البويضة التي بدأ منها الانقسام لكننا لن نتوقف ... ها هو الحيوان المنوي الذي يحمل في نواته خصائصي الوراثية , أي نصف خصائص نادية يتراجع القهقرى . ويخرج من الخلية التي ولجها ظافرا , وهاهي بويضة الأم التي تحمل نصف خصائصها الأخرى وحيدة . تابع الآن بمخيلتك مصير هذين الخليتين . الحيوان المنوي هو نتيجة انقسام خلية الأم الأولى التي تفرع عنها وجودها . من أين أتت هاتان الخليتان ؟ .. من انقسام خلايا ناس آخرين ستسميهم نادية بحنان : جدي وعزيزتي . الآن أطلق العنان لمخيلتك فهي ستعبر أحقابا طويلة . تتبع انقسام خلايا كل الأموات وكأنها تبحث عن منابع النيل , لكن عبر مطبات الزمن .. التوقف مستحيل ... تابع بما أنك أمسكت الخيط الذي يحاول هواة الأنساب اكتشاف تسلسله – وهم على حق – لأن الحياة خيط متصل يربط بين الإنسان الأول والأخير , وليست نقطة تعاني من وحدة موحشة في عالم لا ترابط فيه ولا تسلسل .

تسأل : هل حان لنا أن نتوقف , فقد توغلنا كثيرا في الطريق المعاكس, وضاعت ملامح نادية منذ آلاف القرون . وها نحن قد بدأنا نشبه القردة وأصناف الحيوانات الأخرى . أقول : لا , لا تتوقف تابع الطريق فكل شيء مرتبط ببعضه ... ها نحن تعدينا الإنسان البدائي .. والقردة ..

والحيوانات , الغريبة في الغابات التي تولد عنها ... الفيلم يمر بسرعة متصاعدة .. هاهو البحر الذي خرجت منه الخلية الأولى التي انقسمت عنها كل خلايا الكائنات الحية .. هنا أراك تضحك. لكن لماذا تريد أن تقف عند هذا الحد بما أننا بدأنا ؟ ... فلنتابع الطريق إلى فوق... هاهي الحوامض الأمينية تتجمع في أعماق المحيط ... وهاهي ذرات الكاربون والهيدروجين والأوكسجين والأزوت تتقارب تحت تأثيرات أشعة الشمس كل ها غني بملامح نادية ... كل هذه الحوامض والذرات حبلى بها .. لكن لا تتوقف فمازال أمامنا شوط من الطريق . هاهي الأرض تتكون تحت أعيننا المشدوهة ... ياله من منظر رائع ... أنظر , ها هي الشمس . كدت أن لا تعرفها بين كل هذه النجوم ... لحظة من فضلك . لا تترك الفيلم يتتابع بهذه السرعة المجنونة .. أريد أن أملأ نظري من كل هذه الروعة أليست هذه مجرّة "اندروماد" على اليمين ؟ ... وهذه هي مجرتنا وطن ناديا الصغير ترى هل سيأتي يوم تقارب فيه أبطالنا مع أبطال مجرة اندروماد في مباراة كرة فضائية ؟ اختفت ملامح السماء التي نعرفها , ذابت و تبخرت .. أهذه هي مرحلة سحب الغازات التي نشأت منها المجرات والنجوم والكواكب ... اختفت ذرات الكاربون والأزوت والأوكسجين . لم يعد في الكون إلا ذرات الهيدروجين ترى أين الذرات القليلة التي سيتكون منها جسم نادية في كل هذا الخضم ؟ مؤكد أنها هنا ... فكل اللمسات الموجودة , لم يبق إلا تجميعها وفق مخطط أبرع المهندسين ... وتسألني بخبث , أنقف هنا أم مازلنا في منتصف الطريق ؟

أرد : من الآن تصبح الرؤية تكهنا ... لا أعرف ماذا سبق . يقول بعضهم : إن كل شيء بدأ من الذرة الأم ... وأنها كانت شيئا لا يدركه العقل ... راجع نظريات موضوع علماء الفلك في موضوع البداية المطلقة . المهم أن تقتنع أن نادية وأنا وأنت وكلنا كنا موجودين يوم ولادة الكون . كانت نادية موجودة , كانت مجرد إمكانية فكرة غامضة... احتمال ما بين ملايين الاحتمالات... و تطورت هذه الفكرة واختمرت كما تختمر في قريحة الشاعر و الموسيقى.

لنعتمد الآن طريق الإياب ,الآن تتتابع اللمسات على اللوحة الكونية هاهو الفنان العبقري يمزج بالألوان , و يخلق الصور و الأشكال . ترى هل له فكرة محددة عما يريد ؟ لا أظن , فالفنان يخلق بمنتهى الحرية , لا يتقيد بقيود, يترك لمخيلته حرية قيادة اليد... بدأت الأشكال تظهر على اللوحة... شرار الانفجار الهائل .. ساحب غاز الهيدروجين , مجرات النجوم . فكواكب تسبح في فلك النجوم ... حوامض أمينية تتجمع في قاع محيط . يا الروعة .. يا البهاء . ترى عما يبحث الفنان العبقري؟ أيتابع حلما أو شبحا أم هو يمرح و يلهو كالطفل على شاطئ أبدي ؟ بدأت بعض ملامح اللوحة تتضح.. هاهي الحيوانات الأليفة و نجوم السماء التي أعرف أسماء البعض منها ... نهر الحياة يتدفق من أعالي الجبال هاهي مختلف الفروع المتواضعة بمائها العذب الرقراق تصب في الروافد الرئيسية... لماذا تريد أن تقف في مكان ما من مجرى النهر لتقول هنا

بدأ النهر أو هنا بدأ الماء ؟ ... أنظر , ها قد بدأت التحضيرات لبروز نادي على ساحة الحياة و أنا الآن أعرف اتجاه النهر ... كل هذه المناظر أعرفها.. هاهي صورة نادية تتضح شيئا فشيئا و كأنها تبرز على صفحة فيلم تم تحميضه في اللحظة ... هاهي ملامحها, عيناها الضاحكتان بعد لحظة ستنطلق صرختها القوية التي تحييّ بها ولادة الفجر. هاهي تتغير و تتخذ لها أشكالا غير تلك التي لم أعرفها و أنا أتابع تصور اللوحة و تعقيدها الهائل المتصاعد... من قال: إن ناديا سمكة وثبت من جوف بحر العدم؟ كانت فكرة من أفكاره و لحنا من ألحان أغنيته لوحة من لوحاته كانت حيّة منذ الأزل , حية منذ أن كان حيا تقول : سفسطة و أقول : بل هو علم .. فالقانون البيولوجي يسن : كل خلية من الخلايا نتيجة انقسام و بعبارة أخرى فأنت حي منذ بداية الحياة و أنت لم تعرف الموت أبدا. و كنت تتقمص أشكالا مختلفة. ذلك هو السر . على فكرة هل فهمت الآن سبب حنينك للنجوم و شوقك إليها . أليست جذع الشجرة المقدسة التي تشكل غصنا منها . تحتج : لكن ما دخل انقسام الخلايا في حياة الأنا و موت الأنا . أنت تتكلم على صعيد البيولوجيا لكن الذي يهمني هو الأنا .. أفكارها ... مشاعره , مخاوفه , طموحاته , آلامها ... نادية هي ناديا المشاعر و التجارب, تلك هي ذاتها الحقيقية التي ستتألم بها و لأجلها . نادية لم تعرف نفسها إلا على شكلها الحالي . و هو الشكل الذي سترهب ضياعه لحظة الموت , وهو أنا فريد... وحيد, أقول : الأنا هو حصيلة نفس التاريخ الكوني .. لحظة من لحظاته و الغلط كل الغلط في تجزئة زمان لا يتجرا.... زمان كل شيء فيه ترابط و تسلسل . الروح والجسم هما وجهان لنفس قطعة النقد تحليلنا عن أزلية المادة التي تكونت منها نادية- حتى و إن تباينت الأشكال التي اتخذتها-

هو نفس التحليل إن أردنا تتبع تاريخ ما نسميه بالذات أو الأنا .

تصوّر أننا نرميها يوم ولادتها في جزيرة مقفرة بمعزل تام عن كل التأثيرات , وأفرض أننا نستطيع أن نوفر لها الغذاء والماء حتى لا تموت . لن تكون إنسانا طبيعيا لن تنطق بلغة ولن تشعر بما يشعر به حيوان معزول عن محيطه في حديقة الحيوانات . ضع مع شخصا واحد يغذيها بفكره وتجاربه- أي في الواقع بحصيلة كل الذين علموه واثروا عليه- ستكون شخصيتها قريبة الشبه بشخصية ذلك الإنسان. والآن ضعها في كنف أبويها بعيوبهما وحسناتهما , ستجد نادية في الشخصيتين كل اللبنات اللازمة لتكوين شخصيتها . أضف إلى هذه التأثيرات دور الأساتذة والمعلمين والكتاب الذين ستعجب بهم . لم تستطيع بسهولة التمييز والتقييم للأدوار التي تلعبها نادية تحت تأثيرهم . من البديهي كذلك أن " الأنا " نادية لن يتطور بنفس الصفة وسط مجتمع عبودي متأخر يحتقر المرأة ويكبلها بقيوده , أو وسط المجتمع المتقدم لا يفرق بين إنسان أنثى و ذكر . كل هذه الظروف هي بطبيعة الحال حصيلة تاريخ معقد .

غير حرفا من كتابه وسيتغير مصير " الأنا " نادية الذي تحسبه ذاتا مستقلة ... أفرض أنهم قتلوه وهو مختبئ في الغار لأن العنكبوت نسيت ذلك اليوم أن تنسج خيوطها . تصور التغييرات الهائلة التي كانت تحدث في تاريخ البشرية , وفي حياة نادية بالضبط لا إسلام , لا هجرة العرب إلى مشارق الدنيا ومغاربها فلا لنزول بنى سليم في تخوم صحراء تونس . ولا يجوب أجدادي الفيافي على ظهور الجمال , ولا والدي ولا أنا ... ولا نادية .. لكن يمكنك أن تأخذ أي حدث تاريخي آخر ... تصور لو هزمت قرطاج روما , أو أي احتمال آخر يجعل التاريخ يتخذ له سبيلا غير الذي نعرفه , ومن يدري ماذا كان يحصل ؟

أنت لا تقدر مدى ارتباط حياة نادية ومصيرها بحياة ومصير كل الذين سبقوها . أولئك الذين نقول عنهم : أنهم ماتوا وانتهوا وهم أحياء فينا ومن خلالنا يؤثرون في مجرى حياتنا أكثر مما يؤثر فيه الكثير من معاصريك الذين تظنهم أحياء وهم في بعض الأحيان أموات لا يرزقون .

قال ايليا في وصف وجودهم هذا وفي امتداده عبر مطبات الزمن :

هم في الشراب الذي نحتسي وهم في الطعام الذي نأكل
وهم في الهواء الذي حولنا وفي ما نقول وما نفعل
فمن حسب العيش دنيا وأخرى فذا رجل عقله أحول

من البديهي أنك لا تستطيع فهم " الأنا " نادية بمعزل عن الاقتصاد عن الثقافة التي تشبع بها أهلها , أي في الواقع بمعزل عن تاريخ الحضارة بأكمله . صحيح أن التأثير بناء سور الصين الأعظم على مصير نادية غير واضح , لكنه موجود ولو أن لوجوده تأثيرا ضعيفا للغاية .

يقول علماء الذرة بوجود قوى ضعيفة وأخرى قوية تحفظ لذرة شكلها وتماسكه . مصير الإنسان مرتبط بتفاعل قوى ضعيفة (تاريخية بعيدة) وقوية (اجتماعية – اقتصادية – ثقافية) .
هذا " الأنا " إذن لحظة من لحظات تطور الفكر وليس ذلك الكائن المتماسك المستقل الذي تعتقده . صحيح أن له طريقة في تصنيف وتبويب وتفسير كل التأثيرات التي يعرفها , وأن له بعض الخصائص الوراثية البيولوجية التي تعكس بصفة معينة (تميزه عن " الأنا " المجاورة) تلك التأثيرات . صحيح أنه يولد لو حافظ على تماسكه ووحدته , لكنه موقف سطحي . ماذا لو رفضت السحب أن تمطر , والثلوج أن يتدفق منها النهر ؟ قدر الأنا أن تتبلور لحظة من لحظات الفكر , أن تتجمع ذرات من ذرات الكائن وفق تشكيلة عبقرية , وقدره أن تتفكك التشكيلة من جديد وهو بهذا كقطعة سكر تجمعت في قالبها المعروف بعد طول بحث لتذوب في الماء من جديد حتى يمكن استعمالها في مهام أخرى.
علميا , العدم الأول غير الموجود ... ماذا عن العدم الثاني ؟ هل سينقطع الخيط فجأة , هل سيسقط النهر في هاوية مظلمة بلا قاع نسميها الموت ؟ الاعتراض الأول الذي يتبادر إلى الذهن هو سخافة هذه النهاية إن نحن أخذنا بعين الاعتبار كل المجهودات الجبارة التي بذلتها المخيلة العبقرية لخلق ما خلقته من لوحات وتماثيل وأناشيد وقصائد شعرية, فيها مقاطع احسن من الأخرى , وفيها مقاطع لا يستقيم وزنها , أو فيها نشاز كبير , بيد أنها كلها نتيجة بحث طويل وصبر يتعامل مع الأبدية .
أمن الممكن أن يكون الموت هو لحظة غضب المؤلف فإذا به يمزق كل ما كتب للبداية من جديد ؟ لنواصل تتبع الخط أين تركنه , ولنعتمد على المنطق ونتائج العلم في تدعيم موقفنا دون أي مصدر آخر . من البديهي أن نادية لا تدخل العدم مثلما لم تخرج منه . نقول مات فلان رحمه الله الخ ... ونؤبنه في خطب طويلة بليغة إن كان صاحب مال أو جاه . لكن ما معنى هذا القول , هل تبخر ؟ هل سقط في هاوية بلا قاع ؟ لا بالطبع . على الصعيد الاجتماعي يمكن القول أنه لم يعد ناخبا (في الديمقراطيات الحقيقية على الأقل) ولم يعد مطالبا بدفع الضرائب (ارتاح منها المحظوظ) , وخصم من قائمة المتقاعدين وأضيف اسمه إلى قائمة الأموات بعد أن أمضى الطبيب شهادة تثبت أنه توفي بصفة طبيعية الخ . هناك إذن خلفية اجتماعية هامة لعملية الموت تشمل الناحية البيروقراطية لا يعنى انتهاء وجود هذا الذي نقول عنه إنه موت .
لن تتبخر نادية عند موتها , سيمر شيء منها إلى أطفالنا سينقسم النهر عنها إلى جداول لا تتفرع إلا لتتشابك من جديد وسيمر الماء المتدفق منذ بداية التاريخ من أعالي جبال الزمن الشاهقة عبر كل هذه القنوات , ستحمل خلاياها فكرة الفنان المبدع وستتطور أفكاره عبر الأشكال التي ستخلفها نادية, وشخصيتها هي الأخرى لن تتبخر , وستستطيع بصفة أو أخرى التأثير على كل ما حواليها , من يدري عمق وقوة هذا التأثير المهم . إنها ستؤثر وسينتقل جزء من " أناها" إلى أبنائها أو تلاميذها وربما إلى عدد كبير من الناس إن أجادت وأبدعت و حققت الأماني التي وضعتها فيها الحياة , ستذوب قطعة السكر ولكن السكر لن يختفي . ستغير حالتها , وهي لن تفعل منذ بداية الكون سواء تغيير شكلها , ذرات هيدروجين تسبح في الفضاء اللامتناهي ... مادة ... خلية بدائية تتطور وتتعقد وتتفرع بسخاء مذهل .. جنين .. رضيع .. طفلة .. كهلة .. عجوز .. ومن جديد إلى أشكال أخرى . لكم ماذا ...
إن كنت من القائلين بأن الموت عدم فتنفعل هنا صرخا : لا تعجل علي بأشكالك نسيت المرحلة الهامة .. نسيت الميت في قاع القبر والدود ينخر في الأحشاء ماذا تفعل بهذا الرمي ؟ ..
أقول : الحياة أكثر عبقرية مما نتصور , ووسائلها في تقصي أهدافها وتحقيق برامجها ولا تستنفذها مخيلة , ولا يحيط بها عقل . ترى هل الجسد الميت هو بمثابة ذلك الثور المتخشب المتحجر الذي تخلعه بعض الحشرات وكأنها تخلع رداء ضاق عنها لتنطلق منه حية متجددة ؟ يسمون العملية في علم البيولوجيا في علم التجدد , ذلك لن الثوب المخلوع كان جسدا حيا بالمعني المعروف للاصطلاح. هل هذا الرميم الذي يتركه الميت في قاع القبر كآخر أثر من آثار وجوده ؟ هل هو كما تخاله شيء يكاد يكون لا شيء أم هل أن له أهمية لا نقدرها ؟
من اغرب النظريات العلمية التي تقرأها والتي جعلتني ألقي هذا السؤال العجيب نظرية للعالم الفرنسي شارون (2) والرجل ليس فيلسوفا بل اختصاصي في الفيزياء النووية . إنها نظرية طريفة والمهمّ فيها بحث الفكر البشري عن إجابات بلغة العصر عن أسئلة أزلية ولا قدرة لأحد

على التأكّد مما نقول في هذا الميدان إنما المهمّ مواصلة الحديث . هذا الرجل يؤمن مع الكثيرين من علماء العصر بأن عالم المادة أعقد بكثير مما نتصور وأنها ليست تلك اللبنة الغبية التي افترضها علم القرن التاسع عشر , بل على العكس إنها متشبعة بالفكر أي أنها تفكر وتخطط وخاصة أن لها ذاكرة تحفظ كل تجربة ولا تنسي شيئا مما تحفظ , وإن هذه الذاكرة العجيبة موجودة داخل الشوارد Electrons التي تدور في فلك نواة الذرة كما تدور الكواكب في فلك الشمس كما يؤكد على أنها تخضع لقوانين خاصة غير القوانين التي تعرف النواة . الواقع أن هذه النظرية تسهل علينا فهم كيف يمكن أن تنفجر الحياة بروائعها المذهلة من تمازج وتجاوز لبنات نعتقدها غبية . تقول الفلسفة المادية إن سمفونية الحياة هي نتيجة الصدفة والضرورة, لم يكتبها أحدا ولم يخطط لها أحد ولم يمرن أحد عازفيها على إتقان العزف . فكيف نفسر الظاهرة ؟ خذ غبيا لا يعرف العزف ضع بين يده كمنجة , وضع غبيا آخر بجنبه أطرش أعمى وأعطيه كمنجة أخرى , ثم أضف ثالثا ورابعا وخامسا الخ ... جرب الجمع بينهم حسب أي تشكيلة : لم يعزفوا أي قطعة تطرب لها الآذن وينتشي بها الفؤاد . لن يألفوا سمفونية شيء واحد وإن الإبداع يتطور عبر الزمان ... ستختفي المعضلة وسيصبح كل شيء مفهوما . هذا بالضبط ما يقوله شارون الفيزيائي . للمادة منذ البداية قدرت على خزن المعلومات داخل الفضاء المغلق لشوارد وقدرة استعمال هذه الذاكرة لتأثير على المحيط . بمرور الزمن تتزايد المعلومات التي تسجلها هاته الذاكرة الكاملة المكتملة وتتزايد المفاعلات بين مختلف الذرات . وعن تفاعلها المتصاعد التعقيد يكون وجود الموجودات . ذلك هو التفسير المنطق لأعجوبة الحياة . فالمادة إذن ليست مخلوقا جامدا خلقه فكر مستقل يخلق بكيفية غير مفهومة , ولكنها الناي والعازف للمقطوعة في نفس الوقت . أعاجيب الكون وأسراره هي مختلف لحظات تلك السمفونية الكونية الرائعة والأشكال التي تتخذها مؤقتا في سعيها الحفيف نحو الذاكرة المطلقة والمعروفة المطلقة . لو كانت هاته النظرية العلمية الصحيحة , ولو كان للعديد من الأسباب للإيمان بصحتها لأمكن الرد على سؤالك حول الرميم كالتالي : المادة كما هو معروف من طرف الفلكيين الفيزيائيين موجودة منذ بداية انفجار الذرة – الأم , وستبقى موجودة أبدا , فقانون لا فوزيي يسن الآتي : لا شيء في عالم المادة يختفي ولا شيء يخلق وإنما كل شيء يتغير , أفرض أن المادة الروحانية أو الروح المادية (سمها كما شئت) لم تدخل في شكلي نادية إلا لتسجل تجربة جديدة في ذاكرتها التي لا تنسى شيء . سيعنى هذا أن كل تجارب الأنا بالنسبة لنادية لم تضع ولن تضيع , لأن الفضاء المغلق لشواردها لا يسمح بهذا الضياع , لن تخلد نادية إذن على شكل ملامح أطفالها فحسب أو بنظريات علمية أو فلسفية يؤمن بها طيلة قرون معدودة بعض من تلامذتها إن أبدعت, ولكنها ستخلد بصورة مكتملة في شوارب ذلك الرميم الذي كنت تحسبه الحجة الدامغة على فشل الحياة . يكون إذن تصورنا كالآتي : تشبعت كل خلايا ابنتي بالعديد من التجارب والمعلومات . مر منها ما مر عبر خلاياها كي تعبر الحياة جسر وجودها . لكن الأهم أن شوارد كل ذرة من ذرات جسمها خبأت في مكان حصين كل ما تعلمته وشعرت به . والشوارد لا تموت فهي عاصرت ولادة الكون .. وستكون موجودة إلى الأزل , كانت ذلك اليوم فقيرة فقرا مدقعا .. لكنها تعلمت وسجلت كل ما تعلمت عبر ملايين التجارب والتشكيلات التي اتخذتها . بطبيعة الحال لن يتبخر الرميم الغني بالمعلومات ولا يمكن أن يختفي , لأنه أزلي أزلية المادة .

تصور : هي الآن في جوف الأرض , أي في أديم الكون , في حالة انتظار هل هذه الراحة لازمة فزيولوجيا للقيام بمجرد المعلومات وتبويبها وتصفيفها ؟ .

المهم أن هذه المادة , المتشبعة بتجارب ملايين السنيين والتي أضافت عبر شكلها الذي سمى يوما ما ناديه شيئا من العلم, ستعود إلى الحركة, إلى عملية البناء فالهدم فالتشيد ثم إلى حياة الكون الخالد الفياض . لذلك أقول : لا تجزعي بنيتي الحبيبة .. فقدرنا ليس المحافظة على كيان ثابت و إنما الدخول في عدد لا متناه من اللوحات و الرباعيات و القصائد المتناهية الروعة, التي يؤلفها باستمرار " ذلك الذي يعلم" لذلك أقول مع إيليا.

لتكن لديدان الثرى أجسامنا, أن الجسوم قشور
فالموت ليس يضيرنا فلنا أياب بعده و نشور
و لسوف نبقى بعد أن يمضي الورى و يزول هذا العالم المنضور
فالحب نور خالد متجرد لا ينطوي إلا ليسطع نور

و قد تتساءل : لكن الأشكال التي دخلت فيها " نادية " و الأشكال التي قد تدخل فيها أكانت من عالم الفكر أو من عالم المادة ليست نادية و لن تكون نادية فما الفرق بين هذا و العدمين.
- هل أنت واثق بأن من مصلحة نادية المحافظة على شكلها, ألم تتعلم شيئا من رد الفكر على هذا السؤال في إطار أسطورة زاردوز
- ألم تعرف المادة التي شكلتها تطورا حتى تجمعت في شكلها الحالي, أو كان من مصلحته التوقف عند شكل أدنى إبان تاريخها الكوني الطويل لتحافظ عليه في خلود هو موت الحقيقة ؟
- نادية جزء من كل والأولوية لمنطق الكل على منطق الجزء ومنطق الكل يكمن في تفكيك التشكيلات التي تكونه واعادة تركيبها ما شاء ذلك من المرات .
وتسأل آخر سؤال : لكن أي شكل متطور ستتخذه يومئذ بما أنها لم تفعل سوى اللاإنتقال عبر تاريخ الكون من طور الى طور ارقى ؟ واقول : يا لك من فضولي عجول ... ألا تعرف أن أجمل ما في الهدية طول الترقب
و مفاجأة الاكتشاف .

دمعة الإله

وفي تفسير فظاعة الموت و ظروفه القاسية أي في أهم مظاهر الشر و وجه الفكر بخيار ين رئيسين : القول إنه مظهر من مظاهر كون لا مبال لأنه بلا خالق و بلا معنى, و القول بأنه نتيجة تمرد عارض و عقاب عادل , تمرد أطفال مشاكسين , و عقاب " أبيهم الذي في السماوات " .
في الفرضية الأولى اختفاء الشر غير وارد , و في الثانية أمر مرتبط بالتعاليم المنزلة.
و وقفت زمنا طويلا في صف الملحدين لأنهم عادة – خلافا لما يدعيه أعداؤهم – أذكى الناس و أشدهم تعلقا بالمثل العليا و ثورته على الله هي غضبة محب عاشق أضناه صد الحبيب . هم يعيشون إيمانهم و إلحادهم بكيفية مأساوية, يريدون العدل حالا, و الحق حالا , يغضبهم صمت السماء و سكوتها عن الفظائع . لذلك كانوا و سيبقون أقرب إلى عقلي و عاطفتي من أولئك الذين تعرفونهم بإيمانهم الوراثي الهش الذي لم يعرف الشك و روعة اليقين . بيد أنني اضطررت إلى رفض حججهم و منطقهم بعد تفكير طويل و تحت تأثر الإعجاب أمام الروائع التي كانت الدراسة العلمية تضعها تحت عيني . و الدالة على وجود إرادة و حياة في هذا الكون الذي يخاله الملحدون فارغا ميتا لا منطقيا . و في تصورهم هذا يقول ريمون رويار (3) (الكون في وحدته , جاهل بنفسه غير واع . هو خليط من الأجساد تتلاقى فيه الأحياء لكنها تجهل أنها تتلاقى في مدينة لم يبنها أحد و في ليلة داكنة و يشكل فيها الليل اللاوعي ذات الكائنات).
من البديهي أنك لا تستطيع أن تطالب بشيء في إطار هذا التصور ؟ إذ لا و جود لمشرع أكبر يمكن أن تعيب عليه قوانينه,أو حاكم أكبر يمكن لومه على حكمه الظالم , فالشر هو إذا نتيجة نفس الصدفة و نفس الضرورة... الصدفة بريئة من الأصل بما أنها الصدفة . إذن أبلع دموعك و جفف دمك و انتظر الضربة الآتية و لا تضيع جهدك برمي السماء بالحجارة , أو بالركوع و السجود لها لأنه لا يوجد في السماء إلا ما يوجد على الأرض أي مادة عمياء صماء , بكماء تتحرك وفق قوانين ميكانيكية عمياء أو تتجمع في تشكيلات مفروضة عليها بقوانين الفيزياء و الكيمياء. نحن نرفض تلقائيا هذا التصور , وتلقائية هذا الرفض , واجماع البشرية عليه هو في حد ذاته حجة دامغة , لذلك يجب عدم إعطاء الحاد أهمية قصوى . هو حلة عابرة . أو قل نزوة من نزوات الفكر إبان فترة تمرد ويأس أمام استعصاء الواقع على الفهم , الإنسان لا يختار مواقفه السياسية عن منطق واقتناع نظري , بل وفق مصالحة لذلك هو لا يختار إلا المواقف الفلسفية والدينية التي تتماش مع مصلحته , وهذا شيء طبيعي . أنا مثلا أفضل شهيّ الطعام , أي أن أنقاد إلى شهواتي بدلا من إثبات التمرد على الحواس وتأكيد بطولة بأكل الزفت .
وفي فكري هو الآخر بحاجة إلى المعنى . فلولاه لما قبلة العيش في هذا العالم الجهنمي فالإيمان ضروري والفكر ضرورة الطعام للجسم لكن ماذا نفعل برعب ديمتري والكلاب تنهش لحمه ؟ أي ذنب ارتكب تلك الليلة ؟ أتقاعس الله عن نصرته ؟ هل كان ساهيا لا بد لأي نظرية تقول بان للعالم هدفا ومعنى أن تفسر هذا الموت البشع , وألا وجب رفضها . عليها أن تجد مخرج لتناقض الرهيب بين صورتنا للمعنى كإرادة الاهية لا تريد بنا شرا , وبين الواقع والشر و الفظاعة و الظلم الذي نعايشه في كل لحظات الحياة . لكن أين المنفذ؟ عندما يواجه الفكر إبان البحث العلمي

بنقص التجربة للنظرية يتخلى بسهولة عن النظرية , ثم يأتي بنظرية أخرى و يتحكم من جديد إلى التجربة للتيقن من سلامتها, و هكذا إلى أن يحدث توافق مؤقت بين متطلبات الوقع تصوره : و الفكر في بحثه الدائم لا يعير أدنى أهمية للنظر فهي مجرد أداة فكرية , تستعمل للاقتراب من تصور معقول للأمور و بالتالي لا يعطيها أولوية على الواقع , و لا يضفي عليها قدسية ما . و من ثمة سرعة تداعي النظريات في العلم و موتها الذي يمكن من التقدم في البحث و الاكتشاف لكن الحرية التي يظهرها الفكر في تعامله مع عالم المظاهر الطبيعية محجره عندما يتعامل مع المقدسات التي تمس معنى الوجود . فالفرضية المقدسة هي دعامة حضارة إنسانية . و أنت لا تستطيع تغيير تفكير حضارة بسهولة, لكن علينا أن نفكر و سنبقى نفكر لأن الفكر لا يستطيع منع نفسه من التفكير مثلما يستعصي على الأذن أن لا تسمع , هل بالإمكان إيجاد مخرج للتناقض إن نحن اعتبرنا تصورا أخر ، غير الفرضية الأخناتونية؟ المشكلة أن قصر النظر الحضاري الذي نعاني منه كلنا بصفة أو بأخرى يجعلنا نقرر أن هناك صلة إجبارية بين المعنى في الوجود و بين إحدى التصورات له مع الجهل بنسبيته في الزمان و المكان ، أي أننا غللنا أنفسنا بقيود عندما قررنا أن علينا إما الإيمان برب أخناتون (الأب المثالي لكمشة من الأطفال المشاكسين و المسؤولين عن الشر بتصرفاتهم الخرقاء) و إما قبول نظرية الظلام و العمى في الكون و من ثمة الإنسان المعاصر الرافض للإلحاد رفضه للمفاهيم الخرافية المبنية على تشبث بحرفية بعض النصوص المقدسة. لنتخذ طريقا أخر للخروج من التناقض بالتوقف مليّا عند إحدى الفرضيات الهامة التي اعتمدها الفكر في تعامله مع المعضلة الأزلية : تصور الفيلسوف الصيني لا وتسو. و ليلاحظ القارئ مدى تطابقه الغريب في بعض مع تصورنا الحديث للكون كما نستطيع (بكثير من الحذر) استنباطه من أكثر العلوم تقدم .

الصراط و فضيلته

يقول المعلم لاوتسو في محاولة تعريف القوة الجبارة التي تتحكم في الكون و التي يكمن داخلها سر الأسرار :

" مهما رسمت من معالم فلن تكون معالم الصراط
مهما أطلقت عليه من أسم فلن يكون أسمه الأزلي
لأنه بلا اسم ، ينبوع السماء و الأرض"

نلاحظ مبدئيا أن الفكر يتخلى هنا عن إحدى طموحاته الرئيسية : حصر سر الكون و مصيره في اسم , في كلمة, في جملة... أو تراتيل .

الظاهرة القارة عند لا وتسو , هي تركيزه طوال الكتاب على هذه النقطة التي تشكل تغير الإستراتيجية هاما في محاولة الفكر اليائسة لاكتشاف حل اللغز .

" أنا لا أعرف لأه اسما لذلك سميّته الصراط.
لا أعرف عنه شيئا .
لذلك أقول عنه أكبر"

الاسم إذن هنا مجرد اصطلاح تفرضه طبيعة الكلام و حاجة التخاطب لكن لا وتسو يعرف وثنية الفكر و سهولة خلطه بين الاسم و بين الشيء , لذلك تراه يركز دائما و أبدا على أهمية الحذر من الألفاظ.

- " لا تكون الهياكل إلا و تظهر الأسماء لذلك عليك كلما ظهرت أو تتوقف "

نفهم إذن لماذا يرفض لا وتسو الدخول في محاولة لوصف هذا الصراط و يكتفي ببعض العموميات

" ينبوع السماء و الأرض
هو كائن... لا محدد و لكنه كامل
بلا كلام, بلا حدّ
أزلي قار , لا ينفى".

و يتابع الرجل هكذا في محاولة يائسة لخلط الأوراق , و محو كل علامة يمكن أن توحي شبها ما مع الطبيعة البشرية و كأنه يحاول أبعاد المخيلة أو إضافة كل أثر يمكن أن تحاول اتباعه و محو معالم كل الطرق التي يمكن أن تحاول اتباعها.

" أن نظرت بالعين فلن تراه

" لأن اسمه من لا يرى
و إن أضحت السمع فلن تسمعه
لان اسمه من لا يسمع
و إن لمست باليد فلن تلمسه
لأن اسمه من لا بطوله اللمس
هو شكل بلا شكل
سراب
اتجه نحوه فلن ترى وجهه
اتبعه فلن ترى له ظهرا "
ومع ذلك الصراط هو أم كل الكائنات عنه تولدت وإليه تؤوب .
" من الصراط وجد الأحد
وعن الأحد تولد الاثنان
ومن الاثنين الثلاثة
ومن الثلاثة العشرة آلاف "
الفكرة الرئيسية الأخرى التي تشكل محور الكتاب هي أن عملية الخلق التي تجعل العشرة آلاف من الأحد هي تلقائية , سماها الصوفيون الفيض , بالإضافة إلى أنها لا تتجزأ لأن العشرة آلاف تولدت عن الواحد مثلما تولد المطر من السحاب أو الأغصان عن الجذع بالشجرة . ويستعمل لاوتسو في العديد من المواضع تشبيه الماء ليعطيها فكرة عن تصوره لهذا الذي اسماه بالصراط والذي لا يعرف عنه شيئا , فالكائنات بالنسبة له هي كقطرة الماء في النهر المتدفق .
" الصراط كالماء المتدفق
إلى اليمين فإلى اليسار
يعطي الحياة للكائنات
يغذيها بفضيلته
ينتج, يحمي ويتعهد
يخلق ولا يتملك
تتحرك الكائنات ولا ينتظر منها شيئا
تتطور ولا يحد من حريتها "
الحياة بظواهرها إذن كالشرار المتطاير من الأتون والصلة بين الشرارة والأتون التي تحمى فيها النار المقدسة هي صلة الترابط .
كل الأشكال من الصراط والصراط هو كل الأشكال والإنسان شرارة من ملايين الشرارات التي تضيء الكون بأعجب نور وأغرب لهب . الفرق بين تصور إخناتون وتصور لاوتسو شاسع فهنا لا مكان لخالق أو مخلوق ... لأنني الصراط ولو أن الصراط ليس أنا .
عندما أنظر إلى الماء أرى خيالي , خيالي أنا بالطبع ولكنه جزء ضئيل مني فأنا لست خيالي . أنا الشيء الآخر الأكثر تعقيدا وحياة وحرية ... تلك هي طبيعة الصلة بين " جسم " الكون وأجزائه وخلاياه المتعددة والمتباينة : النجوم , الكواكب , العشب , أنا , أنت , ملايين الكائنات الحية . كلنا منه وإليه وكلنا خياله وظله وليس الحصيلة الحسابية لنا لكنه شيء آخر لا نتصوره بعقولنا , كما لا يمكن لخلية قشرة جلدية أن تتصور دورها ومكانتها في جسدي ناهيك عن أهدافي وغايتي . قال شاعر نسيت اسمه : عندما أخرج إلى الشارع وأشاهد آلاف الوجوه المتباينة أقول ما أكثر أقنعة الله ...
لكن وجوه الناس , مثل وجوه كل الكائنات الموجودة تلك التي نقول أنها حية , وتلك التي نقول عنها أنها جامد , ليست بأقنعة لأنها بغير حاجة إلى قناع , تلك هي مختلف لحظات وأشكال وجوب عبر الزمان والمكان.
الصراط إذن ليس كائنا منفصلا عن الخليقة, يخلق الكون ويبقى يتفرج وهو يتثاءب على سيناريوهات يعرف مسبقا نتيجتها , هو في نفس الوقت السيناريو بكل فصوله: كاتب السيناريو و ممثل كل الأدوار . ومن البديهي أن هذه النظرة تدخل تغيرا جذريا على علاقة الإنسان بمصدر

كل وجود , فهو إحدى خلايا " جسم " الكائن الأوحد, يحتل مكانا محددا, يلعب دورا يخضع لقوانين محكمة, و يعمل وفق مخطط بارع .
هو إن اعتمدنا المقارنة المفضلة عندي (وقد حذرتك عزيزي القارئ بما فيه الكفاية من خطر الاصطلاحات والتشبيهات التي تفرضها علينا اللغة الناقصة) كمثل غصن وارف من شجرة باسقة , جذورها المجرات بملايين شموسها وكواكبها , وجذعها مادة الكون وأغصانها ملايين أشكال الحياة من أبسط خلية إلى أعقد كائن . شجرة أزلية مباركة تورق دوريا , وتلد أشهى ثمار ولا تنفك أغصانها تتفرع وتتعالى وكأنها تريد احتواء السماء
نحن بعيدون كل البعد في إطار هذا التصور عن عذاب المخلوق من رحاب الجنة أو الذي يصلى نارا تحت نظرات رب ساخط ناقم غاضب متوعد , يتهدده دوما ويطالبه بشتى مظاهر الخضوع ويحاسبه على الصغيرة والكبيرة ولا يرضى عنه وعن أعماله إلا إذا اتبع نهجا معينا فالإنسان في نموذج لاوتسو جزءا لا يتجزأ من جسم الكائن والصراط كما أكد على ذلك مرارا : يخلق ولا يتملك , يعطي ولا يطالب بشيء لسبب بسيط هو أنه لا يخلق إلا لنفسه ولا يعطي إلا لنفسه. وأنت تعلم أنك لا تشكر فضل يدك إن رفعت القدح لشفتيك لتشرب ولا تقطعها إن أسقطته خطأ . كذلك أنت لا تطالب يدك بأن تمدحك أو تخشاك لأنك يدك ولأن يدك أنت , الاستنتاج المنطقي هو أن الصراط لا ولن يبخل على الإنسان لأنه لا يبخل على نفسه بشيء إذ هو لا يفعل منذ البداية سواء تعهد نفسه ورعايته , كذلك يجوز القول ما مس الإنسان ضر إلا ومس الصراط في نفسه , ألا تعلم بتجربتي : إن كل جسدك يتألم إن أصاب عطب خلية واحدة من خلاياك ومن ثمة تفهم لماذا يستهجن لاوتسو فكرة الخوف من الصراط , أتخشاك خلايا عينيك أم تهابك خلايا جلدك أم ترتعد فرقا أمامك خلايا قلبك ؟ وكذلك تفهم أيضا لماذا لا نجد عند الفيلسوف العجوز بداية تنظير لعلاقة من نوع ديني بين الإنسان والصراط . أليس من السخف أن نطالبه بشيء تتهمه ضمنيا بأنه بخيل بخل أبطال الجاحظ وهو الذي لا يبخل ولا يظن على الإنسان بشيء لأنه لا يبخل ولا يظن على نفسه بشيء .بصراحة أنا أحب تصور لاوتسو لما يظهر الفكر فيه من عبقرية فذة في فن خلق النماذج وتطور أحسن الاحتمالات لكني أفضله كما أفضل موسيقى شوبرت وبراهمز على موسيقى انطون برج أو شتوكها وزن أو شو نبرج , أي أنها مسألة ذوق لا أكثر , لهذا تراني قلما أناقش أحدا في اعتقاداته الدينية والفلسفية فأنا إنسان مهذب لا ينحو على أحد بملامة لأنه لا يشاركه في حب نفس الأطباق أو لأنه يخالفه الرأي في تفضيل نمط معين من النساء على نمط آخر . المهم أنني لم أثبت أن اكتشفت عيبا في " اللوحة " أفسد عليّ مزاجي و جعلني أردد بحسرة قول الشاعر " لكل شيء إذا ما تم نقصان".
نعم أزعجني النشاز من جديد معضلة الشر واستحالة ايجاد تفسير مقنع لها في إطار هذا النموذج . من جديد، ما تفسير_تبرير الفظاعة والشر ؟ وعلى وجه التحديد لماذا مزقت نواجذ الكلاب جسما الطفل ديمتري بهذه الكيفية البشعة ؟ ترى هل سيرتطم النموذج على صخرة هذه المعضلة ليتحطم هو الآخر ولتتطاير شظاياه تشهد بفشل لاوتسو في الرد على أهم سؤال يواجهه العقل البشري منذ بدأ يفكر أليس هناك تناقض مريع داخل النموذج والقول : إن الكل داخل الصراط هو الكل ؟ ألا يعنى هذا منطقيا أن نواجذ الكلاب هي نواجذ الصراط ؟ ألا يعنى هذا أن صلف السيد وقسوته هما صلف الصراط وقسوته ؟ ألا يعني هذا أن البشاعة والظلم والفظاعة هي أيضا من خصائص الصراط وكيف يستقيم الكلام ونحن نقرر مبدئيا أن الصراط كامل ؟
أعدت قرأت الكتاب مرات متعددة , أزن كل كلمة بميزان أبحث عن مخرج معقول , لكنني لم أكتشف إلا تخلصا يائسا يزيد الطين بلة .
للفيلسوف العجوز بطبيعة الحال تفسيره لشر إذ يقول :
ـ " عندما ترك الصراط وجد الحب ووجد العدل
ظهرت الحكمة , ساد الحذر , عم النفاق وتخاصم الأقارب
كان التصالح , فسدت الدولة فظهر الإخلاص . "
لاحظ احتقار لاوتسو لما نسميه بالفضيلة , هي مجرد ردة فعل أو محاولة يائسة للحد من آثار ومضاعفات الخطيئة الأولى : هجر الإنسان لصراط فالفضيلة الحقة بلا فضائل , نحن عندما نتمتع بالصحة لا نحتاج إلى الأدوية والمراهم وأخصائي التشخيص والعلاج , والفضيلة كالصحة حالة مثالية تجهل أنها حالة مثالية . لو لم نترك الصراط لا كان التخاصم ومن ثمة لما وجد

التصالح . ولو لم تفسد الدولة لما كنا بحاجة إلى هذه الأدوية المتفاوتة الفاعلية التي نسميه العدل والإخلاص الخ ...
المشكلة أن لاوتسو لا يأتي بتفسير مقنع لأهم نقطة , لماذا ترك الصراط ؟ ترك وكفى هكذا . والحل ؟ اقتفاء أثر الصراط والالتحام به من جديد وكأنك تسمع زفرة تتصاعد من صدر الرجل وهو يكتب .
لو تبعه الأمراء والملوك لتغيرت الكائنات تلقائيا .
لكن مهلا يا معلمي . لا تدخل في تناقض مريع مع الفكرة الرئيسية التي تشكل خاصية تصورك لعلاقة الإنسان بالكائن الأوحد ألم تتولد العشرة آلاف عن الصراط ... وكأنها أغصان شجرة تنمو , ألم تقل إن كاتب السيناريو وكل السيناريوهات التي خلقها والأدوار التي يؤديها هي ذات واحدة , ألم نستنتج من كلامك أن الإنسان قطرة ماء من شلال الصراط نفحة من طيبه , وغصن من شجرته المباركة الوارفة الظل , شرارة من ناره المتوهجة, خلية من خلايا جسمه, أو يعقل أن يترك الإنسان الصراط وهو الصراط بذاته ... كيف يمكن لصراط أن يترك الصراط ؟
قلت : إن من طبيعة التصورات والنظريات العلمية الخلاقة (خلافا للعقائد والإيديولوجيات عندما تتحجر) إنها تعرف محدودية تفسيرها لظواهر , فهي تعلم أصدق العلم أن كل نموذج نظري هو نموذج مؤقت يفسر عددا معينا منها أصدق و يترك أخرى في الظلام و من ثمة هذه الحالة التي يعرفها العلم من دون التقنيات الأخرى التي يعتمدها الفكر , أي حالة البحث الدائم الذي لا يكل ولا يفتر عن أحسن الوسائل لتعميق النتائج وتطويرها ولو تتطلب الأمر مراجعة النموذج النظري نفسه . لا أتعامل مع أي معضلة سواء كانت في عالم الفلسفة أو العلم , إلا بهذا المنهجية التي علمني إياها أستاذي في المخابر العلمية وأروقة المستشفيات .
جربت إذن عدت حلول علها تستقيم مع المنطق وتحفظ من نموذج تماسكه , قلت : أترى الشر مرض طارئ يلم بجسم الصراط لكن لاوتسو يقول عن الصراط إنه كامل والمرض نقص .
قلت : أترى الصراط مزدوج الطباع , أو لا مبال لا يهمه الخير والشر . لكنه احتمال رهيب لا يطيقه العقل ولا تقبله العاطفة , وهذا يعني بأن الإنسان ضحية لا مبالاة الصراط في أحسن الحالات أو هو سادية لا مفر منها ولا مرد لها في أسوئها. قلت : أترى الشر ... ؟ ولم أجد جوابا مقنعا لذلك قررت إغلاق ملف تناقضات لاوتسو , تركت الكتاب جانبا ولم ألتفت إليه زمنا طويلا .
لم يكن ذلك هروبا أو استسلاما , وإنما عملية أرجاء . وقد تعودت إغلاق ملف المشاكل الفكرية والشخصية عندما يستعصي علي الحل, أغلقها وانتظر . تسأل تنتظر ماذا ؟ فعلا .. أنتظره . هكذا وبكل بساطة انتظر أن تتمخض الأحداث عن عامل ما يعجل بقرار . أنتظر أن يهضم عقلي الباطن معطيات المشكلة , أن يفكر فيها بهدوء ... أن تتصاعد من أعماقه الفكرة التي طالما بحث عنها عقلي الواعي بدون جدوى . الغريب أنه قلما يطول انتظاري أو يخيب أملي . فكم من مرة اهتديت إلى الحل وأنا انتظر الحافلة مفكرا في مشكلة لا علاقة لها بالموضوع أو أنا أتقلب في فراشي أبحث عن النوم .
هجرت " الصراط وفضيلته " شهورا وشغلتني متاعب الحياة عن التفكير فيه وولى الصيف وأقبلت السنة الدراسية تفرض علي تخصيص جزء كبير من وقتي للمحاضرات الجامعية.
وشاءت الصدف تلك السنة أن تطلب مني الجامعة تدريس مادة وصف الجهاز العصبي من الناحية المورفولوجية والفيزيولوجية تمهيدا لدراسة أمراضه , وكان أول درس أردت أن أبدأ به سلسلة المحضارات تطور الجهاز العصبي . وكانت الفكرة العامة لدرس إظهار التطور الهائل والمتصاعد الذي شهده الجهاز وذلك عبر الزمن ابتداء من الخلايا البسيطة مرور بشتى الحيوانات البدائية من أسماك وضفادع وثدييات إلى مخ الإنسان بملايين خلاياه وتجانسها المذهل وتعقيدها المخيف . جلست الساعات إلى مكتبي أرتب أفكاري وأتمرن على الرسوم التي ستعطي فكرة للطلبة وعن عملية التطور هذه وتناثرت الرسوم في فوضى كبيرة على مكتبي وكان الحل أمامي ساعات وأنا لا أراه وفجأة اتضحت لي الإمكانية التي بحثت عنها شهورا عبثا وراعتني بساطتها , وبهرني جمالها ... وكدت أرقص طربا .
ترى هل هذا الحل (أقول حلا و لا أقول الحل ... لا تنس أننا لا نبحث عن الحقيقة بقدر ما نحاول التغلب على النشاز في مقطوعتنا الموسيقية) و أعدت ترتيب الصور من جديد. بسطتها على مكتبي , و ضعت رسم الجهاز عند أبسط الحيوانات بأقصى اليسار و مخ الإنسان بأقصى اليمين

و سائر المراحل في الوسط... و زادت قناعتي بأن حل معضلتي الفلسفية في هذه الرسوم المتصاعدة التعقيد, و في هذه الصور التي تدل بوضوح لا نقاش فيه و لا غموض أن هناك في الكون حركة تخلق و تطور ما خلقت من البسيط إلى المعقد و من الناقص إلى الكامل.
نعم لم تخطئ يا معلمي إلا في نقطة واحدة . سقطت في نفس الفخ الذي سقط فيه الكثير من حملة الفكر من قبله و الذي سيسقط فيه كثير من حملة الفكر بعدك . الصراط ليس كاملا لأن الصراط بصدد البحث عن الكمال.
و تبخرت معضلة الشر و فظاعة الموت...
الكون إذن يتطور , هل هو حيّ بالمعنى المتعارف عليه أما هل الحياة كما نعرفها هي إحدى ظواهر حركته ؟ أي أنه يتطور عبر الحياة والسكون , وربما عبر تجارب ذاتية أخرى لا نعرف عنها شيئا لأن عقلنا لا يعرف إلا الثنائيات موت / حياة ... نوم / يقظة ... ظلام / نور ... فرح/ حزن ... لا أدري ... لكننا نستطيع التوصل إلى استنتاج مهم آخر لا يقل شرعية عن قانون التمييز والتعقيد المتصاعد .
لماذا انفجرت الذرة الأم ؟ ولماذا دخلت الشوارد التي يقول عنها شارون إنها وراء التجربة الكونية بأسرها مغامرة البناء والتشييد على هذا الصعيد الجبار ؟ لا أحدا يدري كل ما نستطيع الجزم به هو أن المادة الذكية الخلاقة تتحرك بهدف . يقول علماء القرن التاسع عشر : أن الإرادة تولدت عن تجمع مادة عمياء , بكماء صماء أي أنها نتيجة تجمعها ولبست ..... وقلت أن هذا الاحتمال وارد لكنه مستبعد إلا إذا أثبت هؤلاء العلماء (وهم كما لا ننسى حملة الفكر وترددوه) إن بإمكان الموسيقى أن تنفجر من عازفين بلا هدف بلا أيدن ولا ذاكرة ولا ذوق لذلك سأقول للبداية كانت الإرادة , والإرادة هي سر الأسرار في الكون وفي كل مظاهره
أريد فترتفع يدي ... أفكر في شيء مزعج فيزداد خفقان قلبي ... أنا أعرف , ككل الذين درسوا شيئا من البيولوجيا , تتابع العمليات الفيزيولوجية التي أدّت إلى ارتفاع يدي . أعرف المنطقة المعينة في المخ التي تتحكم في اليد ... أعرف الألياف العصبية وطريقها من ذلك المكان إلى عروق الطرف الأعلى . وأعرف بعض الشيء عن طريقة انتقال الأمر واستعمال الجسم للكهرباء والمواد الكيماوية لنقله ... لكنني لا أعرف كيف أردت ومن أراد ... شيء غير مادي فأثر على المادة فارتفعت اليد .
ولا بد أن إرادته من نفس النوع ؟
الرد بسيط للغاية ... أنا وأنت . منه وإليه ... لذلك فنحن لا نريد إلا ما نريد . وماذا نريد .... لا شيء سوى الكمال ... نعم الكمال ... نسمي هذا : التقدم بلغة الاقتصاد , والحب بلغة العاطفة , والسعادة بلغة علم النفس الخ ... لكنها اصطلاحات , لا تعبر عن شيء إلا عن التطلع إلى حالة نسميها الكمال . والبحث عن هذا الكمال ليس وقفا على الإنسان في انشاده ونحته الصخرة وعزفه على كل الآلات التي ما انفك يخترعها بل هو ظاهرة قارة في عالم الكائنات الأخرى التي تبحث عن أقصى التعامل الفعال والاندماج الأكمل مع محيطها وبيئتها , وهذا واضح في ذلك التعقيد المتزايد في الكائنات التي تتصاعد وكأنها أنغام من وتر أو أبيات من قصيدة عصماء لمؤلف لا يرضى بغير الجمال المطلق هدفا .
لذلك يكون القانون الثاني كالآتي : يرنو الكون من خلال تعدد المظاهر التي يتخذها وتصاعد تعقيدها إلى هدف واحد هو الكمال أو ما يقاربه .
الاستنتاج المنطقي والبديهي للقانونيين إذن هو أن الإرادة كانت وكان البحث عن الكمال , لتجاوز حالة النقص المبدئية.
نحن بطبيعة الحال بعيدون كل البعد هنا عن النموذج الفكري الأخناتوني الكائن الأعظم أي تصوره له ككائن مكتمل ومنفصل عن المخلوقات الناقصة. وقد رأينا استحالة إيجاد تفسير مقنع لشر في إطاره إذ كيف يمكن للكمال أن يولد الناقص لكن تصورنا الجديد بجانب تماشيه مع مقولات العلم , يسمح بحل المعضلة .
لنحوصل :
– الصلة بين الخالق والمخلوق هي إذن صلة الترابط والتلاحم , صلة الغصن بالجذع ومن ثمة نفهم حكمة مجنون ايليا وهو ينشد :
ليس جلال الليل ما أدهشني وإنما أدهشني جلالي

ولا جمال الشهب ما حيرني وإنما حيرني جمالي
إن كان بي شوق إلى وصال فإنما شوقي إلى خيالي

– الكون المادي كما نراه ونعرفه بالدرس والحواس : الأجرام في السماء , الفضاء اللامتناهي ... الكواكب المائتا مليون نوع من الكائنات الحية على سطح هذا الكوكب وحده , آلاف الملايين من الكواكب الأخرى وملايين الأنواع من الكائنات المتباينة , المذلة التعقيد المتفاوتة التطور المتباعدة في الزمان والمكان التي تملأ أرجاء الفضاء على امتداد ملايين السنين . وباطنه ؟ القانون الذي يسند كل حركة إلى مصدرها ويحدد لكل موجود طبيعة ونوعية وجوده وأهدافه. وكلها أنهار متدفق تبحث عن بحر اسمه الكمال والبحث عن الكمال لا يكون إلا لأن هناك نقصا يجب تجاوزه.

3 – قال أحدهم : الحياة مدرسة دروسها إجبارية وثمنها باهظ . وكيف لا يصدق هذا القول على مغامرة الصراط ونحن جزء منه لا ننطق إلا بما ينطق ولا نعبر إلا عن خلجات فكره و الثمن الباهظ هو الشر بشتى مظاهره : القبح , الفظاعة , المرض المستعصي على العلاج , خوف الموت وألمه ضياع الفكر في الإنفاق .. واليائس الذي يعتريني يعتريك عندما تضيع ملامح الطريق .

لكنك تعلم وإياي أننا قل ما نستسلم , أي أنه على صعيدنا . فنحن ملامحه المتغيرة لا نستسلم . لذلك ترانا نبحث (تراه يبحث) عن التوازن عن الحب , عن المعرفة , عن أقصى الفاعلية عن الجمال وأنت تعلم أصدق العلم , أننا نتعثر, نضل الطريق , نخفق , نتألم بكل مسام الجسد والروح , (إنه تعثر فينا , ضل الطريق , أخفق الطريق , تألم بكل مسام الجسد والروح) ولكننا نتطور بفضل التجارب . إنها الضريبة الإجبارية التي يجب أن ندفعها لكي يتم ذلك التطور , لكي يكون تقدمنا المترنح نحو الكمال أو ما يقاربه .

لنعد الآن إلى ديمتري , ديمتري طفل دستيوفسكي المصلي لعذراء قازان في المراحض المظلمة ليالي الشتاء , المتخبط تحت نواذج الكلاب , الطفل الذي قال عنه دستيوفسكي أنه أسهم حجة على عدم وجود الله , وأنه لن يصفح باسم عذابه ولو نزل المسيح , الطفل الذي حملت آلمه ورعبه عشرين سنة في تلافيف مخي , أقيس بهما بوعي وبدونه كل نظريات الورى التي قال عنها ايليا أنها جعجعات بلا طحن لبعد النظر إليه لأننا سنفهم هذه المرة مأساته وسنفهم أنها لن تكن مأساته بقدر ما كانت إحدى التجارب الرهيبة التي مر وسيمر بها الصراط وهو يبحث عن الكمال في شتى مظاهره .

لا بد أنه تأمل , لا بد أنه يشعر بحزن عميق وجسد ديمتري أي جسده هو يتمزق حتى أنياب الكلاب في تلك اللحظة الرهيبة . لا بد أنه أدرك أن مخارج الألفاظ غير عادية , إن الناي أصدر صوتا منكرا إن ميزان القصيدة مختل . ويسقط احتجاج دستيوفسكي الرهيب . منطلقنا الطفولي يطالب بتعويض ديمتري ولكن عذاب ديمتري كان عذاب الصراط نفسه وكيف أستطيع تعويض يدي عن الضرر الذي لحقها يوم احترقت يدي وأنا أعد القوة وتعلمت أن إعداد القوة يخضع هو الآخر إلى للقانون , وأصبحت أعرف الاحتراز من النار وهو الآخر يجرب على مستواه . فالشر إذن ليس نتيجة تقاعس رب خلق عباده ونسيهم , وليس صنيع رب ماكر ساد يريد الشر تشفيا لمرض في نفسه , وهو ليس مظهرا من مظاهر الصراع جبار بين إله خير والاه شرير , وهو ليس عمل شيطان خبيث تولد صدفة إرادة غلاه يعبث بالشيطان نفسه وبقدرة المخلوقات على التصدي له ... الشر هو ثمن تطور معرفة الكائن الأول الذي انبعثت منه الكائنات وكأنها شرار من أتون , وقطرات ماء من شلال هادر .

طريقة موت ديمتري كانت تجربة فاشلة من تجاربه , هي الضريبة التي يدفعها لكي يتعلم , وكذلك موت الأبرياء تحت التعذيب : الحرب , الظلم ... الذل ... الجوع ... حشرجة الغزال تحت أنياب النمر ... بكاء الجدي وهو يساق إلى الذبح... شهيق المريض وهو يموت غريقا في الهواء الطلق ... تلك اللحوم البشعة التي تقطر دما في واجهة المجزرات... وهذا القبح المستشري في كل مكان قذى في عين جمال الدنيا... كلها تجاربه ... فهو الآخر يتعلم بصفة ما كيف تسخن القهوة . هو حقا نحات مبدع وموسيقار من طراز لا مثيل له, وشاعر فذ ومهندس المهندسين لكنه رغم علمه ليس كامل فهو يخطئ على مستواه كما أخطئ أنا وأنت ... يدخل في تجارب فاشلة ... يقع في ورطات ... لذلك فهو مضطر إلى محوها يكتب بين الفينة والأخرى لإعادة

توازن القصيدة, وهو كما قلت لا يجرى تجارب إلا على نفسه لأن كل أجزاء الكون ... أجزاء جسمه (لم تنس بالطبع أنها اصطلاحات مجازية) .
وتقتنع أو تفتعل الاقتناع لتواجهني بالسؤال الأوحد :
- أتراه أذن مقدم على مزيد من التجارب التي سترفع مستوى النظام والكمال في الكون فيشع العالم يوما نورا ولا يبقى من آلامنا (وآلامه) إلا ذكر إرهاق سفرة طويلة ... ذكرى تكون باهتة تكاد تكون منسية نسبيا وقد طغت عليها نشوة النصر وفرح الخلاص وروعة الإنجاز الفني .
وأرد بدون أدنى تردد وفي أعماق فؤادي تنطلق الصرخة الجذلى :
- بلى هذه هي قناعتي . هذا هو إيماني .
وتلح :
- لكن ماذا عني , عن تجاربي , عن آلامي , عن نواقصي , عن فشلي , عن بعدي المخيف , عن حالة الكمال التي يرنو إليها ذلك الذي لا يعلم ؟
وأقول : تجربتك لحظة من تجربته وفشلك هو فشله , لكن استمتاعك في البحث عن الكمال ليست إلا جزءا من تلك الإرادة الجبارة التي تعرف كيف تحقق ما ترغب فيه, و أنت خلافا لما بدا لك يوما في إطار نزعة صوفية لا تبحث عنه, إنما تبحث معه , تبحث به , تبحث له. لذلك واصل سعيك في مستواك , فهو فيك علمه الهائل هو علمك الباطني فثق فيه و ثق في عبقريته و سهل نجاح تجربته الحالية أي نجاحك أنت . و تقول من جديد : لكني أشعر بأنني سأفشل أو أنني فشلت في هذه التجربة , و أتابع : لا يهم إن حاولت حقا . فالأبدية أمامنا لننجح مهمة و نتقمص شكلا قارا لا يتغير و إنما لنساهم في آلاف المهام و الأشكال , سيذوب شكلنا الحالي ذوبان السكر في ماء الزمان ليتخذ شكلا جديدا يجرب فيه " الذي يعلم" درجة أرقى في النظام و الكمال , و ستتتابع الروائع المتصاعدة من قيثارته لتدل على إتقانه المتصاعدة للعزف و نضج أسلوبه في تدبيج القصائد , نحن نبحث به , نبحث له عن الكمال , نتقدم به نتقدم معه نتقدم له خطوة صغيرة متواضعة أساسية على الدرب الطويل.

يوم يكمل الناقص

الآن أغمض عينيك معي و أطلق العنان لمخيلتك و ثق فيها . لأنه هو الذي يحلم ويخطط من خلال أحلامك و أحلامي هو الشاعر , الرسام, الموسيقار: هاهي الإنسانية الجديدة بعد تحوير السيناريو و حنف كل الأغلاط البدائية على المسودة الأولى . هاهم أحفاد أحفادنا في عالم تجدد انتهت علاقات القوة و زال إلى الأبد ذلك العهد المظلم الذي كان مئات الملايين من البشر يموتون فيه جوعا و حربا فتضيع هدرا مئات الخلايا العصبية الموجودة في أدمغتهم , انتهى عهد ذلك التبذير المجنون . كل إنسان مقدس, لأن كل إنسان يحمل قبس الشعلة الإلهية... و لكل فرد حقه المطلق في الخبز و الكرامة و العيش الهنيء... كان شأن ذلك العالم الأحمق شأن شركة تملك أحدث المعدات و أقدر العلماء, و هي في حالة إفلاس دائمة لسوء تصرف قسم الحسابات . هذا العالم المتجدد جدّي إلى أبعد حدود الجدية , و فعّال إلى أبعد حدود الفعالية .. قدسية الفرد.. بديهية البديهيات , فهو إحدى خلايا الجسم الكوني , و دوره هائل في الحفاظ على صحة هذا الجسم و تماسكه. و الشعوب كالأفراد مختلفة و واحدة.... السمفونية لا تكون إلا بتضافر الآلات , و لا تستقيم إلا إذا أجاد كل فرد العزف على آلته الخاصة... لذلك فقاعدة هذا العالم هي الحرية المنضبطة و الانضباط الحر : حرية الخلق ...حرية الإبداع ...حرية إضافة جوهر إلى الكنز المشترك . البشرية واحدة متماسكة تماسك أصابع اليد الواحدة, ووحدتها وحدة الثلاثيات عندما يتحاور البيانو مع الكمنجة و الكمنجة مع الفيولونسال. هدف هذه البشرية الجديدة هو البحث عن الكمال في كل شيء... و ليس فقط البقاء على قيد الحياة ... كان ذلك الغل الشاغل ... و كان بداية الدرب الشاق الطويل لكن الحي في هذا العالم لا يخشى على غده ... تغيرت العلاقات بالسماء تغيرا جذريا. أنظر هاهي معابد الإنسانية الجديدة ... أنت لا تعرفها إذ لا تشبه شيئا معهودا . هي تذكرك بورش الصواريخ أو بمكتبات الجامعات أو بمخابر البحث العلمي , أو حتى بمعارض الرسامين لكن دهشتك في غير محلها , فالإنسان الجديد لا يصلي لربي بعيد يبتهل منه العون والإلهام لأنه أدرك هذه المرة أنه ظله أو بالأحرى جزء من جسده إنه ذراع من اذرعة الأخطبوط الإلهي إنه خلية من خلايا عينيه , إن فيه لحظة من لحظات وعي الكائن الأول .

بحثهم الجاد عن الكمال كبحث مخي عن احسن الطرق لوضع رجلي اليمن أمام رجلي اليسرى لأجيد المشي اللاّواعي وأنا أحلم على ثغري ابتسامة راض عن حلمه السعيد . هم الذين يعينون الرب لأنهم يبحثون معهم , يبحثون له , يبحثون من أجله , يكتمل كمال فيهم مثلما يكتمل مثلما يكتمل في كل ما خلق وصنف . ولهذا السبب تغيرت علاقات الإنسان الجديد بكل سكان العالم الآخرين ... هل لاحظت مدى احترامه للحيوان وحتى لنبات ... إنه يدرك إن كل هذه الكائنات هي لحظة من لحظات الكائن الأول , إنها هو ... إنها منه وإليه ... إنه يجرب من خلالها أفكارا ومشاعر ... إنها ظله وخياله مثل الإنسان تماما .

أروع شيء في السيناريو هو اختفاء التصنيف الغبي القائم على التفاضل الهرمي . العلاقات الجديدة هي علاقات أفقية ... لا غالب فيها ولا مغلوب , لا عقدت نقص تفوق أخرى , لا سيد ولا عبد لا غني ولا فقير ... لا إنسان ولا حيوان (وحشي بهيم الخ ...) وإنما كائنات مختلفة ومتساوية في حق الكرامة . كان التفاضل الهرمي خلطت فادحة في السيناريو القديم بل وتسبب حتى في فساد كل التجربة . ألم يفجروا الأرض في صراعهم المحموم المجنون على السيادة والتفوق ؟ بتبخر التفاضل زاد العنف وولى عهد الخوف ... لا أدري هل يستحق هذا السيناريو .. (من يدري ربما لنا معه موعد قريب ؟) فأنا لا أدري أي السيناريوهات ستتفتق عنها عبقريته اليوم , غدا , أو بعد ألف قرن , هنا أو هناك على بعد مليار سنة ضوئية , فمخيلتي لا تستنفد إلا نزرا ضئيلا من مخيلته ... لكنني أريد أن أتابع حلمي لأنني أعرف أنني أحلم بما يحلم به .

اختفى الخوف من العار – متى ؟ لا يفهم المهم إنه اختفاء , هاهو الغزال يركض والنمر يتعقبه يلقيه على الأرض وينهض الغزال مغتاظا لأن النمر فاقه في السرعة , وينظر إليه النمر بسخرية واهتزاز ويطلق الغزال رجليه للريح , ويراهن النسر هذه المرة على الغزال , ويغضب النمر لأنه خسر الرهان ... ويفتعل التعب حتى لا يغلبه الغزال من جديد .

ترعة الماء مكان وديعة وسكينة .. كل الكائنات تروى عطشها وهي مطمئنة , القردة تعابث الفيلة , والفيلة تغرق السباع بالماء المتدفق من خراطيمها , والإنسان جالس هناك يتثاءب ويتمط , يعابث ابن عمه القرد بعصا رقيقة وبكسله المشهور بين الحيوانات الأخرى, والشمس تضئ كل هذا بلا مبالاتها المعتادة ... لكن قل لي من أين ستأكل كل هذه المخلوقات ومن ستأكل ؟ ... الواقع أن استراتيجية الكون تغيرت .... كيف ؟ لا أدري , كل ما أعلم أنه لم يعد هناك آكل ولا مأكول لا بد أن هذه الكائنات الجديدة تعمل ببطاريات بيولوجية شمسية لا تحتاج إلى أكل لحوم بعضها البعض ... والحضارة البشرية ؟ ... سؤال لا معنى له الحضارة كانت كابوس إنسان, إذن لا مكان لها في هذا السيناريو.

ونحن ؟ هل سيستعمل لبناتنا لرسم لوحات تكون فيها الأشكال (المحتوية لمواد أشكالها الحالية) مخالفة تاما لما نعرف وفوق كل تصورتنا . أتركني أحلم بعقلي البشري ومخيلتي القاصرة والصبيانية الساذجة فأنا لا أملك وسائل أنجع , أو أسلحة أمضى . خاصة وأنني بأمس الحاجة لهذا الحلم أتطهر به . أنظر هاهي ... ألم تعرفها , تلك الصبية المرحة وسط الأزهار ... لكنني عرفتها ... وكيف لا وأنا لم أنسها يوما ألم أفتح جمجمتها في ذلك العالم الرهيب الذي عشنا فظاعته ؟ ... أنظر إلى هذه الجدائل من الشعر الكستنائى الرائع وهي تغطي كتفيها .. إنه أطول وأجمل وأروع وأكثر كثافة من شعرها ذلك اليوم , الذي لحقه الممرض الثرثار بلا مبالاة وهي مقدمة على الموت ... على التجدد , هاهي ضحكاتها ترن , وكأنها جرس الكنيسة يوم عرس , يا إلهي ما أجملها وهي تضحك ... لم ألاحظ فيها كل هذا الجمال الباهر ... إنها تعبث مع طفل ... الطفل هو ديمتري ... مؤكد . هو الآخر يعبث ولا أثر فيه لعضة الكلاب . نسي رعبه وهو يتخبط تحت نواجذها . ولت تلك اللحظات الرهيبة إلى غير رجعة ولم تخلف ذكرى أو أثرا كأنها لم تكن . هي الآن ضحكة هذا الكون المسالم ... وهي صدى الضحكة .. ألم يقل لها ايليا بحدس الشعر وإدراكه لحقائق الأمور وبواطنها :

سترجعين خميلة معطارة — أنا في ذراها بلبل مسحور
يشدوا لها ويطير في جنباتها — فتهش إذا يشدو وحين يطير
أوجدولا مترقرقا مترنما — أنا فيه موج ضاحك وخرير
أو ترجعين فراشة خطارة — أنا في جناحيها الضحى الموشور
أو نسمة أنا همسها وحفيفها — أبدا تطوف في الربى وتدور

تخشى الخمائل في الصباح بليلة وتؤوب حين تؤوب وهي عبير
أو تلتقين عند الكثيب عن رضى وقناعة صفصافة وغدير
تمتد فيه وفي ثراه عروقها ويسيل تحت فروعها ويسير
ويغوض في خيوطها فيلفه ويشق فهو المنطوي المنشور
يأوي إذا اشتد الهجير إليهما الناسكان الظبي والعصفور
لهما سكينتاها ووارف ظلها والماء إذا عطشا لديه وفير
أعجوبتان زبرجد متهدل نام تدفق تحته البلور
لا الصبح بينها يحول ولا الدجى فكلهما بكليهما مغمور
تتعاقب الأيام وهي نضيرة مخضرة الأوراق وهي نمير
فالدهر أجمعه لديها غبطة والدهر أجمعه لديه حبور

وأنا أيضا لن ينس إعادة كتابتي . ولي في هذا العالم نصيب هذا ليس بالطبع ... شكلي الحالي ولكن هذا الشكل تجربتي ... والتجربة الجديدة في منتهى الروعة تجعلني لا أتحسر على ماض بغيض .

الليل راهبي وشموعي الشهب والأرض كلها محرابي
وكتابي الفضاء أقرأ فيه سورا ما قرأتها في كتاب
وصلاتي التي تقول السواقي وغناء صوت الصبا في الغاب
وكؤوس الأوراق ألقت عليها الشمس ذوب النظار عند الغياب
ورحيقي ما سال من مقلة الفجر على العشب كاللجين المذاب
تكحل يد السماء جفوني وتعانق أحلامه أهدابي

وأنت الآخر ضيف الوليمة ... كيف ينساك هو الذي لم ينس أحدا أو شيئا :

أنت جزء من الكيان وفيه كثراه كنبته كحصاه
كالوردة التي تحب شذاها والبعوض الذي تخاف آذاه
ما لحي بالموت انفصال إن دنياه هذه أخراه

وأشرد بنظري في السماء ... وأجهد مخيلتي رغم أني أعرف أني لا أعرف ولن أعرف إلا يوم أجرب ... يوم يريد ... يوم تمحى الصورة ... يوم تصنف الأحرف من جديد... يوم تعاد كتابة القصيدة . وأحاول مرة أخرى رغم وعودي المتعددة لنفسي بأن لا أحاول, بان أتصوره " هو " ويستقيل العقل للمرة الألف , وتستسلم المخيلة , ولا أجد أحسن من أبيات إيليا أناجي بها ذلك الذي قال عنه لاوتسو :

أنا لا أعرف عنه شيئا لذلك سميته الصراط
شكل بلا شكل
صورة بلا صورة
سراب
ينتج يحمي يتعهد
تتحرك الكائنات ولا تنتظر منها شيئا
تتطور ولا يحد من حريتها

إيه يا لغز الوجود , يا سر الأسرار , يا من تبحث بك نفسي , يا من يبحث عنك عقلي بحث النهر المتدفق عن أحضان البحر يا من قال محاولة وصفك إيليا وهو أبرع الواصفين :

من احب الله جبارا وفتاكا وقاهر
فأنا أهواه رساما وفنانا وساحر
وأراه في الندى والزهر والشهب السوافر
فإذا الأنجم غارت وانطوت كل الأزاهر
وتلاشى كل ما أنشأ وسوّى من مناظر
لاح لي حسنه الأكمل في ديوان شاعر
ثم لم نظم الألوان في الأرض زهورا
ورأى أن يعلن الحب غناء وحبور

فتمشى في حواشي الأرض سحرا وعطورا
وتهادى في حواشي الأفق أطيافا ونورا
عندما أوجد هذا كان حسا وشعورا
أحسب الله الذي صاغ من الذرات صخورا
والذي شاء فصارت قطرات الماء بحرا
والذي شاء فضم البحر أصدافا ودرا
وأراد الضوء أجراما فصار الضوء زهرا
إن هذا الله لما شاء هذا كان فكرا

تنقشع فجأة السحب الداكنة من أمام عيني المرهقتين . زنزانات التعذيب أقبية السجون , المذابح والمسالخ ... ساحات الحروب عشية المعركة ... أروقة المستشفيات ... الفظاعة... الألم... الخوف ... الرعب ... اليأس ... كل هذا من تجاربه ... تجاربه الإجبارية وهو بصدد إعداد العالم للكمال . لن يضيع شيء .... لم تضع حشرجة المشنوق ... لم تضع تشنجات المذبوح ... لم تضع تأوهات المظلوم ... لم تضع دموع الثكلى ... لم تضع دموع المكبوت ... لم تضع صرخات الحيوان الأبكم ... حشرجته تشنجاته , تأوهاته , دموعه ... لم ولن تخفق المعجزة ... فإعجازها بالعكس في تزايد مستمر لم يضع شيئا لأنه لا يضيع شيئا ... اسمعوا لقد بدأت تستقيم المعزوفة , وأصيخ السمع له وكأنه سيهمس في أذني بالسر... ويتركز عقلي المحموم على روائع ما أنجز إلى حد الآن . ضحكة طفل ... خرير ماء ... قطرة ندى ... يد ممتدة ... قلب خافق ... نور على نور ... حفيف أشجار ... ركض غزال موجات تداعب الصخر مجرات تتفجر ... مريم تلعب مع الشاطئ ... والشاطئ يلعب مع مريم ... جمال ... إعجاز ... عبقرية ... عبقرية ... كوكب أزرق يسبح في الفضاء وكأنه على موعد مع أحد أو شيء ... ثلج يتساقط بصمت على أعالي الجبال الصابرة ... حنان دافق ... حنان دافئ وكل هاته الأبهة عندما تتلألأ النجوم ليلة صيف .

قال لاوتسو :

" سيتمم لا بد من إتمامه
سيقوم ما أعوج
سيملأ الفراغ
سيجدد القديم
سيكمل الناقص"

وتجتاحني فرحة عارمة ورهبة خاشعة وأنا أحاول تصور كل الروائع الأخرى التي هو بصدد إنجازها أو التي يعد لها العدى ويستقيل العقل وتستسلم المخيلة مرة أخرى , وأفيق من حلمي على صوت أمي يتصاعد من بهو الدار العتيقة يرتل كلاما عذبا وأنظر إليها راكعا بحنان وخجل أنا الذي طالما عنفتها وصخرة من صلاتها يوم كنت مصابا بذلك الداء العضال : مرض اليأس والشك ونفاد الصبر .. مرض الإلحاد . وتتعالى من فمها صلاة الفكر القدوس (الله نور السماوات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح في زجاجة الزجاجة كأنها كوكب دري يقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضئ ولو لم تمسسه نار نور على نور تتصاعد من مساجد الصين وإفريقيا أصوات تضمها في دعاء خاشع إلى أصوات متباعدة الزمان والمكان فكأن دار الإسلام صوت واحد يرتل صلاة الإنسانية بلغة الإسلام .

(ألم يك نطفة من مني تمنى ثم كان علقة فخلق فسوى فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى) . يجتاحني فجأة سرور غامض . فهذه الهمهمة التي لا أعرف لها معنى هي صلاة الهندوس على ضفاف القانج تسبح هي الأخرى بحمده وتقول ما تقوله صلوات بنو قومي .

(إن الله عند علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما في الأرحام و ما تدري نفس ماذا تكسب غدا وما تدري نفس بأي أرض تموت إن الله عليم خبير)

تمتزج صلاة الهندوس بقرع الأجراس تتصاعد من كنائس قمم جبل لبنان وكاتدرائيات أوروبا بصدى لترتيل أمة محمد .

(تولج الليل في النهار وتولج النهار في الليل وتخرج الحيّ من الميت وتخرج الميت من الحيّ ...) .

(يستبشرون بنعمة من الله) , (لا خوف عليهم ولاهم يحزنون) , (فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا) . ويطغى لحظة دوي مئات الابتهالات بمئات اللغات على أصوات الكورس القريقوري . الجهورية تنشد في كنائس الشرق واليونان . ثقة الإنسان وأمله .
(قال من يحي العظام وهي رميم قل يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم) . وتؤلف أصوات الطائفين بالكعبة والخاشعين في الكنائس, والمصلين في بيعات اليهود والمبتهلين لبوذا في أعالي جبال الهملايا , والراقصين للفودو وفي أحراش إفريقيا مع صمت الخاشعين أمام المجهر وعزف العازفين على الكمنجة , وغناء الشعراء وضحكات الأطفال والصبايا واحدة من صلاة الإنسانية تصعد من الأرض إلى السماء من مشرق الشمس إلى مغربها ومن مغربها إلى مشرقها . البارحة واليوم وغدا تردد آيات الأمل والإيمان .
(لا اله إلا هو الحي القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم له ما في السماوات وما في الأرض) . وتنتشي النفس . وتتضح لها الحقيقة : " أنا " " فيه " متجدد متطور عبر آلاف الأشكال التي أرادها وسيجدها خالد الخلود , ويغمرها شعورا بالأمان ويهدأ روعها وينجلي عنها الخوف وتستسلم لنور كما تستسلم يوما للموت , لثقة وطمأنينة , صدقت يا ايليا إلا أنت لأنك كالصراط شاعر .

أنا في الزمان كموجة في زاخر أنا فيه أن يزبد وغن لم يزبد
مهما تلاطم فهو ليس بمغرقي أو مخرجي منه ولا بمبددي

تونس 1982